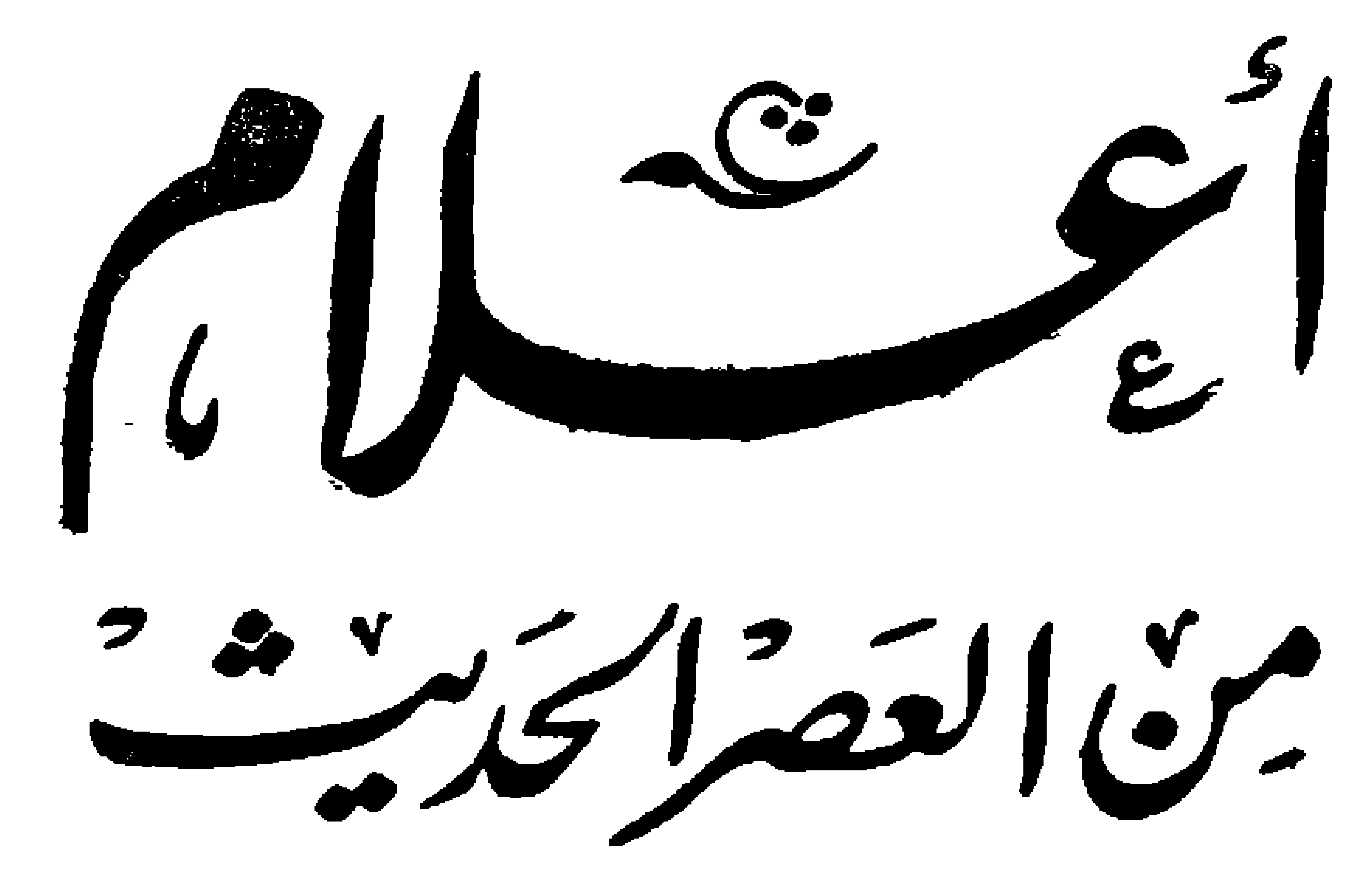


محمود محمود

أعلام من العصر الحديث

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع عماد الدين

محمود محمود



نلا لهم يحذون

المجد رائعة ،

مود محمود

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٠

تقـــديم

هذه سيرة ثمانية عشر رجلا من رجال العصر الحديث ، كل منهم يمثل ناحيـة من نواحى البطولة ، أقدمها للقراء لتكون لهم فى حياتهم عظة وعبرة .

وقد ذيلت الـكتاب بمقال يحوى خلاصة رأى ماثيو أرنولد الأديب الناقد الإنجليزى فى كتابة السير ، كتبه فى صورة خطاب وجهه إلى كتّاب التراجم .

وحليت الـكتاب بصـور الأبطال ، ليكون العرض حيا والسيرة قوية صادقة .

و إنى لأرجو أن يتخذ شبابنا من هذه السير مُثُلا لهم يحذون حذوها ، و ينهجون نهجها ، فهى صفحات من المجد رائعة ، وقصص من البطولة تستحق الذكر والخلود .

محمود محمود



برنارد شو

جورج برناردشو

١٨٥٦ —

(١)

يصف برناردشو شخصه وصفاً دقيقاً فى عبارة موجزة فيقول : « إن بين جنبيّ المهرج وكاتب المأساة ، ولكن المهرج يجذبنى من قدمى فأتعثر بصورة مزعجة » . إن برنارد شو (وهو يكره أن يعرف باسمه الأول : جورج) يعبر عن أعلى المثل بقلم ساخر ، و إن أراد أن ينقد قوماً و يفضح أمرهم دغدغهم بهزل القول حتى يضحكوا من أنفسهم ، إنه ملاك من ملائكة النقمة يحمل فى جعبته الزهور ، وواعظ يلعب بالدمى ، وهو يلقى أقدس مواعظه . شهد ذات مرة بهلوانا في سرك . و بعد ما عرض البهلوان ألاعيبه ، طلب شو أن يتعرف إليه ، فقال له البهلوان : « إنه تنازل شديد منك أن تصافح مهرجا » فرد عليه شو بقوله : « العفو ، إنما نحن مهرجان يتصافحان » . ولم ينظر شو إلى نفسه قط نظرة جدية ، ويدهش — مع ذلك — لأن الناس جميعاً لا ينظرون إليه كذلك نظرة الجد . وأنه ليتمنى أشد التمنى

أن ينعته الناس بأنه « معلم عظيم » ، ولـكنه لا يسمع إلا من يقول عنه : « ما أبرعه من ماجن ساخر »

(٢)

كان أبوه يدمن على الشراب ، و يتذوق النكتة ، وكانت أمه تخترع النـكات البارعة ، وتتذوق الفن ، فـكان كلاهما جذابا محبباً إلى النفوس . و يقول شو عن نفســه وعن أختيه : « كنا فى طفولتنا مرغمين على أن نشق طريقنا فى بيت لا يسوده حب ولا مقت ، ولا يسوده خوف ولا احترام ، ولـكنه يموج بمختلف الشخصيات » .

والتقى شو بشخصيات عـديدة خارج البيت كما التقى بهم فى داخله . وكانت تصحبه إلى الخارج كل يوم خادمة « تـكلف بتهويته ونزهته على شواطئ قناة دبلن » ، ولـكنها فى الواقع لم تفعل ذلك ، وإنما كانت تصحبه فى زيارة صديقاتها فى الحانات أو فى أحياء الفقراء فى المدينة ، فأتيحت له فرصة يشم فيها رائحة المشروبات الـكريهة ، والطعام الفاسد ، و يقترب فيها من بؤس البؤساء ، وشقاء الأشقياء . وشب على مقت هذه الحيـاة الدنيئة و بغضها .

وكان يُرغم كل أحد على زيارة الكنيسة ، ولم تكن هذه الزيارة محببة إلى نفسه ، فكف عنها لما شب وتولى زمام نفسه . ومن أحاديثه : « إن أردت أن تتحد بالله فابحث عنه خارج الدور . إنك لن تجده فى داخلها أيام الآحاد ، وأنت تصغى لتلك المواعظ التى لا تطاق » .

وفى المساء كان يدعو الله دعاء من تأليفه ، لا يدعوه إلى جانب فراشه ، وإنما يدعوه وهو فى الفراش « إن الله لا يحب الدعاء البارد يوجهه إليه الداعى جاثياً على الأرض . وإنما يحب الدعاء الحار منبعثاً من فراش الداعين ، وهم على جنوبهم يتقلبون » .

وقد لقى التعليم الدنيوى — كما لقى التعليم الدينى — نفساً ثائرة عند شو . تعلم اللاتينية عن عم له على غير طريقة منظمة ، ونسيها — كما يقول — حينما بدأ يدرسها بالمدرسة دراسة منظمة . أما فى الحساب ، فقد استطاع « بعد جهد جاهد » أن يتقن الجمع والطرح والضرب ، ولكنه عجز عن تعلم القسمة « لأن معلمى كان لا يكف عن قوله : إذا قسمنا اثنين على أربعة أو ثلاثة على ستة ، وما شابه ذلك . . . » . « أما إن طلبت إلىّ أن أحل مسألة من أربعة أرقام ، فما عليك إلا أن تسلمنى إلى اللوح

والقلم ، وأنا قمين بعد نصف ساعة من الزمان أن أقدم إليك جواباً خاطئاً » .

وقد أخرجه أبواه من مدرسة وألحقاه بأخرى أملاً فى تربيته وتهذيبه . حتى يئسا من إصلاحه ، وترك المدارس ، ولبث بقية حياته رجلا حكيما من غير تعليم .

تخلى شو عن الدراسة المنظمة ، ولـكنه أحب القراءة المرتجلة ، وقد طاف باطلاعه أفق العالم الأدبى بأسره .

وأحب الموسيقى حبا جما . وكانت أمه موسـيقية بارعة ، فشب أطفالها على حب بيتهوفن وهاندل . وتعلم شو العزف على البيانو بغير معلم وسـنه لا تزيد على العشر سنوات إلا قليلا . وكانت أمه قد انفصلت عن أبيه الشاذ ، وأمسى برنارد رأس الأسرة فأحس بضرورة العمل ليعولها . فاشتغل كاتبا فى دبلن فى أحد المحال لفترة ما ، وربح من هذا العمل ربحاً لا بأس به ، ولـكنه سئمه فى النهاية وتخلى عنه . ثم غادر دبلن إلى لندن حيث اشتغل بالنقد الموسيقى ، وعشق هذا العمل عشقاً كبيراً ولـكنه لم يدرّ عليه مالا فكاد أن يموت جوعا ، فركن إلى أمه — على فقرها — تعوله وبات كَلاًّ عليها . وفى هذه الفترة سن

حياته يقول : إننى لم ألق بنفسى فى ميدان النضال للحياة ، و إنما ألقيت بأمى فيه » .

ذلك لأنه اكتشف لنفسه اتجاهاً جديداً فى الحياة . لقد وهبه الله القدرة على الكتابة الأدبية ، وكان فناناً بطبعه « والفنان الحق يترك زوجته تموت جوعا ، وأطفاله عراة ، وأمه تسعى لرزقه وهى فى السبعين من عمرها . وذلك خير له من أن ينصرف إلى أى عمل غير فنه » . وقد أرغم أمه على تعليم الموسيقى لأطفال ليس لديهم استعداد للموسيقى حتى أوشكت أن تذوى من شدة الإعياء . وسمح لنفسه أن يسير فى الطرقات فى رداء مهلهل ، وحذاء ممزق ، يهز كتفيه إذا عيره أصدقاء الأسرة بأنه متشرد لا يصلح لشىء . و إذا أشار الناس إلى جسمه الهزيل ، ابتسم لهم من ثغر تحوطه لحية كثة مشعثة وأشار إلى رؤوسهم . وكان يعلم أن كل من عرفه يصمه بالشذوذ . ولقد كان حقا على شىء من الشذوذ ، يختلف عن عامة الناس . كان فناناً يكتب كل يوم ما لا يقل عن ألف كلمة . وأتم خمس روايات ، ودبج مئات المقالات ، وكان كلُّ ما ربح من وراء ذلك ستة جنيهات أنفق فيها عشرة أعوام . ولكنه استطاع أخيراً على حساب أمه ، أن « يجعل من نفسه رجلا حرا لا رقيقاً مستعبداً » على حد تعبيره .

(٣)

ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره اعتنق مذهب النباتيين ، واتبعه بدقة صارمة ، لأسباب إنسانية عامة ، وأسباب صحية خاصة . وهو يقول : « إن آكلى اللحم ليسوا وحوشاً فحسب . إنهم مقابر متحركة » . وكان يعتقد أن حفنة من النبات ، وكوبا من الماء ، تحفظ له صحته وتكسبه من القوة عشرة أمثال ما يكسبه « أكل الرمم » . وفى هذا الوقت عينه الذى رسم لنفسه فيه هذا النظام الغذائى ، أخذ يهتم كذلك بإصلاح النظم السياسية . وقد قرأ كتاب « رأس المال » لكارل ماركس — وهو كتاب كان شو يعده وحياً وإلهاماً . يقول : « إن قراءة هذا الكتاب أمدتنى فى الحياة برسالة وغرض » . وطاف أنحاء المدينة خطيباً يبشر « بإنجيل القديس ماركس » ، يخطب العمال ثلاث مرات كل أسبوع على الأقل ، وبقى على ذلك اثنى عشر عاما .

ثم كف عن بث آرائه بين العمال ، وحاول أن يوجه الخطاب إلى الطبقة المتعلمة لعله يستطيع أن يقنعها . فالتحق بالجمعية الفابية (الاشتراكية) ، وقد سميت كذلك باسم القائد الرومانى

فابيس[1] الذى كان شعاره : « لا تقاتل حتى يحين الوقت المناسب ، فإن حان الوقت المناسب قاتل قتال المستميت » .

وكان الفابيون يعتقدون أن الاشتراكية نظام إنشائى تطورى ، وليست ثورة هدامة ، وكانوا يميلون إلى التريث قبل الهجوم .

وكان برنارد شو من المتحمسين للفابية ، يؤمن بسلاح اللسان يقضى به على خصومه . فالخطابة تؤثر فى السامعين ، والكتابة فى القارئين ، وتأتى بأطيب الثمار . فى أول خطاب عام له فى الجمعية الفابية عام ١٨٨٥ هاجم الرأسمالية بأسلوب إنجليزى جديد — وهو التهكم والسخرية اللذان برع فيهما شو خاصة . جاء فى خطابه : « يرغب رئيس الجمعية ألا يقال شىء قد يؤذى طبقة خاصة من الطبقات . ولكنى سوف أشير إلى طبقة حديثة هى — طبقة اللصوص — فإن كان بين الحاضرين لص فإنى أرجوه أن يعتقد أنى لا ألقى بالا لمهنته » . واستمر شو فى خطابه متهكما ساخراً ، وانتقل من هذا التمهيد إلى مقارنة دقيقة بين اللص وصاحب رأس المال . « ولست أنكر ما للص من مهارة فائقة ، وابتكار للمشروعات المستحدثة . ولست أنكر عليه مغامراته ، أو قسوته على نفسه . ولا أستطيع أن أغض الطرف عن مكانته

---

(١) Fabius

فى المجتمع ، فهو يخلق العمل للكثيرين من أمثال المحامين الذين يدافعون عن المجرمين ، ورجال الشرطة ، وحراس السجون وبُناتها ، والجلادين فى بعض الأحايين ، فهم مدينون لمغامراته الكبرى بحياتهم » . و بعد ما يثبت ما للص من قدر فى المجتمع يواصل خطابه مؤكداً لأصحاب رؤوس الأموال أنه يقيم لهم ما يقيم لهؤلاء اللصوص من وزن . « و إن كان بيننا أحد من حملة الأسهم أو أصحاب الأملاك أرجو أن يصدقنى أنى لا أحب أن أوذى شعوره أكثر مما أحب أن أؤلم لصا من اللصوص . إنما أردت أن أبين للسامعين أن حملة الأسهم وأصحاب الأملاك واللصوص جميعاً يسيئون إلى المجتمع إساءة واحدة » .

و فى هذا الخطاب اكتشف برنارد شو رسالته فى الحياة ومورد عيشه فى آن واحد . رسالته أن يقوم فى الناس نبيا مصلحاً يهدى إلى الخير. و إنه ليكسب رزقه ، و يصبح من الأثرياء بإلقائه مواعظه فى أسلوب فكه . وأصبحت حياته من هذا الحين قصة دينية عظمى كإحدى مسرحياته الجدية « أندركليز والأسد » . وظهر للناس واعظاً يرتدى زى المهرج ، فصعق الناس أول الأمر ثم ابتسموا . « وألقى علىّ الناس لومهم ، لأنى لم أكن جادا ، ولكنهم سرعان ما اعترفوا بنبوغى ، وسرعان ما تضخمت ثروتى» .

وأول منبر اعتلاه شو ينادى من فوقه بدعوته مجلة كتب فيها مقالات فى نقد الموسيقى باسم مستعار هو كورنو دى باستو[١] — « آلة تصدر عنها أصوات حزينة تلائم المآتم » . ولما انتهى من نقد كل مافى لندن من موسيقى مقذعة ، وموسيقيين مقذعين ، وجه نقده إلى المسرح . ولبث ثلاث سنوات يعمل كناقد مسرحى تحت رعاية فرانك هارس رئيس تحرير «مجلة السبت» . وكانت أعجوبة من الأعاجيب العقلية الرائعة يشهدها الجمهور الإنجليزى . وذلك أن يرى زعيم الإباحيين فى لنـدن يتـكاتف مع أكبر زاهد فى إنجلترا بأسرها ، فيغرق الجمهور فى الضحك من غرابة ما يقرأ وما يرى . ويشترك الرجلان فى صفة واحدة بارزة هى حبهما الثنـاء على نفسيهما . غير أن هذا التظاهر بالإعجاب بالنفس كان يخفى فى الواقع عند الرجلين قلباً حزيناً ، ونفساً مفـكرة تميل إلى العزلة ، يدركان أن فى الدنيا عملا كثيراً لا بد من أدائه ، ولـكنهما لا يعرفان إلى ذلك سبيلا .

وقد أدى ولع هارس بالمسرح إلى قيامه بمغامرات شـتى ، كان فيها هارس نفسه ، إما بطلا أو ندلا . وأما ولع شو بالمسرح

---

(١) Gorno di Bassetto

فقد دفعه إلى أن يكتب مسرحيات كل أبطالها أو أندالها أحياء خلقهم شو على صورته .

وموقف شو من مسرحياته — كموقفه من الحياة نفسها — موقف الرسول يحاول أن ينقذ العالم بوصايا متناقضات. يسخر من التقاليد المرعية فى عصره ، والتى أصبحت بالية نخرة ، وهو مع ذلك يقبلها جميعا . ليس شو ثائراً أو هداما ، إنه لا يحطم الأصنام ، ولكنه يهزها هزا يفزع له المشاهدون الذين يتوقعون انهيارها فى أية لحظة من اللحظات . فإذا ما أوشكت هذه الأصنام على السقوط أعادها برفق إلى قواعدها .

وهو كالطفل الذى يلعب الأعاجيب ليلفت إليه الأنظار ، وهو يبنى مسرحياته كلها تقريبا على أساس التظاهر بالفكاهة ، وهو فى الواقع جاد لا يهزل . وهو يسير بكل شخوصه — والنساء منهم خاصة — إلى مختلف المواقف التى يتعرضون فيها لمختلف الأخطار ، ثم ينقذهم من هذه المآزق مرة أخرى قبل أن يدركهم الخطر .

على هذه القاعدة يسير فى مسرحياته : يندفع الشخص حتى يقترب من النار ، ثم يبتعد عنها فى الوقت الملائم . وهى قاعدة تتكرر فى المسرحية تلو المسرحية إلى درجة الإملال . وقل من

مسرحياته ما يخلو من هذا الطابع الخاص ببرنارد شو المسرحى .
وهـذه المسرحيات القلائل من خير ما قدم للجمهور . ومنهـا
(سنت جون) . فى هذه المسرحيـة التى اتخذ شو موضوعاً لها
« عذراء أورليانز » ينفـذ القارئ من خلال التجهم البادى إلى
القلب الرقيق . هنا ترى شو يتكلم فى مسوح الراهب لا فى زى
المهرج . إنه هنا كما قال النقاد : « النبى المبشر فى خير مواقفه
بغير دعابته السخيفة » . هنا تلمس لب فلسفة شو — استنكاره
لقسوة الإنسان ، وضجره من غباوته ، وحزنه لآلامه . إن هذا
الحيوان الذى يسمونه الإنسان ، خليط عجيب من التهور
والإشفاق . يتهور عندما يقوى على الإيذاء ، و يشفق عندما يعجز
عن المعونة . والله يرسل لنا الأنبياء ، ولـكنا نفتك بهم فى لحظات
الغضب والثورة . ثم بعدئذ فى ساعات النـدم ، نرفع رفاتهم إلى
درجة التقديس — رفاتهم لا أشخاصهم . أحرقت الـكنيسة
جثمان جان دارك ، و بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً ردت
الـكنيسة نفسها لجان دارك اعتبارها . يقول الملك شارل موجهاً
الخطاب إلى لادفينو فى خاتمـة المسرحية : « لو أعدتها إلى الحياة
ثانية أحرقوها فى خلال سـتة أشهر برغم كل ما تشهد من
تقديسهم لها » .

— ولم كل هذه القسوة ؟

— لأن نظر الإنسان زائغ عن بؤرة النور ، إنك لا ترى كما ينبغى . وهـذه هى المأساة الـكبرى . لا بد لك من الرؤيا . وإلى أن يحين هذا اليوم ، لا بد أن يهلك من ألم العذاب فى كل عصر من العصور مسيح من المسيحيين .

ثم تأتى بعد ذلك الصيحة الختامية ، من روح القديسة جان ، وهى صيحة من أعماق قلب برناردشو ، تقول القديسة : « إلٰهى ، يا من خلقت هذه الدنيا الجميلة ، متى تكون الدنيا مستعدة لاستقبال قديسيك ؟ إلى متى ، يا إلٰهى ، إلى متى ؟ »

(٤)

وكثير من المفـكرين يعجبون ببرناردشو الرسـول ، ويحتقرون فيـه المهرج . وفى طليعة هؤلاء المفـكرين برناردشو نفسه . وذات مساء كانت روايته « الأسلحة والإنسان » تمثل فى أحد المسارح . ولـما أسدل الستار الأخير صاح المتفرجون يريدون مشاهدة المؤلف . ولما بدا لهم قوبل بالتصفيق الحاد المتواصل ، وقوطع هذا التصفيق فجأة بصوت استنكار من أحد الحاضرين ، فرفع شو يده وطلب إلى الجمهور الصمت . ثم التفت

ناحية هذا الصوت ، وقال لصاحبه : « إنى على اتفاق تام معك يا صاحبى . ولكن ماذا نستطيع أنا وأنت أن نفعل تجاه هذا العدد الضخم من أصحاب الرأى المعارض ؟ » .

وشو أمام الجمهور ماجن ساخر . فإذا خلا لنفسه فى حياته الخاصة حيث لا يحتاج إلى التظاهر بغير طبيعته تراه رجلا مهذبا هادئاً متواضعاً ودوداً ، رأسه مفعم بالآراء الإنجليزية ، وقلبه مترع بالحب الإرلندى . ويقترح شو الآراء المختلفة لتحسين حال الفقراء ، ويعمل الساعات الطوال عضواً فى جماعات باذلا جهداً جباراً لتحقيق هذه الآراء . ويقوم بهذا كله فى بساطة وبغير فضول أو ادعاء ، حتى إن الكثيرين من أقرب أصدقائه إليه لا يدركون ما يقوم به . وهدفه الأول أن يرى مبادئ المسيحية مطبقة على الحياة العادية كل يوم . المسيحية عنده هى الاشتراكية الاقتصادية . وهذا الرأى هو سر ما تنطوى عليه فلسفة شو ، وكثيراً ما اتهم بالإلحاد ، بل لقد اتهم نفسه أحياناً بالإلحاد . ولكن الكتاب المقدس — مع ذلك — هو عنده أعظم الكتب . يقول : « إنك لا تقدر هذا الكتاب حق قدره حتى تسأم الروايات والمسرحيات وغيرها من التوافه التى يتغذى بها أطفالنا الكبار (يقصد الرجال) » . أما عن موقفه من يسوع ، فهو

يقول : « إنى لا أرى طريقاً لخلاص العالم مما يحيق به من شقاء غير طريق المسيح » — بشرط أن تخرج تعاليم المسيح من ظلمة الدير إلى نور الحياة العملية . « إن هذا الرجل (يسوع) لم يثبت فشله بعد ، لأنى لم أر بين الناس حتى اليوم عاقلا واحداً يجرب طريقته » .

(٥)

لقد كان شو برغم مجونه وتصنعه — مسيحيا متطهراً . وهو من الزاهدين فى جميع شهواته ، ومنها الشهوة الجنسية . وفى حياته الطويلة لم يخضع غير مرتين أو ثلاث « لألفة الأبدان المحرمة » على حد تعبيره . و باستثناء هذه الصلات غير المشروعة استمتع شو بلونين من ألوان الحب الشريف . أما أحدهما فعشق حار بالرسائل بادله ألن ترى[١] ، وأما الآخر فإخلاص قلبى بارد لزوجته . وفى رسائله لألن ترى « أفتن الممثلات اللائى كرّمن المسرح بظهورهن عليه » كان مفتوناً إلى درجة لا يباريه فيها حتى يتهوفن — كما يقول . وفى سلوكه مع زوجته كان مثال الرقة

---

(١) Ellen Terry .

والإخلاص ، وعاش معها عيشة رضية هنية ، لا يشوب صفوها كدر .

وهو يبث فى رسائله كما يبث فى مسرحياته شيئاً من دعابته . وهى نماذج أدبية كأنه أراد بها أن يظهر للمعجبين به براعته . يلف عواطفه فى نكاته حتى لو كان ذلك على حساب العاطفة . فبراعة النكتة أقيم لديه من حدة العاطفة . وكثيراً ما أخطأته الحكمة فى سبيل إصابة النكتة . وكثيراً ما آذى أصدقاءه المخلصين له حين تغلب عليه سرعة البديهة وبراعة النكتة . تقدمت إليه مرة إحدى الممثلات الفاتنات ، وقالت له : « إنك بحدة ذهنك ، وإنى بجمال جسمى نستطيع أن نأتى بالطفل الذى يبلغ الكمال » . فبادرها شو بقوله : « ولكن ماذا لو ورث الطفل عنى صورة الجسم وعنك قدرة العقل ! »

(٦)

يقول الكاتب الإنجليزى ج . ك . تشسترتن إن المازحين أكثر الناس جدا فى هذه الحياة . أنهم يرتدون زى المهرجين لكى يجذبوا إليهم الأبصار . وهم يخفون مرارة الحقيقة فى حلاوة اللفظ . ولو لا ذلك لأبى الناس — على ما فيهم من عيوب

ونقائص — أن يتناولوا هذا الدواء الذى يقدمونه لهم علاجا لأمراض نفوسهم . ويقول شو : « إن الناس لا يطيقوننى إذا لم يضحكوا منى » .

وهكذا فإن شو بلسان قوى فى فمه ، وحزن عميق فى قلبه ، ينطق بأصدق الحقائق بوجه متجهم . يحب الديمقراطية ويتحمس لها ، ولكنه يؤثر أن ينتقى عيوبها ساخراً منها ، ولا يذكر فضائلها متمدحاً بها . وهو يمقت الظلم بكل ضروبه ، ولكنه لا يتورع عن إرسال النكتة ، هازئاً من أعداء الظلم إذا استطاع بذلك أن يبعث فى سامعيه الضحك . وهو يستنكر الهدم بكل صنوفه ، ولكن لا يتخلى عن النكتة المرحة إن واتته ، وكانت فى مصلحة الهادمين . قال مازحاً : « من الظلم أن نصف نابليون بالقصاب الكبير . فإن أى جندى سديد الرماية فى جيشه قتل من الأعداء أكثر منه » . وفى عام ١٩٢٥ منح جائزة نوبل فى الأدب فرفضها ، وقدم لذلك سبباً معقولا . إذ قال إنه ليس بحاجة إلى المال . « إن هذا المال وقدره ٣٥ ألف ريال هو حزام النجاة نلقيه إلى السباح الذى بلغ الساحل آمناً » . وبعد ما أبدى هذه الملحوظة الحكيمة لم يستطع أن يقاوم الرغبة فى إفسادها بدعابة ، فأردفها بقوله : «إننى أستطيع أن أعفو عن ألفرد نوبل لاختراعه

الديناميت . ولـكن لا يخترع جائزة نو بل إلا شيطان فى صورة إنسان . »

وفى السنوات الأخيرة تعرض برنارد شو لموضوعين تحدث فيهما بوضوح وصدق ، وهما الثورة الروسية والحرب العالمية .

فى عام ١٩٣١ زار روسيا الثائرة تصحبه ليدى آستر . وقرر أن الـكاشا (الثريد الروسى) هو خير ثريد فى العالم ، واكتشف على وجوه العمال والفلاحين الروس بهجة وتحرراً من الخوف وإحساساً بالأمن لم يرها فى أى بلد يخضع « للمدنية الرأسمالية » .

وأعجب شو بستالين ولـكنه لم يعطف على تروتسكى ، وعارض ثورته التى نادى فيها بضرورة انتشار الاشتراكية فى جميع البلدان فى أقرب فرصة . ولـكنه — برغم ذلك — نظر إلى التجربة الروسية نظرة الإعجاب الشديد والأمل العظيم . وهو يعتقد أن روسـيا ليست بحاجة إلى إرغام العـالم على الأخذ بالاشتراكية ، فإن العالم بعد ما يشهد نجاح الاشتراكية فى روسيا سوف يأخذ بها من تلقاء نفسه .

ولم يعجب شو بالنظام السياسى فى روسيا فحسب بل أعجب كذلك بنظامها الحربى . ولما هاجمتها ألمانيا فى شهر يونية من عام ١٩٤١ كاد يكون الرجل الأوحد الذى تنبأ بانتصار الروس . ولما

تحققت نبؤته قال : « إن انتصارهم يفوق ما كنا نتصور ، وهو فوق ما كنا نتمنى . فإن ألمانيا لم تجد فى العراك فرصة الكلب الدنىء . »

أما عن موقفه إزاء الحرب جملة فإنه لم يعتقد فى إمكان نشوبها قبل اشتعالها فعلا . وكان يقول : ليس هناك من يبلغ به الجنون أن يشرع فى حرب يزج فيها العالم بأسره . « إن أى رجل سياسى لا يخشى بأسا من إطلاق المدافع يجب أن يرسل إلى مستشفى الأمراض العقلية » . ولما أثبت هتلر أنه ذلك السياسى المجنون تخلى برناردشو عن دعوته إلى السلام التى نادى بها نيفا وثمانين عاما وقال بملء فيه : « ليست هناك اليوم أغراض حربية ، وليست هناك أغراض سلمية . إنما هناك غرض واحد هو إحراز النصر فى القتال . »



ونستن تشرشل

ونستن تشرتشل

— ١٨٧٤

(١)

فى عام ١٩٠٠ وفد ونستن تشرتشل على نيويورك لأول مرة يلقى فيها بعض محاضراته . وقد قدمه إلى الجمهور مارك توين الكاتب الأمريكى الفكه بأسلوبه المعهود قائلا :

« سيداتى ، سادتى . أقدم إليكم رجلا من أم أمريكية وأب إنجليزى — فهو الرجل الكامل ! » .

وما تفكه به مارك توين كان نبوءة صادقة . ففى عالمنا هذا الذى نفتقد فيه الإنسان الكامل ، يرتفع ونستن تشرتشل حتى يبلغ المثل الأعلى للكمال الإنسانى كما نعرفه .

ولدته أمه فى الثلاثين من شهر نوفمبر من عام ١٨٧٤ قبل أن يتم تسعة أشهر فى بطنها فأطلق عليه أهلوه منذ ولادته اسم « الشاب المتعجل » . ولما ناهز السبعين من عمره إبان الحوادث المثيرة فى عام ١٩٤٤ كان يبدو بين رجال السياسة جميعاً كأنه

أحدث الرجال شباباً وأشدهم عجلة . تلمس ذلك فى عبارته «أمامنا عمل ينبغى لنا أداؤه . فهلموا إليه بغير توان » .

كان فى طفولته يمقت دروس الرياضة لجفائها ويحب الألفاظ لسحرها . ويكره ما يكلفه به مربياته ومعلموه . لا يطيع لهم أمراً ، ويبغض أن يسمع منهم « افعل هذا ، ولا تفعل ذاك » . فقد كانت له منذ حداثته شخصيته المستقلة . وحاول أن يفر من سلطانهم عليه إلى إحضان أمه ، ولكنها كانت من السيدات المولعات بالصيد ، تقضى أكثر أوقاتها خارج بيتها ولا تقدم له ما يستحق من عناية ورعاية ، وفيها يقول تشرتشل « كانت أمى كنجم الليل يلمع أمام ناظرى ، أحبها حبا جما — ولكن على بعد» .

ولما بلغ السابعة من عمره ألحق بمدرسة سنت جيمز . فسلمه ناظر المدرسة كتاباً فى قواعد اللاتينية وقال له « احفظ تصريف هذه الكلمة Mensa » .

فنظر « ونى » بشىء من الحيرة إلى تصاريف الفعل حتى بلغ الصيغة التى تستعمل لنداء الجماد — المائدة مثلاً — ثم قال « ما معنى هذا ؟ »

فأجابه معلمه « هذه هى الصيغة التى تستعملها عند ما تنادى المائدة » .

— ولكنى يا سيدى لا أنادى المائدة قط .

فأجابه الناظر بالمقرعة ، لأن الأطفال فى مدرسته يجب أن يخضعوا للنظام منذ أول التحاقهم . ولكن « ونى » لم يؤمن بفكرة هذا الناظر عن النظام ، فجذب قبعة الرجل وداسها بقدميه . فعوقب عقوبة بدنية أخرى ، وثار غضبه مرة أخرى . فقررت إدارة المدرسة أن هذا الوغد الصغير ستشق عليهم تربيته . ولعل صفة العناد هذه التى لازمته طوال حياته هى التى حببت فيه عارفيه . ولكن أساتذته فى سنت جيمز لم يجدوا فى هذا الصبى الغضوب ما يدعوهم إلى العطف عليه ، فقرروا ضرورة إبعاده من المدرسة . فنقله أبوه إلى مدرسة تديرها سيدتان عجوزان فى بريتن . وقد وصفه حد معلميه بقوله « إنه تلميذ صغير أحمر الرأس ، وهو أكثر تلاميذ فصله حركة وأشدهم مكراً . بل إنى لأحسبه أشد أطفال العالم مكراً وخبثاً » .

وما برح ضعيفاً فى اللاتينية والرياضة . ولكنه برز فى الفرنسية ، فليس فى هذه اللغة ما فى اللاتينية من سخف مثل خطاب « المائدة » . وأظهر قدرة فائقة فى استعمال الألفاظ الإنجليزية . وذاكرة قوية فى الشعر ، تنطبع فيها القصائد وكأنها تلتصق بذهنه التصاقا . يقرأ المقطوعة الشعرية مرة واحدة

أو مرتين فتثبت فى ذهنه ثبوتا لا تمحى بعده أبداً .

وما زال شديد المقت لدروسه الأخرى . وكان يفرح كلما أصابته نوبة من الالتهاب الرئوى ، إذ كان يجد فيها مهرباً من الدرس . واشتدت به العلة ولكنه تغلب عليها وكأن الفتى كما قال طبيبه مصون بتعويذة أو حجاب .

وظلت حياته حتى اليوم وكأنها مصونة بالرقى والتعاويذ . النار لا تحرقه ، والرصاص لا ينفذ فيه « لأن الآلهة اختارته ليؤدى لها عملاً » .

ولما أبلّ من مرضه ، تقدم إلى مدرسة هارو ، وكان يأمل أن يؤدى امتحاناً فى الفرنسية والشعر وكتابة المقالة — وهى موضوعات كان تفوقه فيها باديا . ولكنهم سألوه فى اللاتينية والرياضة . فلم يظفر بأكثر من درجة النجاح .

وبقى فى هارو لا يظفر فيها بأكثر من درجات النجاح . حقا أن ناظر المدرسة كان يعجب بقدرته الأدبية ويعتقد أن ونستن الصغير ربما ينجح نجاحا باهراً فى حياته العملية . ولكنا إذا رجعنا إلى مجموع درجاته فى فرق الدراسة ألفينا اسمه دائما فى ذيل التلاميذ .

وكان أبوه على علم وافر ، رجلا اسمه يلمع فى الحياة العامة ،

فخاب رجاؤه فى ولده ، وكان لا ينى عن سؤاله : ماذا عزمت يا بنىّ أن تفعل بنفسك ؟

فكان جوابه « سوف أكون جنديا فى صفوف الجيش ما دام هنالك قتال ، و بعدئذ سأدلى بدلوى فى السياسية » .

— ولكن أمامك قبل هذا أن تتخرج فى أكسفورد .

— بل أنى أحب أن التحق بكلية ساندهرست الحربية ، إن كنت لا تمانع .

ولكن أباه الشيخ (لورد راندولف تشرتشل) كان يمانع أشد الممانعة . كان رجلا مسالما بطبعه فلم يرد لولده أن يلتحق بمدرسة حربية . غير أن ونستن أصر وألح فاضطر أبوه فى نهاية الأمر إلى أن ينزل على إرادته .

وتقدم ونستن لامتحان القبول فى ساندهرست ورسب فيه . وتقدم مرة أخرى ، وكان نصيبه الفشل مرة أخرى . وحاول للمرة الثالثة فنجح بالصدفة العمياء . كان يعلم أن المتقدمين إلى هذا الامتحان يطلب إليهم أن يرسموا من الذاكرة خريطة لجزء من أجزاء الإمبراطورية البريطانية . ولكن الإمبراطورية البريطانية مترامية الأطراف . فوقف من نفسه يوما موقف المقامر . أتى بقطع من الورق وكتب على كل قطعة منها اسم مستعمرة

أو بلد تابع لبريطانيا ، وألقى بالوريقات فى قبعته ، وسحب منها واحدة وهو مغمض العينين ، فكانت نيوزيلاندة ، فتوفر على درسها . وما كان أشد عجبه وحسن حظه عند ما أصغى إلى الممتحن وهو يطلب إلى المتقدمين أن يرسموا خريطة لنيوزيلاندة .

(٢)

ولأول مرة فى حياته يجد تشرتشل نفسه فى البيئة التى تلائم طبيعته . ويحاول أن يلتحق بقسم الفرسان فيصيب نجاحا . لأن المهارة على ظهور الخيل لا تتطلب حل المعادلات الجبرية . وتشرتشل يحب ظهور الخيل ، ويحب أن يستمع إلى صفير الرياح وهو يركض فى حلبة المران . كتب مرة يقول « إن ساعة تقضيها على ظهر جواد ، ساعة لم تضيعها سدى من حياتك » . ويقول كذلك : « إن الشبان كثيراً ما يفسدهم امتلاك الخيل ، أو الرهان فى سباق الخيل ، ولكنهم لن يفسدوا قط بركوب الخيل . اللهم إلا أن دقت الخيل أعناقهم ، وهى ميتة شريفة إذا أصابت الراكب وهو يعدو على ظهر الجواد » .

يقول مثل شرقى قديم « إن ظهر الجواد المستقر يقيم رأس راكبه المضطرب » . وقد صدق هذا المثل على تشرتشل ، فإنه

برغم تخلفه فى العلوم أتم دراسته فى ساندهرست وكان ترتيبه الثامن من بين مائة وخمسين شابا .

وكان هذا نصراً عظيما لونستن فعيّن ضابطاً فى فريق الهوسار الرابع — وهو فريق الملكة حينذاك . ثم كانت بعدئذ مأساة وفاة والده ، فقد قضى الرجل نحبه فريسة لضعفه الجثمانى وللنقد اللاذع الذى وجهه إليه خصومه السياسيون وهو وزير للمالية . ووقف ونستن إلى جوار سرير أبيه وقال : سوف ترون أن ونستن الذى اتهمته الأسرة بالغباء سينتقم من هذه الشرذمة من الكلاب والخائنين » . وارتسم من ذلك الحين واجبه أمام ناظريه . فإن حياته لا بد أن تكون حملة متصلة فى وجه أعداء إنجلترا فى الخارج وأعداء أبيه فى الداخل .

وبدأت حملته تحت قيادة الكولونيل برابازون رئيس الكتيبة التى كان ينتمى إليها . وقل أن تجد قائدا كبيرا وضابطاً صغيراً على اتفاق فى المشارب والميول كما كان هذان الرجلان . كلاهما يلثغ بالراء ، وكلاهما لا يأبه بالسلطة بمقدار ما يأبه بحكم العقل السليم ، وكلاهما يخفى وراء خشونة الجندية عشقاً قويا للأدب . إذا ما انتهيا من أداء واجبهما آناء النهار جلسا معاً أطراف الليل يرويان الشعر الإنجليزى ساعات متواصلات .

وبتأثير بربازون من ناحية وبدافع باطنى قوى من ناحية أخرى أخذ تشرتشل الشاب يبحث له عن مخرج آخر لروحه القلق ، فكتب عدداً من الأقاصيص ورواية طويلة عنوانها «ساڤرولا» أو قصة ثورة فى لورانيا . وهى ليست من روائع الأدب ، ولكنها على أية حال محاولة جريئة للتعبير عما يجول بخاطره . وبطل القصة — ساڤرولا — صورة دقيقة لونستن تشرشل نفسه — شاب يتحرق شوقا لكى يصبح زعيم ثورة مخلصاً ذكيا . « لأن كل زعماء الثورات السالفين فى التاريخ كانوا إما حمقى أو بغير شرف » .

ثم اشتغل مراسلا حربيا لجريدة « الديلى جرافك » ، فأرسلته إدارة الصحيفة فى رحلة إلى كوبا كى يكتب تقريرا عن الانقلاب السياسى الذى حدث فى تلك المستعمرة . وهناك اطلع تشرشل على صنوف من المكائد والدسائس التى يدبرها من يسمون أنفسهم زعماء التحرير ، وفى إحدى مقالاته يقول « إن أنصار النظام القديم أساتذة فى فن إخفاء الحقائق . أما زعماء الحركة الجديدة فخبراء فى افتراء الأكاذيب » . وفى مقال آخر يقول : « إنى أعطف على الثورة ، ولكنى لا أعطف على الثائرين » .

وعند هذا يكتفى ونستن بما دبج من مقالات وما ألف من

قصص ، وقد يعود إلى الأدب مرة أخرى . ولـكن إله الحرب يناديه الآن ، فالهند تهدد بالعصيان والثورة ، وقد صدرت الأوامر للـكتيبة التى ينتمى إليها للرحيل إلى بومباى ليقاتل ضد القبيلة التى تدعى بالماموند وهى معروفة بصلابتها وقسوتها . و بينما الحرب تدور رحاها يقفز تشرتشل من صهوة جواده و يترجل ، ثم يتسلق تلًا و يرافقه فريق من المشاة ، لأن تشرتشل يحب أن يكون فى المعمعان دائما . و يبلغون قمة التل حيث تجابهم غابة كثيفة ، و يمطرهم العدو بوابل من الرصاص من خلف كل صخرة ومن بين فروع الأشجار . حتى استحالت عليهم مقاومة النيران ، فتقهقر الفريق إلا « ونى » تشرتشل . ذلك أن زميلا له قد أصيب بجرح وفقأ أحد الهنود عينه اليمنى بخنجر ، ولم يستطع « ونى » أن يخلفه وراءه لرحمة العدو . و يحاول تشرتشل أن يحمله على ظهره إلى سفح الجبل ، فإذا به يجد نفسه محصورا فى نطاق من الأعداء ، فيلقى عن ظهره رفيقه الجريح ، و يخرج مسدسه ، و يخونه المسدس ، فيهرع إلى بندقية مهجورة يجدها بجانبه . ولشدما كان سروره ودهشته عند ما أطلقها فانطلقت . أطلقها مرة بعد أخرى ، روع بها الأعداء واحداً بعد الآخر حتى فروا جميعا . و يعود تشرتشل إلى رفيقه يحمله حتى يبلغ به المعسكر آمناً مطمئنا . وكما يقول أحد

المعجبين به « إن أحداً غير ونى لم يكن يستطيع أن يخرج من هذا المأزق بجلده . لأن حياة ونى مصونة بالرقى والتعاويذ — وإلا فكيف يكون ذلك ! » .

وهذه الحياة المسحورة هى التى كان يسير بها تشرتشل فى جميع حملاته الأخرى — فى الهند والسودان ، وفى جنوب أفريقيا ، وكلما وقف فى صفوف المحاربين — وكان دائماً فى طليعة الصفوف — كجندى مقاتل أو مراسل حربى . وكان عادة يؤدى عمل الجندى كما يؤدى عمل الصحفى ، فيجد مجالا لقلمه وسيفه فى آن . وكان لا يطمئن إلا إن توسط المعركة ، ويخرج منها ظافراً منصورا . وقد أسره البوير مرة ، فاستغل هذا الأسر فى الاطلاع على ما لم تتح له الفرص قراءته . فقرأ جِبُنْ ولكى وكارليل وستيوارت مل وجمهورية أفلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو ، واستشهاد الإنسان لونوود ريد . وتزود بحياة العظماء من الرجال ، وبالجليل الخطير من الآراء . ثم اكتفى بهذا القدر الآن لأن واجب العمل الجسيم يناديه . وقد ضايقه الحبس ، فدبر لنفسه خطة الفرار ، واختبأ فى منجم فحم واندس بين زكائب الفحم ، وانتقل معها فى عربة نقل حتى استطاع فى نهاية الأمر أن يبلغ صفوف رفقائه المحاربين .

وكان تشرتشل صلباً عنيدا حتى فيما يمارس من رياضة بدنية . اشترك مرة مع فريق كتيبته فى لعب البولو ضد فريق آخر ، وكسرت كتفه أثناء اللعب فأبى أن يخرج من الميدان حتى نهاية الشوط ، وخرج ظافراً على الخصوم .

(٣)

كان تشرتشل حتى هذه المرحلة من حياته ينزل إلى ساحة القتال جنديا مجاهداً كلما كان هناك قتال أما الآن — وقد وقف القتال إلى حين — فقد رمى بسهمه فى السياسة . فرشح نفسه عام ١٨٩٩ لعضوية مجلس النواب ضد زعيم من زعماء العمال . وقد فشل فى الانتخاب لكنه اكتسب شهرة واسعة أثناء حملته الانتخابية . كتب عنه فى الديلى ميل أحد المعجبين به فى ذلك الحين ، قال : « إن هذا الرجل — وهو أصغر شاب سياسى فى أوربا بأسرها — لديه من الصفات ما سوف يجعله زعيما شعبيا خطيرا ، أو صحافيا كبيرا ، أو مؤسسا عظيما لإحدى شركات النشر والإعلان الكبرى . ومن ذا الذى يستطيع أن يتنبأ لنا بما سوف يكون ؟ » .

لعل آخر من يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال هو ونستن

تشرتشل نفسه . فما برح يبحث عن العمل الخطير الذى خلق له . تقدم إلى الانتخابات مرة أخرى — وفاز بالنيابة هذه المرة . وتلقاه الناس بالتهليل والبشر والهتاف أنّى توجه . ذلك أن فوزه فى الانتخاب حادث يسترعى الأنظار فى بلد محافظ كانجلترا — فارس مغوار ، وراكب خيل متعجرف يتربع على أحد مقاعد مجلس النواب ! إن هذا لشىء عجيب ! وقد فاز فارس آخر زميل له عبر المحيط فاختير نائبا لرئيس الولايات المتحدة ، فما أشبه ما كان يجرى شرقى المحيط الأطلانطى بما كان يجرى غربيه .

غير أن السياسة لعبة باهظة التكاليف . وكلما ارتفع الفرد فى نفوذه وسلطانه وجب عليه أن يفتح كيس نقوده وينفق المال بغير حساب . وكيس تشرتشل ضامر لسوء حظه غير منتفخ . وقد قرر أن ينفخه برحلة يجوب بها أنحاء بريطانيا وكندا والولايات المتحدة محاضرا مأجورا . وكان كلما تكلم أشعل النار حماسة فى صدور سامعيه بما يروى لهم من قصص عن المعارك التى خاض غمارها ، والأسر الذى تكبد مشقته ، ثم فراره الذى نجا به بعد ما تقطعت أنفاسه من الإعياء . وبعد ما أتم محاضراته وجولاته عاد بجيوب مليئة بالمال الذى يكفل له الارتفاع إلى قمة المتحدثين فى مجلس العموم .

وعاد إلى المجلس ليلقى فيه أولى خطبه السياسية . واستمع

إليه النواب والجمهور فشهدوا رجلا ذا قلب كبير ، رجلا يختلف عن ونستن تشرتشل الذى عرفوه من قبل . وهو فى انجلترا شبيه بلنكلن فى أمريكا ، يوجه أعذب اللفظ إلى أعدائه فى ذلك الحين ، وهم البوير . يقول : « لو كنت من البوير أقاتل فى الميدان — ولو كنت من البوير لكان لا بد لى أن أقاتل فى الميدان ... » . ما أشد ما فى هذه الكلمات من تسامح ! وقد هز المحافظون فى البرلمان رؤوسهم إنكاراً لهذه الكلمات ، وقالوا : « إن هذا النائب الجديد سوف يتمخض عن رجل عنيد يشق معه التفاهم ... وسوف يعوق تقدمه بنفسه » .

غير أن تشرتشل لم يكن ذلك الرجل . فقد كان يعلم حق العلم أية وجهة يولّى وجهه . كان يتطلع إلى الأمام و إلى أعلى . وذلك لكى يوجّه بلده إلى الأمام و إلى أعلى . همه الأول والأخير أن تبقى الإمبراطورية — موحدة سليمة ، قوية .

لم يفتر تشرتشل عن المناداة بضرورة تقوية الأسطول . لأن قلب الإمبراطورية البريطانية جزيرة تحوطها المياه من كل جانب ، وهى فى تدفق الدماء فى شرايينها الحيوية تتوقف على المسالك المائية والطرق البحرية . « إن رياسة الأسطول هى وحدها

التى تقوى على تأمين الإمبراطورية البريطانيـة ، وتكفل لهـا الحياة » .

وما أعجب هذه الألفاظ تصدر عن جندى يقاتل بين صفوف الفرسان أو المشاة . ما أعجب أن ينادى بضرورة تفوق الأسطول البحرى على الجيش البرى . ولـكن أيا كان العمل الذى يؤديه الفرد ، فإن ذلك لا يهم كثيراً ما دام الفرد يقبـل على عمله فى شغف و يؤديه بإخلاص .

ولا يهم الفرد كذلك فى كثير أو قليـل إلى أى حزب ينتمى ، ما دام يضع خدمة بلاده نصب عينيه دائما . إن تشرتشل لم يهتم يوماً من الأيام بالأحزاب اهتمامه بالمبادئ . « الأحرار ، والمحافظون ، والعمال ... » إن هذه الألفاظ لتشحذ الهمم إلى العمل فى ميدان السياسة . إنما المهمة الـكبرى أمام أية حكومة من أى حزب هى « أن تزيد اهتمامها بالعامل فى قاع المنجم ، وتقلل اهتمامها بتذبذب سوق الأوراق المالية فى لندن . . . . نريد حكومة — ونريد سياسة — ترى أن أحياء الفقراء فى المدن الإنجليزية لا ينبغى أن تنال من اهتمام الرجل السياسى أقل مما تنال الغابة فى بلاد الصومال » . وكم لقى تشرتشل من بسمات السخرية من رجال السياسة على هذه الآراء ، وحسبوه مارقاً على

التقاليد الإنجليزية العتيقة ، موجهاً بصره وجهة خاطئة . والواقع أن تشرتشل إنما كان يوجّه بصره دائما صوب النور والضياء .

(٤)

وفى عام ١٩٠٥ فى عهد وزارة الأحرار عيِّن تشرتشل وكيلا لوزارة المستعمرات . وقد كان فى عمله هذا واسع الأفق ، يفهمه —على حد تعبيره — الناس من جميع الألوان والمذاهب ، ويقصد إلى خيرهم أجمعين . وقد كان البوير خاصة أول العارفين لجميله وفضله . حاول أن يحل مشكلتهم ، فأشار على البرلمان مرة بعد أخرى بضرورة « تحقيق الرغبات البريطانية بشرط موافقة البوير » . ولما طلبت حكومة الأحرار — وهى الحكومة التى كان عضوا فى إدارتها وفى حزبها — التصويت لمنح الدستور لبلاد الترنسفال وقف يناشد المحافظين أن يجعلوا التصويت إجماعيا « لأن الأحرار — وهم أكثرية — لا يستطيعون إلا أن يجعلوا الدستور هبة من حزب واحد . فإن ضممتم أصواتكم إلينا استطعنا أن نجعله هبة الإنجليز أجمعين » .

ثم تحول من حزب الأحرار إلى الحزب الراديكالى . لأنه أراد — كما يقول — أن يقدم للفقراء شيئا من المعونة . غير أنه

لم يقبل الاشتراكية ، لأن الاشتراكية تهدف صراحة إلى القضاء على روح المنافسة بين الناس « ونظام المجتمع القائم مسوق بدافع أساس واحد — التفوق عن طريق التنافس . وقد يكون هذا النظام ناقصاً ، ولكنه كل ما لدينا مما يحول بين الحضارة والهمجية » .

وقد شن حربا صليبية ينافح بها الظلم ويدعو للعدالة فى حدود العمل الفردى مؤثراً حرية الفرد على اشتراكية الجماعة . وفى خلال نضاله الحار فى سبيل العدالة كان يحس « كأنه يحمل العالم بأسره فوق منكبيه » .

وتقدمت به السنون وهو يحمل عبء الإنسانية فوق ظهره حتى بلغ الرابعة والثلاثين من عمره فى سبتمبر من عام ١٩٠٨ حينما « تزوج وعاش من هذا التاريخ سعيداً » على حد قوله واعترافه .

تزوج من امرأة تحبه وتفهمه فاشتد به الطموح والأمل إلى حد الغلو والتهور . حتى قال عنه لورد هولدين « إنه يندفع إلى العمل أولا ثم يفكر بعد ذلك » ثم يردف هولدين هذه العبارة بقوله « مهما تحدثنا عن شجاعته فإنا لن نكون مبالغين » .

وكانت البحرية البريطانية فى ذلك الحين فى حاجة إلى رجل شجاع من هذا الطراز يطهر الأسطول مما به من عيوب ونقائص . وما إن تولى تشرتشل إدارة البحرية حتى بدا لكل ذى عينين

أنه يتصف بالحكمة كما يتصف بالشجاعة . كان دائم الإحساس بقرب دنو الخطر ، وحاول أن يقنع الحكومة بهذا الإحساس . كان يعتقد أن ألمانيا تتأهب لإشعال نار الحرب فى وجه انجلترا ، وكان لا يفتأ يوجه إلى نفسه هذا السؤال « ماذا عساه يحدث إن نشب القتال بيننا و بين ألمانيا اليوم ؟ »

لا بد للأسطول البريطانى أن يستعد لأى حادث . فنهض تشرتشل منذ عام ١٩١٣ بكل قطع الأسطول من مدرعات إلى طرادات إلى طائرات بحرية إلى غير ذلك . وكأنه مد إلى الأسطول يداً سحرية فزادت سفنه زيادة ملموسة . وقد أثار إصراره على تقوية الأسطول غضب الراديكاليين عليه ، لأن أكثرهم كانوا من دعاة السلم ويؤمنون بتخفيض أسلحة الحرب لا بتعزيزها ، وتشرتشل وحده هو الذى شاهد سحب الحرب تتجمع فوق الأفق .

ثم هبت العاصفة حينما كان ونستن تشرتشل القائد الأول للأسطول ، وهو ما يزال دون الأربعين من عمره . وعلى عاتقه وحده كان يقع نجاح الأسطول البريطانى أو فشله . بل ونجاح الجيش أو فشله كذلك . لأن الأسطول هو الذى يحمل الرجال والسلاح إلى ميدان القتال فى القارة الأوربية . كان إذا التقى بأحد رجال الأسطول ابتسم له وتفاءل ، و إذا خلا إلى نفسه

ساورته الشكوك والريب . وبرغم كل ما بذل من جهد قبيل الحرب العظمى الأولى — وكثيراً ما كان العمل فى الأسطول يستمر طوال الليل والنهار بغير انقطاع — فقد تغلب عليه دعاة السلم ، وفوجئت انجلترا فى عام ١٩١٤ ، وهى على غير استعداد — ونقصد فى جيشها لا فى أسطولها .

وعلى أثر خيبة الأسطول البريطانى فى الدردنيل اضطر ونستن تشرتشل إلى الاستقالة من رياسة البحرية .

(٥)

ولكنه لم يخلد إلى الراحة والسكون ، فانتقل بنشاطه من الأسطول إلى الجيش . وبرّز بين أقرانه بالهمة التى لا تعرف الفتور .

ولما هدأ وطيس الحرب وخمدت نارها أنفق تشرتشل وقته فى تعلم فن جديد ، هو فن التصوير . وكان فى رسومه يميل إلى الألوان البراقة اللامعة وإلى الخطوط القوية الجريئة ، كأنه يعبر بها عن بريق شخصيته وبسالته .

وكان مقره فى ميدان القتال على مقربة من جبهة المعركة ، فكانت حياته معرضة للخطر ، وأشفق عليه رؤساؤه الذين كانوا يعجبون بكل ما لديه من ميزات وصفات ، ويخشون أن يفقدوا بفقده ذهناً قوياً جباراً . سأله مرة قائده « هل تدرك أنك فى

مكان خطر » فأجابه تشرتشل « نعم يا سيدى ، ولـكن أليست هذه حر باً خطرة غير آمنة ؟ »

وفى عام ١٩١٨ وضعت الحرب أوزارها ، وكأنها وضعت بذلك حداً لسيرة تشرتشل . فقد عيّن بعد ما ألقت الجيوش السلاح وز يراً للذخيرة ، وهى وظيفة لم يعد لها معنى بعد ما تصالحت الدول على السلام . وقد كان تشرتشل خصما لأ كثر رجال السياسة البارز ين . تمقته جميع الأحزاب لا لشىء إلا لأنه يضحى بالمصلحة العاجلة فى سبيل العدالة الشاملة . ولم يظفر بثقة المحافظين أو الأحرار أو العمال . و إنما كانت له فلسفته الخاصة ، ومحورها الاهتمام الشديد بمصالح الإمبراطور ية البريطانية بأسرها . وهى سياسة لا تتفق وسياسة أى حزب من الأحزاب ، لأن سياسة الأحزاب تدور حول مصلحة طبقة خاصة من الإنجليز . ولذا فلم تـكن أمام تشرتشل فى ذلك الحين مهمة سياسية كبرى يقوم بأدائها .

و إنما كان يقوم بعمل تافه ، ومع ذلك فقد أقبل عليه كعادته بهمة وعزم وابتهاج .

ثم أحس بعلة فى أحد جنبيه ، واستؤصلت له الزائدة الدودية . وحان موعد الانتخابات للبرلمان وهو ما يزال بالمستشفى

فى دور النقاهة . فقامت زوجته له بالحملة الانتخابية . وقبل موعد التصويت بيومين استطاع أن يغادر سرير المرض ويخطب الناخبين من دائرته فى دندى ، فقوبل بوجوه عابسة ، وأيدٍ تلوّح له بالسقوط ، وبألفاظ التهديد والوعيد . ولما حان موعد الاقتراع خرج بهزيمة منكرة وفشل فشلاً ذريعا .

(٦)

وقضى بعد ذلك عشرين عاماً خبا فيها اسمه إلى حد كبير ، أنفقها فى الكتابة والمحاضرة والتصوير . يحلم فى كل لحظة باليوم الذى يعود فيه إلى بؤرة السياسة . وقد سخر ناقدوه من أحلامه هذه من السخرية . تهكم منه الكاتب الإنجليزى ه . ج . ولز فقال : « إن المستر تشرتشل يعتقد فى سذاجة شديدة أنه ينتمى إلى طائفة من البشر ذات موهبة عقلية نادرة وامتياز لا يبارى ... ويسيطر على خياله الحلم بالمغامرات الكبرى وبالسيرة العظمى بين الناس ... وهو يتوق قبل كل شىء إلى عالم مسرحى ، الناس فيه جميعاً أشرار ، وليس بينهم سوى بطل واحد » .

ولا شك فى أن هذه الصورة الساخرة لا تمثل تشرتشل أصدق تمثيل . وإننا لا ننكر أن الرجل لديه ما عند سائر الناس من حب للنفس . ولكننا لا نستطيع كذلك أن ننكر أن رفاهية

انجلترا كانت همه الدائم . لم يفكر إلا فى انجلترا حينما أنذر العالم فى عام ١٩٣٢ بظهور هتلر فى ألمانيا . وكان وحده الرجل الذى أدرك أن فى نشوب حركة النازية تهديداً لأوربا بأسرها . وكأنه نبى يتنبأ بكل ما سوف يحدث . وفكر فى الخطر المحدق بانجلترا ، وتحدث عن الخطر فى وسائل الحرب الحديثة — وبخاصة خطر الهجوم الجوى ، الذى وصفه « بالاختراع الجهنمى الملعون الذى يصب نقمته علينا من الجو . هذا الاختراع الذى تطور معه مركزنا الحربى . فلم نعد تلك الأمة التى كانت عند ما كانت انجلترا جزيرة ... » ولم يفتر منذ عام ١٩٣٣ عن النداء بضرورة تعزيز قوى انجلترا الجوية بحيث لا تقل عن أية قوة فى العالم تفكر فى الهجوم على بلاد الإنجليز .

ولكن الإنجليز لم يعيروه آذاناً مصغية ، واسترسلوا فى سباتهم ، ووصمه أحدهم بأنه كآكل النار يهرف بما لا يعرف . ودأب هتلر على الاستعداد لتلك المغامرة الكبرى التى قامت بها عصابته التى لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلا — وما برحت انجلترا فى سباتها العميق . وأغرقت فى سباتها فى عهد بولدوين ، وفى عهد تشيمبرلن . وهتلر يجمع آلاته ويتحفز للوثوب . ومسولينى يقدم على مغامرته الكبرى فى أثيوبيا ، ويختطف

بلاد الحبشة من أهلها اختطافا . وهتلر وموسولينى معاً يقدمان المعونة لفرانكو ويحرضانه على قلب حكومة أسبانيا الديمقراطية الشرعية . واستغرقت انجلترا فى نومها العميق حينما كان هتلر يستولى على أمة بعد أمة ويذبح أهلها ، ولا يكفّ عن استجماع القوى وشحذ السلاح ليطعن به الإنجليز فى النهاية . وينظر تشرتشل شزراً إلى الحكومة الإنجليزية « التى صممت على ألا تصمم أمرا ، ولم تعزم إلا على وهن العزيمة ، وباتت مزعزعة مائعة خائرة القوى . »

ثم كان اجتماع ميونخ الذى طار إليه تشيمبرلن بصورة مخزية ليلثم مواطئ أقدام هتلر ، أو لينفض التراب عن حذائه — كما قال عنه أحد الكتاب فى ذلك الحين . وما عتمت انجلترا تغط فى نومها . ويقول تشيمبرلن بعد لقائه مع هتلر « ليس ثمة ما يدعونا إلى الذعر ، فإن هتلر رجل مهذب (جنتلمان) وقد وعدنا بالسلام . »

ولكن تشرتشل كان أبعد من ذلك نظرا ، وقد رد على تشيمبرلن بقوله « لقد لحق بنا عار الهزيمة دون أن ننزل إلى ساحة القتال . »

وكان بعد ذلك السيل العرم ، والهجوم الجوى على انجلترا .

وهددت ألمانيا بهزيمة المدنية الغربية . فهرعت البلاد — بعد لأى — إلى تشرتشل تلتمس عنده النجاة ، وهو «الشاب المتعجل» ولـكن القوم الآن بحاجة إلى العجلة إن كانوا يحبون لأنفسهم إنقاذ المدينة .

وأشرف تشرتشل على سير الحرب . يزن كل أمر بميزان سليم ، ولا يخشى فى الحق شيئا . ومن عباراته الشهيرة : « ليس عندى ما أبذله غير الدماء والعرق والدموع والعمل الشاق » ثم أعلن فى وثوق شديد أن البلاد سوف تحرز النصر فى النهاية بفضل ما تبذله من دماء وعرق ودمع وعمل .

فبث بهذه الـكلمات الحارة روح الحماسة فى قلوب الشعب . و بين عشية وضحاها جعل من أبناء أمته بقوة لسانه وفصاحته أبطالا لا يخافون النزال . وانعقد العزم فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها على شىء واحد وذلك هو : صنع السلاح ، وحمل السلاح ، وكسب الحرب بقوة السلاح ، أو كما يقول تشرتشل « النصر بأى ثمن ، والنصر برغم كل فزع . النصر مهما يكن سبيله طويلا وشاقا . »

وكان السبيل بالفعل طويلا وشاقا . ولـكن النصر كان محققا ما دام تشرتشل يتصدر الطريق ويتزعم البلاد .

ومرت بانجلترا ليال مظلمة وأيام سوداء . وأطفئت أنوارها

فى المساء ، ولم يستمع سكان لندن إلا إلى أزيز الطائرات الألمانية .
واشتعلت النيران فى عاصمة البلاد — بل فى عاصمة العالم بأسره .
وأصبح غزو انجلترا وشيكا . غير أن تشرتشل احتفظ بشجاعته
ورباطة جأشه . استمع إليه يقول « سوف ندفع عن جزيرتنا
كل اعتداء مهما كان الثمن غاليا ، وسوف نقاتل عند السواحل ،
وفى حظائر الطائرات ، وفى ميادين القتال ، وفى الطرقات وفوق
التلال . ولن نسلم للأعداء أو نستكين . »

ذلك هو العزم الصادق ، وذلك هو الإقدام ، وتلك هى
البسالة التى عرف بها تشرتشل منذ عهد الصبا . وقد وجد فيه
هتلر الرجل الذى لا يهزم ، والرجل الذى يسبقه فى التفكير فيفسد
عليه كل ما يرسم لنفسه من خطط . وكان هتلر يسيطر على ساحل
القارة الأوربية من شماله إلى جنوبه . ويخضع له جيش لا يعرف
الهزيمة وأسطول جوى لا يحد ، ينفخ فيهما من روحه فينشران
الخراب والدمار حيثما حلا . وتأهب للوثوب على انجلترا ، ولم يقف
فى سبيله سوى رجل واحد ، تسلح بسلاح أمضى من كل سلاح
عرفه هتلر — وما ذلك إلا روح يأبى أن يعترف بالهزيمة .
واستجمع كل ما تملك البلاد من قوى وواجه العدو بصلابة
لا يتطرق إليها اللين .

ويتردد هتلر فى غزو انجلترا وتفشل خططه الحربيـة .
واستطاع تشرتشل بقلبه الجسور أن ينقذ البشرية من روح العدوان ، ولم ينس أبداً عبارته التى كثيراً ما رددها فى شبابه « سوف أنزل إلى الميدان محارباً ما دام هناك قتال » .

ولما وضعت الحرب أوزارها ، وخرجت منها انجلترا ظافرة منتصرة ، أقيل من رئاسة الوزارة مرفوع الرأس موفور الكرامة .
وأحس الإنجليز أن العهد الجديد بحاجة إلى زعامة جديدة . ولذا فقد استبدلوا فى انتخابات سنة ١٩٤٥ بالمقاتل المكدود الرجل المسالم الذى لم يستنفد نشاطه بعد . وتطلع الناخبون الإنجليز إلى عهد اجتماعى جديد يقودهم إليه كلمنت أتلى ، وألقوا نظرة تقدير على المقاتل الذى احتفظ لهم بحق التصويت ضده وإسقاطه من حكم البلاد .

أولدس ليونارد هكسلى

١٨٩٤ —

(١)

ولد (أولدس ليونارد هكسلى) فى انجلترا عام ١٨٩٤ ، ولا يزال حتى اليوم على قيد الحياة لا ينى عن الكتابة والتأليف ولا يفتر . وقد بدأ حياته الأدبية شاعراً محتذياً فى هذا حذو أكبر الكتاب المعاصرين . ونشر شعره أول مرة فى مجلة (هويلز) ، ثم جمعه فى ديوان عنوانه (العجلة المحترقة) نشره عام ١٩١٦ . وفى هذه السنة عينها اشترك مع غيره من الأدباء فى جمع ديوان (شعر اكسفورد) . وقد بقى شاعراً طوال حياته ، مخالفاً بذلك الكثيرين من أدباء عصره ، الذين انحرفوا عن الشعر إلى النثر . وهو الآن شاعر ثائر على العالم الذى يقوم على الأسس العلمية ، كما أنه ثائر على ازدياد نفوذ العلم فى الحياة . وفى قصة « العالم الطريف » التى نقلتها إلى العربية ، ونشرتها دار الكاتب المصرى يتخيل أن الإنسان سوف يتناسل فى المستقبل لا عن طريق الحب والتقاء الرجل بالمرأة ، ولكن عن طريق

العلم ، وتكوين الأطفال بطريقة علمية داخل القوارير . وهكذا يصور لنا هكسلى العلم فى صورة تشمئز منها النفوس وتقشعر الأبدان . ولعل هذا التطرف فى الخيال هو الذى جذب إلى هكسلى الكثير من القراء .

وهو حفيد توماس هنرى هكسلى العالم الشهير الذى تلقى عليه العلم ه . ج ولز ، وبين الحفيد وجده شبه كبير فى الصورة والقسمات . وينحدر هكسلى من ناحية أمه من أسرة توماس أرنولد ناظر مدرسة رجبى الشهير . ومن بين أقربائه من كان أستاذاً ، ومن كان عالما أو شاعراً أو روائيا . فلو تصورنا هذه المجموعة من الرجال الممتازين حول فراش مولده عام ١٨٩٤ أدركنا ما فى دمائه من مواهب . وقد استطاع بقلمه وذكائه أن يرتفع إلى سماء الشهرة .

وهو رجل طويل القامة ، نحيل القوام ، حتى إن أطفال هامستد كانوا يتجمعون حوله فى شبابه الباكر ويهزأون به . غير أن طول قامته يخيل للناظر إليه أنه يعيش فى عالم غير عالمنا وأنه شامخ بعظمته . وما أبعد هذا عن الصواب ، فإن هكسلى يتحدث إلى كل من يلقاه فى سهولة وتواضع . وهو رجل شديد المرح ، لايتصف بالتزمت . وهو يستعمل فى أحاديثه كثيراً من

غريب اللفظ لا لأنه يتكلف فى الحديث ، ولكن لأن الرجل غريب فى تفكيره ، وهو بحاجة إلى هذه الألفاظ يعبر بها عما يختلج فى نفسه . وهو مولع بلقاء الشواذ من الناس ، ومشاهدة الشاذ من المناظر ، لأن به ميلا نحو الشذوذ .

وقد قاسى كثيراً وهو فى طفولته من ضعف بصره ، الذى كاد أن يفقده ويعيش ضريراً أعمى البصر . وقضى أياما كثيرة وحده فى غرفة مظلمة لا يستطيع القراءة ولا تقع عيناه على شىء ، فانقلب إلى دخيلة نفسه يفكر فيها ويتأمل . وكان لهذه الفترة أثرها الكبير فى كل ما كتب فيما بعد . وزال الخطر واسترد الكاتب بصره ، ولكنه لا يزال ضعيف النظر . وتعلم فى اكسفورد وفيها نشر بعض قصائده كما قدمت . وبعد ما أتم دراسته فى الجامعة اشتغل بالصحافة ونشر عدة مقالات جمعها فى كتابه « على الهامش » ، ثم جمع بعضها من قصصه فى كتاب سماه « السجن »

(٢)

وهو فاتحة عهد جديد فى حياته الأدبية . وبعد « السجن » مارس كتابة الرواية الطويلة مستوحياً فيها الكاتب « توماس بيكوك » المعروف بسعة الاطلاع وبروح التهكم . وقد أخذ هكسلى عنه منهجه فى الرواية ، فلم يكن فى يوم من الأيام روائيا

بالمعنى الصحيح . إنما هو رجل واسع الاطلاع متهكم من الناس . وله قدرة عظيمة على القصة القصيرة . ولـكنه حينما يحاول القصة الطويلة يتخذ من خياله الروائى وسيلة لبث آرائه .

وهو كاتب متنوع المواهب متنوع الموضوعات . يقول عنه أخوه (جوليان) إنه الرجل الوحيد الذى يحمل معه دائرة المعارف البريطانية حينما يقوم برحلة طويلة أو يطوف حول العالم . ولـكنه — برغم اطلاعه الواسع — لا يقتصر عند حد النظر ، بل يتعداه إلى العمل . يستمتع بالفـكر كما يستمتع بالحس ، فهو كثير الإدمان فى القراءة ، ولـكنه رجل اجتماعى حى . وقل من الناس من يجمع مثله بين هاتين الصفتين .

وفى مجموعة قصصه التى جمعها تحت عنـوان (السجن) وفى روايته (الـكروم الأصفر) تتبين قدرته العظيمة على السخرية من المتكبرين والأدعياء . وروايانه مليئة بالصـور الإنسانية التى تتميز بالتهكم المرح . وقد خص بسخريته أبناء الطبقة الراقية فأثار على نفسه سخطهم . ولـكنه لم يعبأ بهم ولم يكف عن الضحك منهم . وفى روايته (الـكروم الأصفر) يعلن تلك المشكلة الـكبرى التى حاول أن يحلها فى كل ما كتب . فقد جاءت فى هذه الرواية العبارة الآتية : « يدخل الرجل هذه الدنيا ومعه آراء مجهزة عن كل شىء ، وله فلسفة يحاول أن يخضع لها

الحياة . فى حين أنه كان من الواجب أن يحيا المرء أولا ثم يحاول بعد ذلك أن يلائم بين فلسفته و بين الحياة كما عرفها . إن الحياة والحقائق والأشياء معقدة تعقيداً شديداً ، مع أن الآراء — مهما تعسرت — تخدعنا ببساطتها . كل شىء غامض مضطرب فى عالم الحياة . وكل شىء واضح فى عالم الآراء . فهل من العجيب بعد هذا أن يكون الرجل منا بائسا فى حياته تعسا ؟ »

و يتبين لنا من هذا أن هكسلى لا يحب أن يتشبث بالمبادئ والأصول وقواعد العلم ، وإنما يقيم وزناً كبيراً للمعارف العملية وتجارب الحياة . كان هكسلى من رجال الفكر ، وهو يفخر بذلك ، ولكنه — برغم هذا — كان قادراً ، بل ومتحمساً ، على أن يستفيد من الخبرة والتجربة .

وصل إلى لندن بعد ما أتم دراسته الجامعية ورأسه مفعم بالنظريات . ثم أحس بشىء من القلق ، ولم يطمئن إلى نظرياته كل الاطمئنان ، وأدرك بأنها لا تعالج مشاكل الحياة الكبرى . فتمم الرأى بالخبرة ، والعلم بالتجربة . أدرك أن حجرة المعلم لها جمال البساطة ، ولكن بالأرض والسماء كنوزاً غنية من المعارف لا تخضع لأى نظام فلسفى ، ولا يحلم بها رجال الفكر . أدرك هكسلى بعد قدومه إلى لندن أن آراءه لا تقنعه كل الإقناع ،

واشتغل بالصحافة ، ورأى عن كثب سلوك الرجال والنساء ، وكيف تسير الأمور ، فتعلم ألوف الأشياء التى لم يتطرق إليها منهج الجامعة . فجمع هكسلى بين الثقافة النظرية والخبرة العملية .

وهكسلى من أبناء الطبقة المتوسطة . لا هو بالغنى الذى يتوفر له الفراغ ، ولا بالمعدم الذى يشغل وقته كله بكسب القوت . وقد تأثر بهذا الوضع الاجتماعى فى أدبه فسخر من أبناء الطبقة الرفيعة . كما عبر عن تقززه واشمئزازه من الفقر المدقع ، وإن كان يعطف على الفقراء . وانتهى هكسلى إلى شىء من اليأس لا يرى نفعاً فى أى شىء .

(٣)

ثم مل النقد والسخرية وانصرف إلى التفكير فى مستقبل العلم والعلماء فكتب من بين ما كتب رواية العالم الطريف التى أشرت إليها ، وفيها يعبر عن خوفه من سيطرة العلم على حياة الناس . يصور فى هذا الكتاب مدينة العلماء الفاضلة بكل ما فيها من مساوئ . وهو يرى أن العالم الجديد — عالم العقاقير والآلات — تنتفى منه العاطفة والشعر والجمال . فى هذا العالم الجديد كل شىء آلى ، وكل شىء مرسوم أو محفوظ فى قارورة ، والصفة الإنسانية تكاد تنعدم . ولعل هكسلى من بين الكتاب الأحياء جميعاً

الكاتب الوحيد الذى يستطيع أن يصور نتائج العلم بجرأة ووضوح . وهو فى هذا الكتاب عالم وشاعر ، يرسم لنا صورة مدهشة يتقزز منها القارئ كما تقزز منها الكاتب .

فى الكتاب يتخيل هكسلى أن العلم سوف يصل بنا إلى حد الاستغناء عن الزواج وتكوين الأجنة فى القوارير بطريقة علمية بدلا من تكوينها فى الأرحام ، والأطفال — بحكم تركيبهم الكيميائى — طبقات خمس : ا ، ب ، حـ ، ء ، هـ . وكل طبقة تعد إعداداً خاصاً يلائم تكوينها الجثمانى واستعدادها العقلى ، وعليها أن تؤدى فى الحياة عملا معيناً لا تغيره ولا تحيد عنه . وبين أبناء الطبقة الواحدة تشابه كبير فى الخلْق والخُلُق حتى إن الفرد تكاد تنعدم شخصيته انعداماً باتاً . العالم الجديد ينكر الفردية والاختلاف الشخصى والتقلقل من حال إلى حال ، وشعاره الذى يطالعك به الكاتب فى الفصل الأول من الكتاب هو « الجماعة والتشابه والاستقرار » ، والعالم الجديد تهمه السعادة أكثر مما تهمه المعرفة ، وهى سعادة آلية محضة لا توجهها الميول الشخصية ، وإنما تفرض على النفوس فرضاً .

إذا أردت شيئاً فى العالم الجديد فإنك لا تفكر فيه ولا تسعى إليه . وإنما يكفيك أن تضغط على زر أو تدير مقبضاً — كما يقول

هكسلى — ليكون لك ما تريد . ولا شك أن هذه الحياة — رغم يسرها الشديد — تدعو إلى الملل ، كما تؤدى إلى إهمال الفنون الرفيعة والشعور الدينى والروح العلمية الصحيحة التى تهتم باكتشاف أسرار الطبيعة أكثر مما تهتم بإسعاد الإنسان وراحته .

كل هذه الآراء بينها هكسلى فى قصة « العالم الطريف » ، وهى ليست قصة بالمعنى المألوف ، فهى تنعدم فيها العقدة أو تكاد ، ولا تأبه بتحليل الشخصيات . وإنما هى قصة أساسها علمى ، تهتم بشرح الآراء وتحليل الأفكار وبنقد الحضارة الإنسانية من أساسها ، وكثيراً ما يرسل الكاتب فيها نفسه على سجيتها ، ولا يتقيد بترتيب معين أو منطق خاص . يدون الأفكار وفقاً لتواردها فى ذهنه ، فيجمع بين المتناقضات ، ويؤلف بين القريب والبعيد ، والعلوى والسفلى فى أسطر قلائل . ويؤدى به هذا أحياناً إلى شىء من الغموض .

ونقدى لهذا الكتاب — بل ونقدى لأكثر ما كتبه هكسلى — أنه سلبى ، أى أن الكاتب يسخر ويتقزز دون أن يقدم لنا جديداً . فهو يهدم ولا يبنى . إذا ذهب إلى السينما شاهد قصصاً يقشعر لها بدنه ، والجمهور المحتشد فى دار السينما فى عينيه قذر بليد فى جسمه وعقله ، آراؤهم سخيفة ، وهم مخدوعون فى أنفسهم

أكبر خداع . وإن قرأ الكتب ألفاها سخيفة ومليئة بالآراء الوضيعة . وإن رحل إلى بلد جديد ألفى سكانه أغبياء بلهاء لا يختلفون عن أولئك الذين خلفهم وراءه فى أرض الوطن . وإن بحث فى السياسة وجدها فاسدة ، وفى الأخلاق ألفاها دنسة ، وفى الروحية لم يجدها سوى مجرد « انتقال أفكار » ، وفى مملكة الحيوان رآها تأكل وتتناسل وتتكاثر بغير فهم وإدراك . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالمدينة الفاضلة العلمية ، فهى ليست إلا خيال فئة من العلماء تمتلئ رؤوسهم بالتفكير المادى وتخلو قلوبهم من شعلة الروح .

ولا يذكر لنا هكسلى فى أكثر ما كتب ما مثله الأعلى الذى يرمى إليه . وهو يفعل ذلك إلى درجة ما فى كتابه هذا « العالم الطريف » ؛ فهو هنا ينادى بالعودة إلى البساطة القديمة ، وإلى الأمومة الصحيحة ، إلى الأطفال ترعاهم أمهاتهم ، وإلى الريف الذى لم يلوث بالعلم والمادة . ولم يتعرض هكسلى لبحث المثل العليا وإصلاح عيوب المجتمع بصورة جدية إلا فى كتابه « الوسائل والغايات » الذى سبق لى أن نقلته إلى اللغة العربية ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر . فى هذا الكتاب عرض ونقد وإصلاح لوسائل الحكم والإدارة الحديثة ، وللحروب وفكرة

المساواة والتعليم والدين والمعتقدات والأخلاق وغير ذلك من الموضوعات التى تهم جمهور القراء المثقفين .

ويتعجب هكسلى لكمية الجهل فى العالم ، ولضعف النظرة التركيبية عند المفكرين والباحثين . وهو يريد أن يعرف كل شىء ، ويعتقد أنه لا يستطيع أن يصل إلى قرار فى شأن من شئون الحياة إلا إن أدرك كل شىء ، ولذا تراه لا ينى عن الدرس والتحصيل . ويميل هكسلى إلى إخضاع المظاهر المختلفة إلى قاعدة واحدة شاملة ، وقد يستطيع فى مقتبل العمر أن يقود العالم إلى الخير والسعادة .

مهاتما غاندى

١٨٦٨ — ١٩٤٨

(١)

« رجل ضئيل الجسم نحيل ، له عينان سوداوان ، بارزتان متسعتان ، ووجه متغضن ، ورأس صغير يستره بغطاء صغير أبيض ، ويأتزر كذلك برداء خشن أبيض ، ويسير عارى القدمين ، ويعيش على الأرز والفاكهة ، ولا يحتسى شراباً غير الماء . يفترش الأديم ، ولا يغفو إلا قليلا من الليل . لا يمل العمل ولا يكل . ليس لبدنه عليه حق . أبرز صفاته صبر لا ينفد وحب لا نهاية له ، وبقى حتى شيخوخته محتفظاً بكثير من سذاجة الطفولة . رقيق الحاشية رفيق حتى مع الخصوم . طاهر القلب مخلص الضمير . متواضع لا يدّعى ، حتى إنك لتحسبه فى بعض الأحيان جباناً متردداً ، ومع ذلك فإن كل من يتصل به لا يسعه إلا أن يشعر بروحه تغمره . لا ينزل عن رأى يراه ، ولا يحاول أن يخفى خطأ يدركه ، ولا يخشى أن يقر بخطئه . لا يعرف مايسميه الساسة بالدبلوماسية . يتحاشى التأثير على سامعيه بفصاحة القول و بلاغة



مہاتما گاندھی

اللسان ، وأشد ما يكون مقتاً للمظاهرات الشعبية تحشد لتكريمه . لا يطمئن إلى الجمهور الذى يقدسه . ولا يثق فى الأكثريات ، ويتهيب حكم الرعاع ، ويخشى عواطف الجماهير التى يفلت منها الزمام ، ولا يطمئن قلبه إلا مع الأقلية ، وهو أسعد ما يكون نفساً حينما يفكر وحيداً فى عزلته . حينئذ يستطيع أن يصغى إلى صوت خافت ضعيف ينبعث من بين جنبيه » .

بهذه العبارة نعت رومان رولان الكاتب الفرنسى ذلك الرجل الذى بعث فى الملايين من أهل الهند روح الثورة ، وزعزع الإمبراطورية البريطانية من أساسها ، وحاول أن يفل من حدة السياسة بعاطفة الدين . ذلك هو غاندى .

ولد فى ولاية صغيرة شبه مستقلة فى الشمال الغربى من الهند فى مدينة پورباندر (أو المدينة البيضاء) على ساحل بحر عمان فى الثانى من شهر أكتوبر عام ١٨٦٨ . وهو ينتمى إلى قوم عرفوا بالجد والحماسة ، لم يفتر يوما بينهم الخلاف . وهم قوم عمليون ، يمارسون التجارة ، وقد عقدوا صلات تجارية عديدة على طول الطريق ما بين عدن وزنجبار . وكان أبوه وجده زعيمين شعبيين ، لقيا كثيراً من الاضطهاد بسبب روحهما المستقلة . وقد أرغم كلاهما على الفرار لينجوا بحياتهما . وينتسب غاندى إلى أسرة متيسرة

من الناحية المادية ، كما ينتمى إلى طبقة مثقفة من المجتمع و إن لم تكن من الطبقات الممتازة . وكان أبواه من أتباع مذهب جين الهندوكى الذى يحرم إلحاق الأذى بأية صورة من صور الحياة ، وهو المبدأ الذى يسمونه (أحمسا) وهو لب العقيدة التى أخذ غاندى على عاتقه أن ينشرها بين الناس جميعاً ، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير . وهذا المذهب — مذهب جين — الذى اعتنقه غاندى يقول بأن سبيل البلوغ إلى الله هو محبة القلب لا ذكاء العقل . ولم يأبه أبو المهاتما بجمع الثروة أو بالقيم المادية ، وتصدق بأكثر ما كان يملك ولم يكد يورث أسرته من بعده شيئاً يذكر . وكانت أمه قوية الإيمان ، كثيرة الصوم ، تتصدق على الفقراء ، وتواسى المرضى . وكان أفراد أسرته جميعاً يقرأون كتابهم الدينى المقدس (راما نايانا) . وكان أول من تلقى عليه غاندى العلم رجلا براهمياً علمه أن يحفظ بعض نصوص الكتاب المقدس عن ظهر قلب . ولما شب غاندى أسف كثيراً لأنه لم يتقن السانسكريتية ، وكان من أسباب نقمته على التربية الإنجليزية فى الهند أنها تُفقد أبناء الهند كنوز لغتهم ، فتوفر على دراسة الكتب الدينية الهندوكية ، غير أنه لم يقرأ الڤيدا والأوپانيشاد فى أصولها ، بل قرأهما منقولين إلى لغات أخرى .

ومرت بغاندى وهو لا يزال فى حداثته أزمة دينية شديدة . ذعر للصورة الوثنية التى كانت تظهر بها الهندوكية أحياناً ، فأنكرها ، أو تصور أنه ينكرها . ولكى يثبت لنفسه أنه لا يعبأ بتعاليم دينه أكل اللحم وشجع رفاقه على ذلك ، وهو من أشد المحرمات على الهندوكى . ولكنه ما عتم أن عض بنان الندم على ما فرط ، وشعر بشعور القاتل ففارقه النوم وهدوء البال .

وعُقد له فى سن الثامنة وتزوج فى الثانية عشرة من عمره . ولما بلغ التاسعة عشرة بُعث إلى انجلترا ليتم دراسته بجامعة لندن وفى مدرسة الحقوق . وقبل أن يغادر لندن طلبت إليه أمه أن يقسم لها ألا يقرب المحرمات الثلاثة التى ينهى عنها مذهب جين — الخمر واللحم والنساء .

(٢)

ووصل لندن فى شهر سبتمبر من عام ١٨٨٨ . وقضى الأشهر الأولى فى شىء من الاضطراب وعدم الاستقرار ، مأخوذاً بالحياة الإنجليزية . وفى خلال هذه الفترة كما يقول « أضاع وقته وماله محاولا أن يتشبه بالإنجليز » . ولكنه لم يلبث على ذلك طويلا ، وسرعان ما توفر على العمل المتواصل ، ورسم لنفسه حياة قاسية

التزم حدودها فى دقة بالغة . وأهداه بعض رفاقه نسخة من الإنجيل ولـكنه لم يقدر حينذاك على تفهم معانيه . وفى أثناء إقامته فى لندن أدرك لأول مرة ما فى كتاب باجفاد جيتا من آيات الجمال . ملك عليه هذا الـكتاب لبه ، وفى ضوئه ارتد إلى الدين ، وأدرك ألا سبيل إلى خلاص نفسه إلا فى العقيدة الهندوكية .

وفى عام ١٨٩١ عاد إلى الهند محزون النفس لوفاة أمه . واشتغل بالمحاماة أمام محكمة بومباى العليا . غير أنه لم يبق فى هذا العمل إلا بضع سنوات لأنه كان يعتقد أنه لا يتفق وقواعد الأخلاق . وكان كلما تولى الدفاع عن قضية اشترط على موكله أن يسمح له بالتخلى عن الدفاع إذا تبين له أنه ليس على حق .

وفى هذه المرحلة من حياة هذا الزعيم الهندى الـكبير التقى بأفراد عديدين أثاروا فى نفسه التفكير فى رسالته فى الحياة ، وكان أقوى الناس تأثيراً فيه رجلان . أما أحدهما فملك بومباى غير المتوج داداباى ، وأما الآخر فالأستاذ جوخيل . وجوخيل هذا من زعماء السياسة فى الهند ومن الهنود الأوائل الذين أصلحوا نظام التعليم . وأما دادا باى فهو فى رأى غاندى المؤسس الحقيقى للحركة الهندية الوطنية . وكلا الرجلين يجمعان بين الحكمة البالغة والعلم الغزير

و بساطة الخلق ورقة الحاشية . ودادابای هو أول من حاول أن يفل من حماسة الشباب عند غاندى فأعطاه أول درس حقيقى فى (الأحمسا) حين علمه أن يقف موقفاً سلبياً من الحياة العامة ، وذلك بألا يقابل الشر بالشر ، ولـكن بالعطف والمحبة .

وهذه الـكلمة الساحرة « أحمسا » هى رسالة الهند العظمى لهذا العالم الذى نعيش فيه .

(٣)

وتقع فى حياة غاندى فترتان هامتان . أولاهما من عام ١٨٩٣ إلى عام ١٩١٤ وميدانها جنوب أفريقيا ، وثانيتهما من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٢ وميدانها الهند .

دامت حملة غاندى بجنوب أفريقيا أكثر من عشرين عاماً دون أن يتنبه إليه قادة الرأى فى أوروبا . فدلوا بذلك على قصر النظر وضيق الفكر لأن حياة غاندى ملحمة تاريخية عظمى لا تضارعها أية حياة أخرى فى عصرنا الحاضر لا لغزارتها وما تضمنت من تضحيات فحسب ، ولـكن كذلك لما توج به جهاده من نصر عظيم .

فى عام ١٨٩٠ — ٩١ هاجر إلى جنوب أفريقية زهاء ١٥٠

ألف رجل هندى ، واتخذ أكثرهم ناتال موطناً له . ولم ينظر السكان البيض إلى هؤلاء المهاجرين نظرة الرضاء . وشجعتهم الحكومة القائمة على هذا الشعور بسلسلة من القوانين سنتها لتمنع هجرة الأسيويين إلى أفريقيا ولترغم المقيمين منهم على الرحيل . وباتت حياة الهنود فى أفريقيا عبئاً ثقيلا عليهم لما كانوا يلاقون من صنوف الاضطهاد . وفرضت عليهم الضرائب الباهظة ، وتعقبهم رجال الشرطة ، وحنق عليهم الناس من كل الطبقات ، ينهبون متاجرهم ويسلبون ما يملكون ، ويقدمونهم إلى المحاكم لسبب ولغير سبب ، مستترين فى ذلك كله وراء ما يسمونه مدنية الجنس الأبيض .

وفى عام ١٨٩٣ أُستدعى غاندى إلى بريتوريا للدفاع فى قضية هامة . ولأول مرة فى تاريخه يرى نفسه محط الازدراء من الجنس الأبيض . وكان حتى آنئذ يلقى منهم كل ترحيب فى انجلترا وفى أوروبا وينظر إليهم كما ينظر إلى أصدقائه من بنى وطنه — وهو رجل من أسرة كريمة تؤذيه الإهانة أشد الإيذاء . وفى ناتال — وبخاصة فى الترنسفال الهولندى — نبذته الفنادق والمطاعم والقطارات . ولولا أنه كان مرتبطاً بعقد يقضى عليه أن يبقى بجنوب أفريقيا عاماً كاملا لعاد لتوه إلى الهند . وفى غضون

هذا العام تعلم ضبط النفس ، ولـكنه كان شديد الحنين إلى العودة إلى الوطن . ولما أوشك العام أن ينقضى نمى إليه أن حكومة جنوب أفريقيا تفكر فى إصدار قانون يحرّم على الهنود كثيراً من الحريات . وكان الهنود فى أفريقيا عاجزين ، ليس بوسعهم أن يدفعوا عن أنفسهم ، وكانوا على كثير من الفوضى والانحلال الخلقى ، ولم يكن لهم زعيم يهديهم أو قائد يرشدهم . فأحس غاندى بأن من واجبه أن يتولى عنهم الدفاع ، وأدرك أن من الخطأ أن يعود إلى بلده ، وشعر بأن ما يحيق بالهنود من ظلم يحيق به ، فوهب نفسه لقضيتهم وقرر أن يبقى بأفريقيا .

ومن ذلك الحين بدأت معركة حامية الوطيس بين الروح من ناحية وسلطة الحكومة والقوة الغاشمة من ناحية أخرى . وكان غاندى محامياً فى ذلك الوقت ، فكان عليه أول الأمر أن يثبت أن قانون اضطهاد الأسيويين غير شرعى . وقد نجح فيما رمى إليه برغم كل ما لاقى من شديد المعارضة . جمع كلمة الهنود فى ناتال ، وأسس هناك جماعة تتولى أمر تعليم الهنود . ثم أنشأ صحيفة « الرأى الهندى » تصدر بالإنجليزية و بثلاث من اللغات الهندية . ولـكى يتفرغ لخدمة أبناء جنسه فى جنوب أفريقيا تنازل عن عمله كمحام فى جوهانز برج وكان يدر عليه ستة آلاف

جنيه فى العـام ، وآثر الفقر على الغنى . وتخلص من كل عقد ارتبط به كى يحيا حياة الهنود المضطهدين ، ويشاطرهم ما يقاسون من محن . وحاول أن يرفع من شأنهم فعلمهم عدم المقاومة والاكتفاء بالقليل الذى تدره عليهم الزراعة .

وأسس مستعمرة زراعية على طريقة تولستوى ، وهـذه المستعمرة الصامتــة ، لبثت سنوات عدة تقاوم بأس الحـكومة . وانسحب المستعمرون من المدن فشلوا الحيـاة الصناعية فى البلاد تدريجاً . وكأنهم أضربوا عن الاشتراك فى الحياة العامة بانضوائهم تحت حظيرة الدين . وهو نوع من الإضراب تعجز أمامه القوة مهما استخدمت من وسائل العنف . كما عجز جبروت روما الاستعمارية عن مقاومة عقيدة المسيحيين الأوائل . ولـكن هؤلاء المسيحيين الأوائل أنفسهم ما كانوا ليؤمنوا بالحب والتسامح إلى حد تقديم المعونة لمضطهديهم كلما ألم بهم خطر ، وهو ما فعله غاندى . إذ كلما كانت الحـكومة فى جنوب أفريقيا تعانى مشكلة من المشاكل كان غاندى يكف عن سياسة عدم التعاون من جانب الهنود فى الخدمات العامة ، ويقدم كل ما يستطيع من معونة . بل إنه ألّف فى حرب البوير عام ١٨٩٩ فرقة للصليب الأحمر نالت الإعجاب لما أبدت من شجاعة نادرة . ولما أنشب

الطاعون أظفاره فى جوهانز برج عام ١٩٠٤ افتتح غاندى مستشفى لعلاج المرضى .

غير أن هذه الخدمات وأشباهها لم تنزع الكراهية من قلوب البيض نحو الهنود . وكثيراً ما كان يودع غاندى السجن ويلاقى العذاب صنوفا على أيدى السكان البيض . وكلما اشتد إيذاء غاندى زاد تمسكا بمبادئه . وكان رده على ما لاقى فى جنوب أفريقيا من اضطهاد كتابه الصغير المعروف « الحكم الذاتى فى الهند » الذى نشره عام ١٩٠٨ ، وهو دستور وطنيته العارمة .

واستمر هذا النضال عشرين عاما ، وبلغ أشده ما بين عامى ١٩٠٧ و ١٩١٤ ، وذلك على أثر القانون الجديد الذى سنته حكومة جنوب أفريقيا ضد الآسيويين عام ١٩٠٦ . وقد حفز هذا القانون غاندى لأن ينظم سياسة المقاومة السلبية على نطاق أوسع .

وفى سبتمبر من عام ١٩٠٦ تظاهر الهنود فى جوهانز برج فى جمع حاشد ، وأقسموا ليتبعن سياسة المقاومة السلبية التى يرسمها لهم زعيمهم ، وانضم الصينيون إلى الهندوس . وتبعهم الآسيويون جميعاً من كل الأجناس والديانات والطبقات ، الفقراء منهم والأغنياء . وألقت الحكومة القبض على الألوف حتى ضاقت

بهم السجون فزجوا بهم فى المناجم . وكأن السجن كان جنة لهؤلاء القوم المضطهدين ، حتى إن الجنرال سمطس الذى كان بيده الأمر حينذاك نعتهم « بالمعارضين ذوى الضمائر الحية » . وأودع غاندى السجن ثلاث مرات ، واتسعت الحركة ، وفى عام ١٩١٣ امتدت من الترنسفال إلى ناتال . واهتزت الهند ذاتها حتى إن نائب الملك هناك لورد هاردنج اضطر أن يحتج على سياسة الحكومة فى جنوب أفريقيا .

وهكذا كان الظفر حليف المهاتما (الروح العظيم) ذلك الرجل الذى ينفث السحر ولا يلين لقوة فوق الأرض . وأذعنت القوة لرقة الشعور . ورضخ الجنرال سمطس ألد أعداء الهنود لنفوذ غاندى وأجاب له كثيراً من مطالبه .

وعاد غاندى إلى وطنه بعد جهاد عشرين عاماً فى جنوب أفريقيا ، ضحى فيها براحته وبكل ما يملك ، وسن فيها سياسة المقاومة السلبية . عاد متوجاً بأكاليل الظفر والنجاح . عاد بعد ما ارتفع إلى أوج الزعامة وعنت له الرقاب وطوى صفحة من الجهاد ليفتح صفحة جديدة فى بلاده .

(٤)

بدأت الحركة الوطنية الهندية التى ترمى إلى استقلال الهند عن بريطانيا استقلالا ذاتيا من أوائل هـذا القرن . وكانت لأعضاء المؤتمر الهندى آراء مختلفة فى سبيل تحقيق هذا الاستقلال . بعضهم يعتقد فى التعاون مع إنجلترا ، و بعضهم ينادى بضرورة طرد الإنجليز من الهند . و بعضهم يؤمن بنظام الدومنيون و يحب أن يكون مركز الهند من الإمبراطورية البريطانية مماثلا لمركز كندا . فى حين يرى بعضهم الآخر أن تطمح الهند إلى استقلال تام كاستقلال اليابان . وهنا أدلى لهم غاندى برأى ، واقترح لهم حلا لما أشكل عليهم . وهو حل دينى أكثر منه سياسى ، ولـكنه أشد حسما من أى حل آخر . و إنك لواجد أسس هذا الرأى فى كتابه «حكم الهند الذاتى» ، الذىأشرت إليه من قبل . ولما كان هذا الحل يقوم على الظروف المحلية بجنوب أفريقيا فقد أدرك غاندى ضرورة تعديله حتى يلائم ظروف الهند الخاصة . وأدرك كذلك أن مقامه بجنوب أفريقيا إن يكن قد باعد بينه و بين ما يجرى فى الهند ، فقد أثبت له أن (أحمسا) أو «عدم العنف» سلاح ماض لا يقاوم . ولذا فقد عقد العزم على دراسة

ظروف الهند كى يعالجها بسلاح (أحمسا) الباتر .

ولم يكن غاندى فى ذلك الحين معاديا للإنجليز . بل على العكس من ذلك نراه يذهب إلى لندن عام ١٩١٤ ، عند ما نشبت الحرب الكبرى لكى ينظم جماعة هندية لإنقاذ الجرحى . وفى خطاب له حرره عام ١٩٢١ يقر بعضويته فى الإمبراطورية البريطانية . وظل حتى عام ١٩١٩ يعتقد فى سياسة التعاون مع الحكومة ، ولكنه لم يستطع بعدئذ أن يثبت على هذه العقيدة .

ولم يكن غاندى الرجل الوحيد الذى تحولت مشاعره نحو الإمبراطورية البريطانية من التعاون إلى التنافر . فلقد كان الهنود جميعاً يطمعون أن يظفروا من إنجلترا بالاستقلال الذاتى جزاء ما قدموا من معونة فى الحرب العظمى ، وقد وعدتهم إنجلترا بذلك ولكنها لم تبر بوعدها بعد ما وضعت الحرب أوزارها ، بل لقد شددت على الهند النكير ، وسلبتها بعض ما كانت تتمتع به من حرية . فهبت الهند عن بكرة أبيها تنكر هذه السياسة الغاشمة ، واندلع لهيب الثورة ، وتزعمها المهاتما غاندى .

وكان غاندى حتى آنئذ يهتم بالإصلاح الاجتماعى وحده ، ويكرس حياته لدراسة أحوال العمال الزراعيين . وقد جرب فى بعض المقاطعات ذلك السلاح الماضى الذى استخدمه فيما بعد فى

النضال القومى ونجحت التجربة . وذلك هو عدم المقاومة وهو ما يسميه غاندى « ساتيا جراها » .

وحتى عام ١٩١٩ لم يشترك غاندى اشتراكا فعليا فى الحركة الوطنية الهندية . وكان يتزعم هذه الحركة فى ذلك الحين رجل اسمه تيلاك . ولولا وفاة هذا الرجل فى عام ١٩٢٠ لبقى غاندى زعيم الحركة الدينى . ولو بقى الرجلان معا لسارت الهند تحت زعامتهما المشتركة سيراً عجيباً ، ولاستحالت مقاومة الهنود ، لأن تيلاك كان نابغة فى التنفيذ كما كان غاندى ذا قوة روحية عظيمة . ولكن إرادة الله شاءت غير ذلك . وهو ما يؤسف له ، لا من أجل تيلاك ، ولكن من أجل الهند نفسها ، بل من أجل غاندى كذلك ، لأن طبيعة الرجل توائمها زعامة الأقليات ، وقيادة الطبقة الممتازة . ولو أن تيلاك عاش لقيادة الأكثرية لسعد بذلك غاندى ، لأنه لم يؤمن يوما فى الأكثريات كما كان يؤمن بها تيلاك . وتيلاك رياضى يؤمن بالعدد ، ويضحى بالحق من أجل الوطن ، ويبرر كل شىء من أجل السياسة . أما غاندى فرجل يضع الحق فوق الحرية وفوق الوطن . ومن أقواله : «أنا أومن بالهند لأنى أعتقد اعتقاداً جازما أن عليها رسالة تؤديها للعالم ... إن ديانتى ليس لها حدود جغرافية . وإيمانى بها يسمو على حبى للهند ذاتها » .

وهذه الـكلمات الرائعة تفسر نضال غاندى كله ، وتبين أن رسول الهند هو رسول العالم أجمع . ويمكن أن تشبه تعاليم غاندى ببناء شامخ يتألف من طابقين ، أما أسفلهما فقوامه الدين . وعلى هـذا الأساس المتين الذى لا يتزعزع تقوم حملته السياسية والاجتماعية . فليس الطابق الثانى إذن تتمة للأساس ، و إنما هو خير بناء يمكن أن يقوم فى الظروف التى وجد فيها غاندى . ونستطيع بعبارة أخرى أن نقول إن غاندى متدين بالطبع وزعيم سياسى بالتطبع ، وقد اضطر إلى احتراف السياسة لاختفاء الساسـة ، فأرغمته الظروف على أن يصبح ربان السفينة وهى تشق طريقها وسط الزوابع والأنواء .

(٥)

ويعتقد غاندى فى ديانة الشعب ، وهى الهندوكية . ولـكنه لا يقبل من الدين إلا ما يرضى عقله وضميره ، وهو لا يتعصب لدينه ، بل إنه يحترم جميع الأديان . يقول :

« لست أعتقد أن الڤيدا هو الـكتاب الوحيد المقدس . فالإنجيل عندى والقرآن وزند آفستا من الوحى المقدس كالڤيدا . وليست الهندوكية دين تبشير ، فهى تتسع لعبادة ما جاء به الأنبياء جميعاً . الهندوكية تهدى كل إنسان لعبادة الله وفقا لعقيدته ،

ولذا فهى تعيش فى وئام مع جميع الأديان . »

وهو يدرك ما اندس فى الدين من أخطاء وشرور خلال القرون العديدة السالفة ، ولكنه مع ذلك يؤمن به . يقول :

« لا أستطيع أن أصف شعورى نحو الهندوكية أكثر مما أستطيع أن أصف شعورى نحو زوجتى . إنها تحرك عاطفتى أكثر مما تستطيع أية امرأة فى الدنيا . لا لأنها منزهة عن الأخطاء . فإن لديها من أسباب الخطأ أكثر مما أدرك . ولكن هناك شعورا خفيا بأن العلاقة بينى و بينها لا يمكن أن تنفصم . وهكذا أشعر نحو الهندوكية بكل ما فيها من أخطاء وحدود . فلا شىء يسمو بنفسى كنغمات الجيتا أو رامايانا ، وهما الكتابان الوحيدان اللذان أعرفهما فى الهندوكية . . . »

ولا يتسع هذا المقام لتفصيل عقيدة غاندى ، و يكفينا هنا أن نشير بكلمة موجزة إلى تقديسه للبقرة و إيمانه بنظام الطبقات .

يرى غاندى أن حماية البقرة هى لب الهندوكية . لأن حمايتها معناها الإخاء بين الإنسان والحيوان ، و يقول غاندى فى تعبير جميل « إذا تعلم الإنسان أن يحترم الحيوان و يقدسه فإنه بذلك يرتفع عن خصائص نوعه و يدرك وحدته مع كل كائن حى . »

و إيثار البقرة على غيرها من الحيوان يرجع إلى أن البقرة خير

رفيق للإنسان فى الهند ، وهى فوق ذلك رمز الوفرة ، فهى لا تعطينا اللبن فحسب ، بل تعين كذلك على فلاحة الأرض .

ولا يعزو غاندى الفوارق بين الطبقات إلى تفوق إحداها على الأخرى . إنما تختلف الطبقات باختلاف واجباتها . فهناك طبقة البراهمان وهى الطبقة المثقفة صاحبة الفكر والروح ، والكشاتريا أو الطبقة الحربية والحكومية ، والفيشيا أو طبقة التجار والصناع ، والشدرا أو طبقة العمال . ويقوم نظام الطبقات عنده على إنكار الذات لا على الامتياز . ويجب ألا ننسى أن تناسخ الأرواح فى الهندوكية يعيد التوازن بين الطبقات ، إذ أن البراهمان قد يولد شودرا من جديد ، كما يجوز العكس .

ويهاجم غاندى المدنية الغربية . فهو يقول : « لقد برهنت الحرب الأخيرة أكثر من أى شىء آخر على الروح الشيطانى الذى يسود أوربا اليوم . فإن كل قاعدة من قواعد الأخلاق العامة ، قد طغى عليها الظافرون باسم الفضيلة . ولم يتورع الساسة عن الأكاذيب . وليس الباعث على ما ارتكب من جرائم الدين أو الإيمان ، ولكنه المادة . فأوربا اليوم مسيحية إسماً فقط وهى فى الواقع إنما تعبد المادة . »

يرى غاندى أن المدنيـة الأوربية لا تعمل على نشر السلام

أو تنمية خير ما لدى الأور بيين من مواهب . المدنية الغر بية جحيم يتلظى فيه الضعيف والفقير . ولـكن هذه المدنية الشيطانية سوف تدمر نفسها . المدنية الغر بية هى العدو الأكبر للهند ، وليس الإنجليز أعداءها ، لأن الإنجليز كأفراد ليسوا أشراراً ، ولـكنهم يكابدون ما تجلبه لهم مدنيتهم . و ينقد غاندى مواطنيه الذين ير يدون إبعاد الإنجليز عن الهند ليقوموا هم أنفسهم بتمدين الهند على أسس المدنية الغر بية ، فإن ذلك معناه أن تطرد الهند الذئب وتتقمص روحه . و إنما ينبغى أن تهدف الهند إلى نبذ المدنية الغر بية .

و ينقم غاندى على سلوك الإنجليز فى بلاد الهند ، و يخص منهم المعلمين والأطباء والقضاة . أما المعلمون فلأنهم يبغّضون الهنود فى لغتهم ، ولا ير بون فى الأطفال الطموح ونقاء القلب والضمير ، كما لا يحببونهم فى العمل اليدوى . أما الأطباء فلأنهم يعنون بعلاج البدن و يتجاهلون أن أسس الأمراض هو الرذيلة ، إذ أن المرض ينشأ عن سوء الفكر كما ينشأ عن سوء الأعمال . وأما القضاة فلأنهم يشجعون الخلاف بين الهنود و يثيرون فيهم أحط الغرائز .

ولـكن أسوأ ما فى المدنية الغر بية هو استخدامها الآلات . و يود غاندى لو عادت الهند إلى بساطتها الأولى فلا تنشئ المصانع

ولا تمد السكك الحديدية ولا تستخدم السيارات . يجب أن تعود الهند إلى المحراث والمغزل وإلى الفلسفة الهندية لكى تسترد استقلالها وسعادتها .

على هذه الأسس تزعم غاندى الحركة الهندية . وكنا نود لو استطعنا أن نفصل ما أجملنا . غير أن هذا لا يكفيه فصل فى كتاب ، وإنا لنرجو أن نخرج فى غاندى وحده كتابا مستقلا ، فشخصية الرجل متعددة الجوانب ، وكل جانب منها بحاجة وحده إلى فصل من كتاب .

ونختم هذا الفصل بعبارة لغاندى يشرح فيها مذهبه فى المقاومة (ساتيا جراها) الذى ألفنا أن نترجمه خطأً بالمقاومة السلبية . إذ أنها فى الواقع مقاومة إيجابية فى طبيعتها . هى المقاومة التى لا تجد لها منفذاً فى أعمال العنف ، وإنما منفذها قوة الحب الإيجابية ، وقوة الإيمان وقوة التضحية — الحب والإيمان والتضحية ، هذه هى معانى ساتيا جراها .

فلا يُخْف الجبان جبنه إذن تحت لواء غاندى ، فالعنف عند غاندى خير من الجبن ، وهو الذى يقول :

« لو خيرت بين الجبن والعنف لاخترت العنف . . . إنى أنادى بشجاعة الموت دون القتل . فإذا عدمت هذه الشجاعة

فاقتل عدوك ودع عدوك يقتلك . و إن هذا لخير من أن تفر من وجه الخطر يحيق بك العار . لأن الهارب يرتكب جريمة عقلية ، فهو يهرب لأنه يعدم شجاعة المقاتلة . و إنى لأوثر العنف ألف مرة على العجز والتخنث . وخير عندى أن تشهر الهند السلاح لتذود عن شرفها على أن تجبن وتلق بنفسها فريسة عاجزة لما يشين شرفها .

«غير أنى أعتقد أن اجتناب العنف أسمى من العنف ، والتسامح أليق بالرجل من العقاب . فبالتسامح يتحلى الجندى . ولا يكون العفو تسامحا إلا عند المقدرة على العقاب . وهو عديم المعنى حينما يصدر عن المخلوق العاجز . . . . ولست أعتقد أن الهند أمة عاجزة . ولا ينبغى أن يخشى ثلاثمائة مليون من البشر مائة ألف رجل إنجليزى .

« إن القوة لا تنشأ عن قوة البدن ، و إنما منشؤها إرادة لا تقهر . وليس معنى اجتناب العنف الذلة والخنوع لإرادة فاعل الشر ، و إنما معناه أن يجابه المرء بقوة الروح إرادة الظالم . و إذا نحن آمنا بهذا القانون البشرى استطاع الفرد منا أن يتحدى وحده جبروت امبراطورية غاشمة وأن يقوض أركانها .

« وعلى المرء أن يدفع ثمنا لذلك مكابدة الألم . فتحمل الألم هو صفة الإنسان الأولى ، وهو قانون أبدى أزلى . الأم تقاسى

لكى يعيش ولدها . والحياة تخرج من الموت . وفى نمو الثمرات فناء البذور . ولم ترتفع أمة من الأمم دون أن تتطهر بنيران الألم . وإنما يقاس التقدم بمقدار ما نعانى من ألم . وليس اجتناب العنف إلا الرضا بمعاناة الآلام . وأسلافنا الذين اكتشفوا قانون اجتناب الألم أعظم عبقرية من نيوتن ومن ولنجتن . العنف من صفات الحيوان واجتنابه من صفات البشر . . . . وأريد للهند أن تجتنب العنف وهى تشعر بنفوذها وقوتها . وأريد لها أن تدرك أن لها روحا لا تفنى ، وأنها تستطيع أن تسمو على ضعف الأبدان ، وأن تتحدى قوى العالم المادية كلها مؤتلفة متحدة . »



طاغور

رابندرانات طاغور

١٨٦١ — ١٩٤١

(١)

فى مدينة كلكتا بالهند ولد شاعر الهند الأكبر رابندرانات طاغور عام ١٨٦١ م ، وفى المدينـة عينها مات الرجل فى اليوم السابع من شهر أغسطس عام ١٩٤١ م ، بعدما عاش ثمانين حولا قضى أكثرها فى خدمة العلم والفن والأدب ، وذاع اسمه فى أرجاء العالم طرا ، حتى ظفر بجائزة نوبل للآداب ، وهو شرف عظيم لا يناله إلا من كان له فى خدمة الإنسانية باع طويل . وقد نقلت مؤلفات هـذا الرجل إلى أكثر اللغات ، وانتفع بهـا عدد من الناس عديد ؛ فبات من حقه على أمم العالم أجمعين أن تذكره بعد موته وأن تورث أدبه أبناءها جيلا بعد جيل . وسنحاول فى هذه العجالة القصيرة أن نقدمه إلى القارئ ، وأن نبسط حياته فى كلمة موجزة ، ولعـل فى هذا حافزاً للناشئة أن تتزود من أدبه ، وللمتأدبين أن ينهلوا من نبعه وفيضه .

ماتت أم الشاعر وهو لا يزال فى المهد صبيا ، وكان أبوه

كثير التغيب عن داره فحُرم طاغور منذ نعومة أظفاره عطف الوالدين وحنان الأبوين ، وعاش أكثر أيام طفولته وحيداً منعزلا ، لا يجد لنفسه عزاء ولا سلوى إلا فى الطبيعة بتدبرها ، وفى خلق الله يتأمله .
كتب مرة إلى صديق له يقول : « إن أهم ما يميز طفولتى هو العزله ، فلقد كان أبى كثير التغيب ، ولم أره إلا لماماً ، ولكنه حين يحضر يملأ الدار بوجوده ، فترك فى حياتى أثرا عميقاً لا تقوى الأيام على محوه . وماتت أمى وخلفتنى فى رعاية خدمها ، فكنت كثيراً ما آوى سحابة نهارى ، من مطلع الفجر إلى مغيب الشمس ، إلى نافذتى ، وأرسم فى مخيلتى ما كان يجرى فى العالم الخارجى ، فأغرمت بالطبيعة من عهد لا أكاد أذكره . آه ! لقد كان صوابى يطير جنوناً حينما كنت أتأمل كسف السحاب يتلو فى السماء بعضها بعضاً . فأحسست — حتى فى تلك الأيام الباكرة من حياتى — أن معى رفيقاً يلازمنى وزميلاً لا يفارقنى ؛ ولقد كان لى أبداً زميلا عطوفاً مخلصاً ، وإن كنت لم أعرف ماذا أسميه ، وبماذا أناديه . لقد همت بالطبيعة هياماً شديداً لا أستطيع أن أعبر لك عنه فى كلمات ، وكانت الطبيعة لى دائما صديقا محبا ، لا تفتأ كل يوم تكشف لى فى هذه الدنيا عن لون من الجمال جديد . »

ولعل فى العبارة الآتية التى ننقلها عن كتابه « ذكريات » ما يتمم صورة عزلته أيام الطفولة التى رسم جانباً منها فى خطابه إلى صديقه ، قال : « كنت كلما أشرق علىّ يوم جديد من أيام الخريف أخف إلى الحديقة فى اللحظة التى أنهض فيها من سباتى فيبدو لى كأن عبق الأوراق والحشائش وقد بللها الندى بقطره ، يعانقنى بشغف شديد ، وكأن الفجر — وقد جللت حواشيه بالذهب النضار أشعة الشمس المتيقظة — يطالعنى بوجهه ويحيينى من خلف أوراق النخيل المرتعشة ، كانت الطبيعة لى كالطفل يقابلنى بيد مقبوضة ، ويسألنى كل يوم بثغر باسم : ما الذى تظننى قد جمعت يدى عليه ؟ ولم يكن من المستحيل أن تضم قبضته كل عجيب فى الدنيا وغريب . »

ويحدثنا طاغور أن أباه أرسله إلى المدرسة وهو صبى يافع ، فكرهها أشد الكره ، لأن أحد أساتذته كان شديد القسوة عليه ، كثيرا ما يأمره أن يقف فى الشمس المحرقة ساعات متواصلات إذا هو أهمل فى الدرس أو قصر فى أدائه . وهكذا زهد فى المعرفة غلام هو أشد ما يكون بطبعه هياما بها . فلما نمى إلى أبيه أنه يلقى فى المدرسة عنتا وقسوة ، أخرجه منها ووضعه تحت إشراف أساتذة خاصين به وحده ، فمهد الأب بذلك لابنه

أن يظهر مواهبه وملكاته ؛ فأقبل الصبى على الدرس يكاد يلتهمه التهاما ، ونزلت الكلمات والآراء المختلفة والموسيقى والأغانى من قلبه خير منزل ، وتلقاها قبولا حسنا . وشرع وهو ما يزال فى حداثته ينظم الشعر والأناشيد ، ويكتب القصص والروايات ، معبراً بكل ما استطاع من وسائل عن حبه للحياة .

وليس عجيبا أن يبدأ حياته الأدبية بمحاكاة شعراء (بنغال) ، حتى تم نضجه الأدبى وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، فاتسمت كتاباته بالأصالة ، وطبعت بطابع الابتكار . وفى هذه السن استولى حب الطبيعة على قلبه أكثر من ذى قبل ، وأخرج لنا « أناشيد المساء » و « أناشيد الصباح » ، والمجموعة الأولى تدل من عنوانها على أن الشاعر فيها مكتئب حزين ، فهو ينظم قصيدة عن « اليأس » وأخرى عن « سقوط النجم » وثالثة عن « مناجاة الأحزان » ورابعة عن « امرأة بغير قلب » ، وهكذا . ولكنك تراه فى المجموعة الثانية أكثر بالحياة ابتهاجا وأشد بها سرورا . فهناك قصيدته عن « حلم العالم » و « الحياة الأبدية » و « عودة الاتحاد بالطبيعة » وهو هنا حتى حين يكتب عن « الموت » يذكرنا أن الحياة لا يُدرك معناها إلا بالانتقال منها إلى عالم آخر هو عالم الفناء .

(٢)

وقد كان طاغور فى هـذه الأغانى ثائراً على القديم ، داعية إلى التجديد فى اللفظ وأوزان الشعر ، وبهاتين المجموعتين وغيرهما من القصائد الخيالية ينتهى الدور الأول من حياة الشاعر ، حياته فى كلـكتا . وقد انتقل فى الدور الثانى من المدينـة إلى الريف ، وتزوج وهو فى الثالثة والعشرين من عمره . وفى هذه المرحلة من مراحل حياته يواجه الشاعر الحياة الحقيقية ، فقد أراد له أبوه أن يتفرغ للعناية بمزارع العائلة على ضفاف (الـكنج) ، فصـدع طاغور بما أمر ، وهو غير راض عن هذه الطريق التى دفعه أبوه إليها دفعاً ، لأنها لا تتفق وما كان يميل إليه من متابعـة الدرس والتحصيل . ولـكن حياة الريف مهدت له السـبيل إلى جمع الـكثير من تجارب الحياة ؛ ففى القرية أتيح له أن يتصـل بحياة العـامة اتصالا مباشراً ، وأن ينقـل عن الحياة رأساً الأقاصيص والأمثال التى تعالج ما يضطرب فيه الناس من شئون كل يوم . وفى القرية كتب بعضاً من خير مسرحياته . وإنك لتلمس أثر هذه الحياة الهادئة التى كان يحيا فى أناشـيد « البستانى » ، وفى غيرها من قصص هذا العهد .

(٣)

وقد قضى الشاعر فى هذا الدور الثانى من أدوار حياته سبعة عشر عاما ، انتقل بعدها إلى دور جديد كان كما يسميه « خريف حياته » لأنه جاء بعد ربيع الحياة الزاهر ؛ وفى هـذا الدور هبط الموت داره يحصـد بمنجله أحباءه وأعزاءه ، ففقد زوجه الأولى ، وأصيبت كبرى بناته بالدرن الذى أودى بحياتهـا ، ثم فجع فى أصغر أبنائه ، وكان ذلك والشاعر فى سن الأربعين ، وهى السن التى يكون فيها الرجل فى أشد الحاجة إلى الزوج والبنين ، يجتمعون حوله ، ويسكنون إليه ، ويسكن إليهم .

وبعد هذه الفجيعة الكبرى استولى على طاغور قلق شديد ، فهجر قريته ، واعتزم أن ينكب على العمل ، لعله به ينسى رزءه الفادح ، ولعله يقدم للجيل الجديد خدمة نافعة ، فنظم من القصائد طوالها وقصارها . وهو يقول : « إن عاصفة الموت التى هبت على دارى ، وعصفت بزهرة أبنائى ، كانت علىَّ بركة ورحمة ، فقد أشعرتنى بنقصى ، ودفعتنى إلى أن أنشد الكمال ، وصـورت لى فى جلاء كيف أن العالم لا يفقد حقيقةً ما يضيع منه ظاهراً . . . وعرفت الموت . إنه الكمال ، وليس شىء فى هذه الدنيا بضائع . »

ومن آثار هذا العهد كتابه المعروف « جيتانجالى . »

(٤)

ثم رحل الشاعر بعد هذا إلى الغرب ، وقد أدرك أن رحلته إلى إنجلترا وأمريكا سوف يكون لها أثر بالغ فى تغيير نظرته إلى الحياة . وقد جاء فى كتاب له دبَّجه فى ذلك الحين : « إنى عند ما عبرت الأطلانطيق ، وقضيت على ظهر السفينة غرة العام الجديد ، أدركت أن مرحلة جديدة من حياتى قد حلَّت ، وهى مرحلة الرحَّالة المسافر . »

وقد أثرت هـذه الرحلة بالفعل فى نفس الشاعر ، فمال إلى الإصلاح الاجتماعى ، وأنشأ مدرسته الشهيرة فى (شانتى نكتان) التى كان يرمى بها إلى إنشاء عصر ذهبى فى حياة البنغال ، و إلى تحقيق آمال الهند الحديثة .

و إن أكثرنا ليبحث عن الحقيقة حتى الأربعين من عمره ، فإذا ما دخل فى العقـد الخامس من حياته انتهى به البحث إلى رأى معين وعقيدة خاصـة ، يصوغ عليهما حياته على صورة من الصور تتكرر يوماً بعـد يوم . إن الرجل بعد هذه السن ليأوى عادة إلى حياة عائلية هادئة ، يقضيهـا بين أبنائه ، لا يفـكر فى جديد حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . ولـكن ما هكذا عظماء

الرجال ، فإنهم لا يفتأون يجددون شبابهم ، و يطمعون فى سلطان جديد . لا يرضون لعقولهم أن تخبو شعلتها ، ولا يقبلون أن يفكر لهم أحد غيرهم . وكذلك كان طاغور ، فقد خرج من محنته بعزيمة جديدة لا تعرف الخور ، وأمل قوى لا يتطرق إليه يأس . وأخذ ينادى بضرورة توحيد العالم فى أمة واحدة ، و بإزالة ما تسببه فوارق الطبقات والأديان واختلاف الأجناس ، من إحن و بغضاء . وكان يسمى هـذا الغرض « خلق الإنسان » ، وذلك هو — فى عبارته — « الأمر الوحيد الذى يهم الجيل الحاضر . وعلى أبناء اليوم أن يتحملوا كل مشقة ، و يقاسوا كل ألم حتى ينتصر جانب الخير فى الإنسان على جانب الشر . »

وشغف طاغور فى شيخوخته بفن الرسم ، فعرض كثيراً من لوحاته فى لندن ، وظفر من رجال الفن بإعجاب شديد ، و بقى الرجل يخدم الفن والأدب حتى وافاه الأجل المحتوم ، فانتقل إلى جوار ر به بعد ما خلف لنا كنوزاً ذهبية لا تفنى ولا تبيد .

* * *

(٥)

كان طاغور إذاً أديباً فناناً متنوع المواهب ، يقرض الشعر ،

ويكتب القصة القصيرة والقصة الطويلة ، ويؤلف المسرحية ، ويعزف الموسيقى ، ويصور اللوحات الفنية الرائعة . وهو فى كل ما يخرج من عمل أدبى يستوحى البيئة ، كما يستوحى من سبقه من الشعراء الهنود ، ويشجعه شعب يميل بطبعه إلى الغناء ، ولسان قومى مرن قوى التعبير .

ولعل من خير ما كتبه شعراً تلك الملحمة الطويلة (البستانى) . وفى هذه القصيدة الرائعة يدرك طاغور أن الناس كثيراً ما يحسبون الشاعر رجلا نائياً عن الجماعة ، يسبح فى الخيال ، ولا يضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، فيجيبهم بضرورة الشاعر ، وفى هذا المعنى يقول :

« أيها الشاعر ! لقد أقبل المساء ، وابيضَّ فوداك ، فهل أنت فى خيالك وعزلتك تستمع إلى رسالة من عالم غير عالمنا ؟ »

فيجيب الشاعر : « أجل . لقد أقبل المساء . وإنى لأرهف الأذن لعل صوتاً ينادينى من القرية ، وإن كان الظلام قد حل . وإنى لأرقب قلوب العاشقين من الشباب حين تلتقى ، وأعين المحبين حين تتبادل النظر وتتطلع إلى الموسيقى تعبر عن مشاعرهم وتخرجهم من صمت رهيب . من لهؤلاء ينشد لهم أناشيد الحب والعطف ، إذا كان الشاعر — كما تزعمون — يجلس على

شاطئ الحياة ، ويتأمل الموت والحياة الآخرة ؟ »

وفى حلو النغم يتابع الشاعر القصيدة ، ويغنى أناشيد الحب والحياة ، ولا يبرح ذهنه فى كل ما كتب ، أنه لا يخاطب مواطنيه وحدهم ، وإنما يخاطب أبناء العالم أجمعين .

ومن قراء طاغور ونقاده من يرى أن عبقرية هذا الأديب لم تبلغ ذروتها فى أناشيده ومسرحياته ، وإنما فى قصصه القصار . ولا عجب أن يكون طاغور قصاصاً ماهراً ، فمقدرة الهنود على اختراع القصة مشهورة معروفة ، وحكاياتهم ذائعة بين الأمم والشعوب من زمان قديم .

يروى طاغور فى إحدى هذه القصص أنه فى يوم من أيام الشتاء الباكر ، وقد هبت نسمات لطيفة رقيقة ، بعثت فى الناس حياة جديدة ، وفى الأشجار خضرة ونضرة ، ومياه النهر فى غمر من الفيض يكاد يطغى على تلول «الغات» ، والصيادون يسبحون فى زوارقهم ، والأمواج ترتطم فوق الصخور ، والشمس مشرقة واضحة الجبين . فى هذا اليوم الجميل يقبل رجل براهمىٌّ ليستحم ، ويقبل فى أثره جماعة من النسوة يحملن الجرار يملأنها بالماء . ويشاء خيال الشاعر هنا أن يوقع صخور « الغات » الصماء فى حب (كوسوم) إحدى هؤلاء الفتيات . وتتواعد « الغات » على لقاء

الفتاة كل صباح عندما تغرد طيور الفجر . و يقول التل العاشق :
« رأيت مرة ظل الفتاة منعكساً على صفحة الماء ، فودت صخورى
لو تقلقلت من مكانها و عانقته . فلقد كانت فاتنة حقاً فى ذلك
الصباح ، وقد أحب الفتاة النهر والعشب . وذات يوم غابت
(كوسوم) ولم تحضر كعادتها ، وعلم « الغات » من صاحباتها أنها
خُطبت — وهى ما تزال طفلة — إلى فتى من فتيان بلد غريب
موحش لا يتدفق فيه « الـكنج » ولا يؤنسه ، وأنها انتقلت إلى
بيت حميها ، وكأنها زهرة من زهور الماء نقلت من مكان رطيب
إلى أرض جافة ، لا قطر فيها ولا ماء ! ثم تصرم العام ، وعادت
(كوسوم) إلى وطنها بعد ما مات زوجها وترملت ، ورجعت إلى
صخور « الغات » تندب حظها وتبكى أيامها . ثم انقضت السنون
تلو السنين ، وتم للفتاة نضجها ، واكتمل شبابها . وأقبل ذات
يوم كاهن من كهان الهنود ، ودخل معبده ، وتابعته « كوسوم » ،
وتعلمت منه معنى الحب ومعنى الموت ، واعتادت أن تقصد المعبد
كل يوم تلمس موطئ قدمى الـكاهن ، وتنثر الزهر فى أرجاء
المـكان ، وتغسل أديمه بمـاء النهر . و بعد مدة من الزمن تهجر
الفتاة هذه الحياة الدينية ثم تختفى ، ولـكنها تعود ثانية ، و يعتب
عليها الـكاهن ، فتضطرب فى جوابها ؛ ولـكنك تدرك من وراء

الكلمات أنها عشقت الكاهن وهامت به ، وطاردتها صورته فى الحلم واليقظة ؛ فيرد عليها الكاهن قائلاً : « إنى مغادر مكانى هذا اليوم ، فأبعدينى عن ذاكرتك ، وعدينى بهذا » فتعده الفتاة ثم ينصرف .

وأخيراً ترنو الفتاة بنظرها إلى نهر (الكنج) صديقها الأوحد ، ويقول (الغات) : إذا لم يضمها النهر الآن — وهى فى آلامها وأحزانها — بين أمواجه ، فمن ذا عساه أن يفعل هذا ؟ » ، ثم يقول : « ... غرب القمر ، وأقبل الظلام ، وسمعت خرير الماء ، ولم أر شيئاً غير هذا . ولكن الريح عصفت بشدة كأنها تريد أن تطفئ ضياء النجوم فى السماء ، خشية أن يفضح نورها ما يحدث على الأرض . ثم اختفت رفيقتى ، التى كثيراً ما لعبت فى جنبات صخرى ، وغابت عن عينى ، ولكنى لم أدر إلى إين سارت . »

وهكذا فإن طاغور كثيراً ما يورد ذكر المرأة فى قصصه ، ويصف البيئة التى يعيش فيها وهو — فوق هذا — يكسب المكان الذى يتعرض له سحراً وفتنة . فللمنازل عند طاغور أرواح ، وللأطلال قوى السحر ، والجبال تنبئ عن عمر الزمان ، والبيت يذكر من مات فيه . ومن الناس من يتلبس بأشباح الخير أوالشر . وما أقرب خيال طاغور إلى خيال الأطفال وما أشبهه به !

فكما أن الأطفال لا تملك إلا أن تنظر إلى المستقبل بعين الأمل ، فكذلك كان شاعرنا يعتقد أن « الجنة قريبة من سكان هذه الأرض » وإذا كان هربرت سبنسر يرى فى نهم الأطفال وجوعهم الذى لا يشبع دليلا على توحش الإنسان وهمجيته ، فقد كان طاغور — على نقيض ذلك — يرى فيهما العلامة الأولى على حب الإنسان للاستطلاع والمعرفة ، ورغبته فى الوصول إلى مملكة السماء .

وقد أظهر طاغور وهو ما يزال فى الرابعة عشرة من عمره استعداداً لكتابة المسرحية ، فألف رواية اشترك فى تمثيلها بنفسه . ثم تابع الكتابة فى هذا الفن حتى أربى ما أخرجه من المسرحيات على العشرين ؛ وقد ترجم إلى الإنجليزية الكثير منها ، ومثّلته مسارح لندن ، ومنها رواية (شترا) ورواية (ملك الغرفة الظلماء) ورواية (مكتب البريد) و (انتقام الطبيعة) .

و (شترا) مسرحية غنائية ، وموجزها أن أبا الفتاة (شترا) لم يرزقه الله ابناً ذكراً ، فنشّأ ابنته نشأة البنين وجعلها وريثة له من بعده . وفى الفصل الأول نشاهد الفتاة وهى تتشاور مع إله الحب وإله الشباب ، وتسرّ إليهما كيف أنها كانت تسير ذات يوم على شاطئ نهر فى إثر غزال ، فوقعت عيناها على رجل قد استلقى

تحت شجرة ظليلة وافترش أوراق الأشجار الجافة ، فحدقت فيه وأدركت أنه (أرجونا) بطل قبيلته العظيمة ، الذى طالما حلمت به ، وأعجبت ببطولته . وكانت تعلم أنه قد أقسم أن يعيش عيش النساك اثنى عشر عاماً ، ولطالما تمنت أن تلقاه وهى فى زى الذكور متنكرة ، ثم تنازله القتال وجهاً لوجه . وها هو ذا الآن تحت بصرها ، ولـكنها لم تجد فى نفسها الشجاعة على مقاتلته ، بل إن « عاصفة من العواصف الملتهبة » تلعب برأسها ، وتقلب عليها الرأى ، فتقف جامدة لا حراك بها ، ولا تستطيع حتى أن تبدأه بالتحية أو بكلمة طيبة وقد نهض على قدميه وانطلق ؛ وفى صبيحة اليوم التالى تنزع الفتاة عنها زى الرجال ، وترتدى الحلى والحرير ، و بقلب المرأة النابض تنطلق إلى معبد الغابة تبحث عن (أرجونا) البطل . وما إن تلقَّاها حتى ذكَّرها بقسمه . ولما استشعرت اليأس من ظفرها بقلبه توجهت إلى إله الحب ، فوعدها أن يأتى لها (بأرجونا) جاثياً عند قدميها ، مهزوماً لديها ، وهو الرجل الذى هزم كل من لاقاه . ثم تتوجه إلى إله الشباب وتتوسل إليه أن يهبها يوماً واحداً فى حياتها يتوفر لها فيه جمال الأنوثة ورقتها ، وتفقد فيه خشونة الرجولة وغلظتها . . . وهكذا يمازج

طاغور بين الحب والدين ، ويحلل عواطف الرجال والنساء تحليل الخبير الموهوب .

هذه بعض نواحى طاغور الأدبية ، عرضناها هنا عرضاً سريعاً . وسنعرض الآن لبعض نواحيه الأخرى .

(٦)

أسس « طاغور » مدرسة لفتيان الهنـد يأخذون فيها عنه تعاليمه ، وينشأون على مذهبه ودينه . وكان قدماء الهنود ينشئون مدارسهم بعيـداً عن المدينة وضجيجها ، ويسمونها (أسرم) أو مدارس الغابات ، وهى مدارس أشبه بدور النسك والرهبانية منها بالمدارس الحديثة . وكان الطفل يوضع تحت رعاية (جورو) أو الرجل الحـكيم . يأخذ عنه العلم والحـكمة ، ويعيش فى أحضان أمه الطبيعية ؛ وهذا هو نظام التربية الذى مال إليه طاغور وشغف به ، فقد جاء فى مقال له : « إننا لسنا اليوم فى حاجة إلى معابد للصلاة ، ولسنا بحاجة إلى هـذه الطقوس والشعائر الدينية نقيمها . إن ما نحتاج إليه حقا هو مدارس الغابات ، نريد مكاناً يأتلف فيـه جمال الطبيعة ومجهود الإنسان . هنالك يكون معبدنا حيث تلتقى الطبيعة الظاهرة بالروح الباطن . »

ولم يكتف طاغور بتقليد هذا النظام بغير تحوير ، بل نصح باقتباس كثير من النظم الحديثة فى البلدان الغربية ، وأهمها تقوية الإرادة ، لأن الإرادة عند طاغور تكمل الوحى وتتممه . وهذه هى الروح التى سرت فى مدرسة (شانتى نكتان) ، ومعناها موطن الأمن فى مدينة « بلبور » ، والمدرسة فى الأصل بناء أنشأه أبوه ، وجعل منــه مسكناً وحديقة ومعبداً ومكتبة ، وغيرها من المرافق التى تيسر له الراحة والدرس .

وقد قاسى طاغور فى أيام طفولته كثيراً من ألوان العقوبات المدرسية ، فأراد بمدرسته هذه أن يعالج القسوة الشديدة التى كان يعامل بها أبناء الهند وهم فى دور التربية والتكوين ، والتى يردّها طاغور إلى جهل القائمين بالتعليم بطبيعة الأطفال . وكان يرى فى الطبيعة خير معوان للمعلم على أداء واجبه ، فإن لها لتأثيراً لطيفاً هادئاً فى النفوس ، فأقام مدرســته فى العراء تحت ضوء الشمس وفى أحضان الحقول . وقد نشأت أول الأمر نواة صغيرة ، ثم أخذت تنمو وتنجح باطراد حتى أخرجت خير الثمار . كانت أول أمرها داراً يتنسك فيها أبوه ويدعو إليها الناس لعبادة الله ؛ وقد عاش طاغور فى هذه الدار فترة من الزمن فنبتت فى ذهنه فكرة إحياء المدرسة القديمة « أسرم » أو مدرسة الغابة . وبدأ التجربة

عام ١٩٠١ مع تلميذين أو ثلاثة ، ثم زاد العـدد إلى ثمانية عشر بعد عامين ، و إلى ستين بعـد أر بعة أعوام ، و إلى مائتين بعد بضعة أعوام أخرى . أما نظام الدراسة فيصفه أحد تلامذة طاغور فى هذه العبارة :

« فى الساعة الرابعة والنصف من كل صباح ينهض جماعة من التلاميذ و يدورون فى أرجاء المدرسة مرتلين الأناشيد يوقظون بها الأطفال النائمين كى يهبوا من سباتهم يستمتعون بجمال الفجر وهدوئه البالغ . وما يكاد الأطفال ينهضون حتى يأخذوا فى تنظيف غرفهم بأنفسهم ، فهم يتعلمون من البـداية ألا يغضوا من شأن العمل اليدوى ، وأن يعملوا كل شىء لأنفسهم لا يعينهم فى ذلك خدم . ثم يقومون بعد هـذا بتمرينات رياضية بدنية فى الهواء الطلق ، يتبعونها بحمام بارد ، ثم يأوى كل منهم إلى مكان منعزل لا يخالط أحداً ولا يكلم أحداً زهاء ربع ساعة يقضيها فى التأمل والتفكير . ثم يصلون جماعة بعـد طعام الإفطار . وقبل أن تبدأ الدراسـة يجتمع الأطفال و يرتلون نشيداً من كتابهم المقدس . و بعدئذ يتلقون دروسهم من الثامنة إلى منتصف الثانية عشرة . وتنعقد الفصول فى الهواء الطلق ، بل إن الحياة المدرسية كلها تجرى فى العراء ما دام الطقس معتدلاً جميلا . فالمدرسة روضة ، يجتمع

أبناؤها فِرَقاً تحت الأشجار ، ويحمل كل منهم حصيراً يفترشه ، وقرطاساً وقلماً ومداداً يستعملها حين يريد الكتابة .

وفى تمام الثانية عشرة يتناولون الغداء ، وتنتهى الدراسة كلها فى الصباح ، لأن جو الهند الحار لا يسمح بالعمل بعد منتصف النهار . ويقضى الأطفال ما بعد ساعات الظهيرة فى إعداد دروسهم ، وفى الألعاب الرياضية وفلاحة البساتين . ويتوجه بعض كبار التلاميذ إلى إحدى القرى المجاورة حيث يعلمون الصبية ويرشدونهم إلى فعل الخير . وبعد ما تنقضى هذه الفترة من النهار ، يستحم التلاميذ ، ثم يثوبون إلى فترة التأمل والتفكير ، التى تعقبها الأناشيد السانسيكريتية قبل تناول العشاء . وبعد وجبة المساء يتبادل التلاميذ تلاوة القصص لمدة ساعة ، ويصرفون الوقت فى التمثيل والغناء وما إليهما ، ولا يشترك كبار التلاميذ فى هذا اللهو ؛ إذ أن كثرتهم تعد لامتحان القبول فى الجامعة ، فهم بحاجة إلى زيادة ساعات العمل والاستذكار . أما من دونهم فيحظر عليهم الاستذكار فى ساعات المساء . وبعدئذ يأوى الطلبة إلى الفراش حيث تكون الساعة فى منتصف العاشرة ، ويطوف بعضهم ثانية فى أرجاء المدرسة يرتلون الأناشيد ، وهكذا ؛ فهم يبدأون النهار بالأغانى ويختمونه بالأغانى .

ويبث طاغور فى تلاميذه روح القومية وحب الوطن ، بحيث لا يتعارض ذلك والعمل على خدمة الإنسانية عامة ، إذ أن اختلاف الجنس والدين ينبغى ألاّ يعوق الإنسان عن حب أخيه الإنسان .

والأطفال فى مدرسة طاغور يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وينتخب التلاميذ من بينهم رئيساً لهم كل أسبوع ، يعمل على حفظ النظام ، وعلى الجميع طاعته ؛ ويعاون الرئيس مساعدون يختارون كذلك بالانتخاب ، ويشرف كل منهم على ستة أو سبعة تلاميذ ؛ وتنعقد كل مساء محكمة من الطلبة تقضى فى المخالفات التى وقعت خلال النهار ، ولا يشترك فيها الأساتذة إلا إذا كان الجرم خطيراً ، وقل أن يكون كذلك .

وتسود المدرسة روح دينية ، ولا يتحكم المعلمون فى الطلبة ؛ بل إن المعلمين كثيراً ما يخضعون لإرادة تلاميذهم ويلبون مطالبهم . والعقوبة البدنية بكل صنوفها ممنوعة منعاً باتا ، ولعل أشد عقوبة توقع على المذنب أن يقاطعه زملاؤه ومعلموه . فإذا أقر المخطئ بخطيئته عادوا إلى مخالطته وحشروه فى زمرتهم من جديد .

وتعنى المدرسة بصحة التلاميذ وبناء جسومهم ، ويدربون

على شيء من الخشونة والاعتماد على النفس ، ويمرنون على الألعـاب المختلفة ، وكثيراً ما ظفرت مدرسة (شانتى نكتان) فى المباريات مع المدارس الأخرى ، وأحرزت كأس الانتصار . ويدربون فوق ذلك على إطفاء الحرائق وتلافى أخطارها .

ولعل هذه الصورة التى نرسمها لمدرسة طاغور لا تتم إلا إذا ذكرنا كلمة عن الدور الذى يلعبه بنفسه فى إدارة المدرسة . كان طاغور يحب تلاميذه حب الأب لأبنائه ، وهو يقول : « إننى مع هؤلاء الأطفال أسعد منى فى أى مكان آخر» . ويسميه الأطفال (جوردو) أو «سيدنا» ويقوم بتدريس الأدب والغناء ، ويشجع الأطفال على الابتكار فى الرسم والتصوير والشعر ، وهو أشد ما يكون سروراً حين يعرض عليه طالب من طلبته أولى ثمـار إنتاجه الأدبى . ويقوم التلاميذ كل شهر أو شهرين بإخراج مسرحية من مسرحياته وتمثيلها ، ويشترك بنفسـه معهم فى الأداء ؛ فقد مثل معهم دور الملك فى رواية «ملك الغرفة المظلمة» .

فى مثل هذا الجو ينشأ أطفال (شانتى نكتان) متأثرين بتلك الشخصية العظيمة ، شخصية طاغور ، وبمثل هـذه الروح فى التربية يكون لنا من أبنائنا رجال صحاح الجسوم والعقول ، أشداء العزيمة ، أقوياء الإيمان . إن طاغور فى عالم التربية لا يقل عن

« فروبل » الذى جمع حوله أول الأمر نفراً من الأطفال ، يغنى لهم الأغانى وينشد الأناشيد ، وانتهى به الأمر إلى قلب نظريات التربية فى مدارس الدنيا بأجمعها ؛ وليس طاغور كذلك فى هذا الميدان بأدنى مرتبة من « مدام منتسورى » التى تولت فى روما إدارة مدرسة من ضعاف العقول ، فأخرجت من أطفالها « المعتوهين » جيلا أحدَّ ذكاءً من أبناء المدارس الأخرى .

إن عماد طاغور فى التربية تنمية الاعتماد على النفس ، وترك الأطفال وشأنهم فى تحصيل العلوم والمعارف . وليس هذا بالأمر اليسير ، وقد جربت إحدى المدارس المتزمتة أن تسمح لتلاميذها فى يوم واحد فقط من أيام الأسبوع باختيار ما يشاءون من دروس ، فكان الطلبة يشغفون بهذا اليوم ، ويتطلعون إليه طوال أيام الأسبوع الأخرى .

وقد تعود طاغور أن يجمع تلاميذه فى المعبد مرتين كل أسبوع ، ويتحدث إليهم فى الشئون الدينية وأغراض الحياة حديثاً مبسطاً جذاباً . وكان الأولاد يغرمون بهذه الاجتماعات الدورية ، وبغيرها من الاجتماعات التى كانت تعقدها المدرسة كل عام ، احتفالا بتأسيس المعهد ، أو برأس السنة ، أو تكريما وذكرى لكل رجل عظيم أدى للإنسانية خدمة جليلة . وكان طاغور يرأس بنفسه هذه المحافل .

اجنيس چان پادروسكى

١٨٦٠ — ١٩٤١

(١)

أرسل القيصر نقولا الثانى إلى پادروسكى الفنان يدعوه إلى إحياء حفلة موسيقية ، وجاء فى دعوته « يسر جلالة القيصر أن يكون أشهر الموسيقيين فى العالم طرا روسيا » فأجابه پادروسكى الوطنى المتحمس بقوله « لقد أخطأ جلالتكم إنما أنا پولندى . »

فى عام ١٨٦٠ كانت پولندا ترزح تحت نير الظلم الروسى . وفى اليوم السادس من شهر نوفمبر من ذلك العام نفسه ولد اجنيس چان پادروسكى . واستنشق مع أنفاســه الأولى حب الحرية . واستنشق معها كذلك حب الموسيقى . وتميز اجنيس چان منذ نعومة أظفاره بالقوة والحيوية ، وتمثل حياته الموسيقى البولندية التى تميل إلى نغمات الحزن والأسى . ولما بلغ هذا الطفل الحساس الثالثة من عمره شهد والده وهو يؤسر عند ما أشعل القوزاق النار فى پودوليا وقتلوا أكثر سكانها . فلم تمح ذكرى هذا اليوم قط من ذهنه وانطبعت فيه حتى مماته .



پادروسکی

بدأ دراسته على معلم متنقل . ولم يلبث پادروسكى طويلا حتى استنفد كل ما عند معلمه من معارف . ولكنه أخذ عنه الجد فى العمل وضبط النفس . ولما بلغ الثانية عشرة كان على علم تام بما يجب أن يعمل . عرف أن الموسيقى هى لب كيانه ، والبيانو آلته المختارة .

وشعر بشىء من خيبة الأمل عند ما التحق بمعهد وارسو للموسيقى وقيل له إن يديه الصغيرتين لا تصلحان لإتقان العزف على مفاتيح البيانو ، و « خير له أن يحاول تعلم الناى فإن رئتيه القويتين تساعدانه على إتقانه . »

وأنصت لهذه النصيحة فى أدب جم ، ولكنه آثر البيانو برغمها . و بتلك القدرة النادرة على العمل التى كانت أهم مميزاته الشخصية أتقن العزف على البيانو برغم يديه الصغيرتين .

كان فى طفولته يحب النغم و يحب اللعب . وقد فصل من مدرسته مرتين لمزاحه ، وكثيرا ما أوى إلى فراشه خاوى البطن ، وهى عقوبة شديدة على طفل ملىء بالنشاط . فارع الطول منذ الصغر ، أحمر الشعر ، دقيق الوجه . يجتذب إليه الأصدقاء المخلصين بحسن مظهره وطيب طبيعته . وخصه بعطفه كرنتبف [1] ، صديق

---

(١) Kerntopf

أسرته ونصير الفنون . لمس عبقرية هذا الفتى فأواه فى بيته ، حيث الطعام وافر والحياة بهيجة . وفى صحبة كرنتبف هزت الأوبرا بجلالها شعور پادروسكى وتعرف إلى كبار الموسيقيين . وعاش فى جو فنى عظيم . واستولى الطموح على هذا العازف الصغير على البيانو وهو لما يزل فى السادسة عشرة من عمره . واصطحب سميًّا له يعزف على الكمان وطافا الأقاليم مخالفين بذلك قانون معهد الموسيقى . ومن هذه المغامرة ربح هذان الموسيقيان الناشئان قليلا من المال وكثيرا من الخبرة . تعلما فيها ما لم يعلما من قبل . ولما عادا إلى معهد الموسيقى ضاعفا جهدهما .

ولما بلغ جان پادروسكى الثامنة عشرة من عمره ، فتح قلبه للحب ، وشغل بزميلة له فى الدرس اسمها انطونينا كورساك . ولما عين معلما بالمعهد تزوج منها . وبرغم ضعف دخلهما المالى ومع أن بيتهما لم يزد على غرفة واحدة فقد كان زواجهما جد سعيد ، ولم يقبل بادروسكى أن يأخذ من زوجته المهر الذى عرضته عليه عند الاقتران بها . وقد حفزه إيمان أنطونينا بعبقريته ، وولعها به ، ومعونتها الدائمة ، إلى الارتفاع إلى قمة من النبوغ قلما بلغها أحد وهو فى مثله سنه الصغيرة . وعمرت قلبه السعادة ، غير أنه لمح فى الأفق البعيد ما يدل على أنها لن تدوم .

(٢)

كان دائما يقول « إن الموسيقى هى الفن الوحيد الذى يحيا » وجدَّ فى حياته وانهمك فى فنه . كان اذا انتهى من مرانه بالنهار أحيا الحفلات وأعطى الدروس الخاصة فى المساء . وراحته الذهنية فى تأليف القطع الموسيقية . واخترع قطعة ظفرت بشهرة عالمية وهو لما يزل فى التاسعة عشرة من عمره . ونجحت نجاحا باهرا ، ولكنها لم تكسبه الغرور . فكان دائما يعمل ويتمرن وينقد نفسه لكى يبلغ قمة الكمال . ووجه انطونيناالمشرق يشع على حياته النور فى كل حين .

ثم حلت به المأساة بعد ذلك . فقد أتى أنطونينا المخاض ، وولدت له طفلا هزيلا ، وماتت بعد الميلاد . وقد أصرت وهى على فراش الموت على أن يأخذ پادروسكى من والديها ما يقدمانه له من مال للطفل الوليد حتى يواصل دراسته بغير انقطاع « ويقينى أنك سوف ترد هذا المال ذات يوم أضعافا مضاعفة . »

ترمل پادروسكى إذن وهو فى سن العشرين ، فولى ماضيه ظهره وجابه المستقبل المريب بشجاعة نادرة . وثابر على الدرس عاما فى برلين ، واشتغل مع فرقة روبنشتين الذى مد له يد التشجيع .

ومن برلين يمم شطر منطقة جبال تترا ، ومن هناك إلى فينا — قبلة الموسيقيين . وكان يتحرق شوقا إلى أن يتتلمذ على ليشتسكى الموسيقى البارع ، ولـكنه تردد قليلا وضاعت منه هذه الفرصة النادرة.

وفى منطقة الجبال الجميلة ألف المجموعة التى تعرف باسم «تترا البوم» وهى مجموعة من الأغانى الشعبية . وهنا التقى بموجسكا الشهيرة ومدام جورسكا ذات العين الناعسة . وقد وصفته موجسكا بأنه كالملاك ، يسحر السامعين لأنه مسحور . واستمد من صداقته بهذه السيدة العظيمة الوحى والإلهام . كما استمد منها المشورة العملية . وأشارت عليه بمواصلة الدرس وعاونته فى جمع المال اللازم لذلك .

وأخيراً استطاع أن يدرس على لشتسكى أستاذ أساتذة الموسيقى ، وأقبل بادروسكى على الدرس بشغف شديد . وفوجىء ذات يوم بتعيينه أستاذاً فى معهد الموسيقى بستراسبرج . ولـكنه مابرح ينظر إلى نفسه كطالب فن . وقضى عاماً يعلم فيه الموسيقى فى هذا المعهد على مضض ، عاد فى نهايته إلى أستاذه ، يبذل جهد الجبابرة فى التعلم .

واستطاع لشتسكى فى النهاية أن يقدم للجمهور ثمرة جهده فى كثير من الزهو والافتخار . ذلك هو اجنيس جان بادروسكى وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، معجزة الفن الرفيع ، الذى

هز عالم الموسيقى هزاً عنيفاً . أدخل البهجة على قلوب سامعيه فرفعوه إلى مقام التقديس ، وذاع اسمه فى الآفاق .

وارتاب پادروسكى فى أمر نفسه : هل هى محض الصدفة التى أكسبته هذه الشهرة الواسعة ، أم هل هى عبقرية حقة ؟ وأحس فى دخيلة نفسه أن لديه بصيصاً من النور عليه أن يتعهده حتى يتوهج ضياؤه ولا يخبو ، فضاعف جهده واجتهاده .

ورحل بعد ذلك إلى باريس ، حيث لمع اسمه فى أفق الموسيقيين العظام . ولكن لندن لم تقدر فنه حتى الآن ، فنظم لها أربع حفلات ، كان عدد الحاضرين فى أولاها محدوداً ، واستقباله فيها غاية فى الفتور . وقال عنه أحد النقاد الإنجليز : « إنى ظننت أن البيانو سيتحطم من عزفه » . وقال آخر : « قد يكون جهده جبارا ، ولكنه لم يُسمعنا موسيقى » . ولم يهلل له غير جورج برنارد شو .

غير أن پادروسكى لم يقنط ولم ييأس . واستمر فى حفلاته كأن عليه للجمهور الإنجليزى مسئولية فنية كبرى . وأقبل الجمهور على الحفلة الرابعة فى زحام شديد ، ولكن النقاد لم يرضوا عنه بعد .

وتلقى پادروسكى هذا الجمود فى إحساس البريطانيين بنفس

مطمئنة . وبرغم معارضة مديره له أصر قبل أن يطوف الأقاليم على أن يسبقه إعلان برأى النقاد الإنجليز فيه . وكان فى إصراره هـذا سيكولوجيا ماهرا عالما بالنفوس . فقد تلقته الأقاليم بحماسة فائقة .

ثم عاد إلى لندن معززا مكرماً من الجمهور الإنجليزى بأسره . واستقبلته الملكة ، وحفل به علية القوم . وتسابق إليه المعجبون به يطلبون إليه توقيعه بخط يده فى مذكراتهم كى يحتفظوا لأنفسهم بأثر من آثار تلك اليد السحرية . وخرج من انجلترا عارفا لعبقريته دون أن يفسده الغرور .

واستدعته أمريكا . وكان استقباله فيها حارا لم يعرف له من قبل نظيراً . وضاقت صالة كرنيجى عن الجموع التى اقتتل أفرادها ليظفروا بالمقاعد . وقد نشأت عند الجمهور الأمريكى من ذلك الحين عادة لم يتخلوا عنها كلما عاد إليهم پادروسكى فى الأربعين سنة التى تلت هذا التاريخ . وذلك أنهم يندفعون فى نهاية الحفل إلى المسرح ويأبون الانصراف حتى يشنف آذانهم بدور آخر أو ببضعة أدوار .

وبرغم ذلك كان پادروسكى يمقت الجماهير . وهو من أولئك العباقرة القلائل الذين يحبون أن يخلوا إلى أنفسهم . وأحب مكان إليه كان يعتزل فيه الناس أثناء مقامه فى نيويورك هو المكان

المعروف « بالقفر » فى « حديقة پروسپكت » وفى هذا القفر كان « لا يحب إلا الطرق التى لم يطرقها أحد من قبل ، يناطح برأسه النجوم . »

كان يمقت تملق الجماهير له التى لا تنم عن قلب مخلص ، ولكنه يحب تقدير تلك القلة التى كانت تهتز طربا لعزفه بإيمان وبغير مواربة . حتى إن كانت ثقافتها الموسيقية ناقصة . فإن معرفة قواعد النغم العلمية لا تؤدى حتما إلى حساسية الأذن . واستأجر مديره قطاراً خاصا لرحلاته الطويلة خلال الولايات المتحدة . وكان يتمرن يوميا فى العربة التى خصصت له ، يتجمع حوله فيها رجال السكة الحديدية منصتين له . وقد صاح أحدهم مرة عجباً وطربا وقال : « يا لله . إن هذا الرجل يعزف كعزف الملائكة فى السماء ! »

وكان يصحب طاهيه الخاص معه ، لأنه كان يتأنق فى طعامه ويعنى به عناية خاصة . ويجد طاهيه فى إرضائه من المشقة واللذة ما تجد الأم فى إطعام طفلها . ويأكل پادروسكى القليل مما يقدم له ، ثم يتصدق بالكثير .

(٣)

كان پادروسكى نابغة ذا شخصية متعددة الوجوه . يشيع جوا

من الطمأنينة والرضا حيثما حل . وكثيراً ما أدى به عطفه الشديد إلى مواقف عجيبة . مر مصادفة ذات يوم وهو فى أثناء طوافه بالولايات المتحدة بامرأة بولندية وحيدة منعزلة فى زاوية الطريق ، فعطف عليها وتولى علاجها بأحد المستشفيات على نفقته الخاصة ، وكان يتردد على زيارتها كل يوم .

وكان يتوقع من الناس أن يعطفوا عليه بمثل عطفه عليهم . أغراه ذات يوم أثناء طوافه بغربى الولايات المتحدة اثنان من المعجبين به المتحمسين له كى يحيى حفلة فى بلدتهم الصغيرة ، وتعهدوا على أنفسهم بأن يدفعوا له نظير ذلك ألفى دولار . فلما انتهت الحفلة وجد الشابان أن دخلهما لم يبلغ ما تعهدا به من أجر لپادروسكى . فعرضا عليه الأمر وهما على وجل شديد .

فتجهم لهما أول الأمر . ثم افتر ثغره عن ابتسامة ، وذكّرهما بعهدهما ، واقترح أن يسدا أولاً كل ما تكلفا من نفقات فى إحياء الحفل . ثم يقتطعا لهما نسبة خاصة بعد ذلك نظير جهدهما ، وله ما تبقى بعد ذلك . وهذه العدالة الممزوجة بالرحمة لم تكسب پادروسكى صديقين فحسب ، ولكنها أكسبت پولندا كذلك صديقا عظيما ، لأن أحد هذين الشابين كان هربرت هوفر الذى

قدم بعد ذلك بعدة سنين (١٩١٧ — ١٩١٨) أكبر العون للملايين الجائعة فى وطن پادروسكى .

(٤)

وتابع رحلاته ، واستأنف حفلاته ، وظفر بنصر بعد نصر . ولكن سحابة سوداء كانت تخيم فوق ذلك كله ، فقد وقع ابنه فريسة للمرض وسهرت البارونة دوروزن — مدام جورسكا — على تمريض هذا الفتى الذى فقد عطف الأم من سنوات . وكانت مدام جورسكا قد تزوجت من پادروسكى فى عام ١٨٩٩ وأحبت الرجل وعطفت على ابنه عطفا شديدا . وكان هذا الفتى حاضر النكتة سريع البديهة متهكما ساخرا من زلات زملائه ، يحبونه لسخريته ويتكأكأون حوله لسماع نكاته .

ولكن أباه كان يعلم أن أيامه فى هذه الدنيا أصبحت معدودة . وقد سمع عن طبيب مختص فى أوجز برج ، فبعث بابنه إلى هذا البلد لعله واجد عند ذلك الطبيب شفاء . وفى الطريق إلى أوجز برج أصيب الفتى ببرد شديد وتوفى على الأثر وهو فى التاسعة عشرة من عمره . وقد تركت وفاته بعد وفاة أمه فراغاً فى قلب پادروسكى لا يملأ ، فحدث نفسه قائلا : « فر من هذه الحياة يا چان ، واترك

الدنيا بضجيجها وعجيجها واسبح فترة من الزمن فى موسيقاك وفى أفكارك ، وانس كل شىء غير ذلك . »

واستأجر لنفسه بيتا صغيرا مستقلا فى مورجس فى منطقة البحيرات بسويسرا . وكانت تحيط به الآثار التاريخية من كل جانب ، وعنى بأزهاره ، وأخذ يفكر فى سر الحياة والموت . نظر إلى الأرض فرأى البذور تغوص فى التراب ، وتختفى زمنا ، ثم تتلاشى ، ثم تستحيل إلى آية من آيات الجمال تستنشق الهواء وتملأ الدنيا عبيراً . أليس فى هذا رمز الوجود ؟ وكأن الله يقول للناس : « هنا فى حياة هذا الزهر أعلمكم قصة الإنسان » . ليس الموت إلا عودة الميلاد إلى حياة أجل شأنا ، وهو الازدهار العبق لبذور الحياة .

وكأن پادروسكى باختياره سويسرا — موطن الحرية الأبدى — مستقرا له ومقاما يشير باتجاهه الجديد فى الحياة . فبعد مقامه فى هذا البلد عامين وجه أول خطاب هام له إلى الشعب البولندى . دعاهم إلى العصيان فى كلمات مستورة ، لأن البولنديين لم يكونوا فى ذلك الحين يستطيعون أن يعبروا صراحة عما فى نفوسهم . وكان القائمون بالأمر يحرمون أشد التحريم كل تعبير عن معانى الوطنية حتى عن طريق الشعر أو القصص . ولكن پادروسكى استطاع

بلباقته أن يبلّغ الجمهور رسالته الوطنية ، وجعلهم يدركون مراميه عن طريق التلميح . و بلغ صوته كل الأسماع حتى فى أقاصى الريف . وانزعج البوليس الروسى لهذه الحركة فحرموا نشر خطابه ، ولكن أمر الحظر صدر بعد ما انتشرت ألوف النسح خلسة فى كل أنحاء البلاد . وهلل الشعب البولندى لپادروسكى نبيا جديداً من أنبياء الوطنية .

كان پادروسكى رسولا فى عالم الموسيقى وعالم الوطنية . يتقن كل الإتقان اللغتين اللتين تعبران عما يجيش فى القلب البشرى من آمال وأمان — وهما لغة الغناء ولغة الحرية ، وكرس حياته ليجعل من پولندا أمة ترتل الأناشيد ، وتتحرر من ذل العبودية ، بل ليجعل العالم كله كذلك إن استطاع .

وطاف البلاد ، وألقى المحاضرات ، وألف الألحان ، حتى داهمه التعب وأدركته العلة . وكثيراً ما اضطر إلى التحلل من ارتباطاته من أجل هذا . وذكر تلك العبارة الخالدة التى يخاطب بها قائلها ابن الفناء فكانت له عزاء « أيها الإنسان ، إنك صغير الشأن ، فلا تمش على الأرض مرحا . فإنك — بكل ما تزعم لنفسك من مجد وعظمة — لا تملك سوى آلة من الطين تؤدى بها الرسالة التى يوحى إليك بها روح من النار . »

وأخذ پادروسكى يوجه النار المتأججة فى نفسه إلى كفاح بلاده أكثر مما يوجهها إلى ألحان الغناء . ويناشد قومه « أن تقوى قلوبهم لاحتمال المشقة . . . . فإن أمة لها مثل ما لكم من روح خالد وثاب لا يمكن أن تبيد أو تموت . »

(٥)

وفى عام ١٩١٤ شبت الحرب العالمية الأولى ، وذات يوم كان القوم فى پولندا يحتفلون بپادروسكى . وإذ هم يسمرون أسر له سكرتيره كلمة فى أذنه ، أعلنها پادروسكى للحافلين فى صوت هادئ رزين : « إن ألمانيا قد أعلنت استعدادها للحرب » وأدرك الحاضرون جميعاً خطورة هذا الإعلان ، فانفض سامرهم على عجل وهم صامتون واجمون .

وفى مساء اليوم التالى أعلنت الحرب رسميا ، ولأول مرة يكف پادروسكى عن عزف البيانو ويتدبر أمر پولندا . هل تعبئ نفسها فى هذا الظرف ؟ وأنّى لها — وهى محاطة بالمحار بين من كل جانب — أن تدفع عن نفسها .

وتتابعت الحوادث الأليمة فى الأسابيع التالية . وخُرق الحياد البلجيكى والپولندى . وشهر الإنجليز والفرنسيون السلاح .

وأعلنت روسيا إعادة توحيد بولندا — وهى حركة دبلوماسية قُصد بها تجنيد القوى البولندية المحاربة . ويشهد پادروسكى الآن وطنه ممزقاً متفرقاً ، يحارب فيه البولندى تحت الألوية النمساوية والألمانية والروسية ، فيتحدث فى ألم شديد عن هذه الوحشية «التى تجتاح كل ظاهرة من ظواهر المدنية . »

ولم يعد يشنف الآذان فى القارة الأوربية سوى دوى المدافع مصحوباً بالخراب والدمار . وحول پادروسكى بيته الصغير إلى مركز للترفيه عن البولنديين اللاجئين إليه . وسهر بنفسه على راحتهم لا يكاد يغمض له جفن ، تعاونه فى ذلك مدام پادروسكى وأخته أنطونينا . وتدفق إلى سويسرا اللاجئون من المدنيين والعسكريين . واستخدم پادروسكى الآن أنامله السحرية فى تضميد الجراح لا فى عزف الألحان . وكان فى مس يديه الشفاء كأنه ملاك الرحمة .

وتوسع فى عمله إلى حد أبعد مما تستطيع موارده المالية ، فترك بيته فى مورجس فى رعاية أخته ، والتمس العون عند الفرنسيين والإنجليز ، وحاول أن يكسب عطفهم لقضية اللاجئين ، وقضية الحرية البولندية بوجه عام . وكان لا يثق فى حماية روسيا القيصرية لبولندا .

ثم رحل من إنجلترا إلى أمريكا ، وقد سبقتـه إليها مدام سمبرتش وآخرون من البولنـديين المخلصين لبلادهم ، يدعون لحريتها . وخر پادروسكى إلى ذقنه مشغولا بتوحيد البولنديين ، وبذل جهد الجبابرة فى أمريكا وغيرها من البلدان الأجنبية . وسعى لـكسب الحلفاء إلى جانب پولندا . وسرعان ما قوبلت خطبه بالحماسة عينها التى قوبلت بها حفلاته الموسيقية من قبل .

وفى عام ١٩١٧ اندلع لهيب الثورة الروسية وأعلن « تحرير پولندا » اسما . ولـكن پادروسكى لم يخدع بذلك ، لأن روسيا أبرمت الصلح مع قيصر فى ألمانيا ، وباتت روسيا و پولندا كلاهما طوعا لألمـانيا بين بنانها .

وكان پادروسكى بمثابة سفير غير رسمى لپولنـدا فى الولايات المتحدة ، يعبر عن آمال الشعب البولندى وآلامه . وألف أهالى نيويورك مرأى هذا الرجل ، الفارع الطول ، يجذبهم إليه بعذب اللفظ وقوة الإيمان ، والتف حوله بنو وطنـه يشيع بينهم بحديثه وحركاته حسن الانسجام ، كأنه رئيس فرقة موسيقية وهم أفرادها.

وكان يرمى إلى أن يبلغ صـوته أذنى ودرو ولسن ، فبلغ ما تمنى عن طريق الـكولونيل هاوس وهو صورة ولسن كما كانوا

يلقبونه . وأوشكت أحلام پادروسكى أن تتحقق بعد ما التقى « بالرجل الوحيد الذى تحتاجه أمته ، وأوشكت يد الحرية أن تمتد إلى شعب يناضل من أجل الحرية . »

(٦)

ومنى پادروسكى بفشل جديد عند ما أراد أن يستدين لپولندا مليون دولار ، فأجيب برفض صريح « لأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تدين لجنة تتألف من أفراد » . ولكنه كان يؤمن أن الولايات المتحدة تستطيع أن تفعل كل شىء .

وأخيراً أثمر جهاده . وفى اليوم السادس من شهر نوفمبر — يوم عيد ميلاده — أعلن استقلال پولندا عن ألمانيا . وأضحت أمته بذلك دولة من دول العالم . ولم يفقد الأمل فى أن تتبنى أمريكا القضية اليولندية ، لأن الكولونيل هاوس أكد له أن ولسن يعطف على آمال الشعب البولندى ، وطمأنه بأن الطلقة الأولى سوف تنطلق عما قريب .

وأعلن اليولنديون المقيمون فى أمريكا مجمعين أن پادروسكى هو سفيرهم المفوض . واعترف بذلك ولسن وصرح بتأييده للقضية اليولندية .

وكان هذا نصرا عظيما لپادروسكى ، انتشى له من فرط

السرور . واعتزل السياسة حينا احتفالا بهذا النصر العظيم . وشرع يطوف الولايات المتحدة يحيي فيها الحفلات الموسيقية الكبرى . و إذ هو فى تطوافه غربى الولايات سمع صدى الطلقة الأولى التى وعده بإطلاقها وودرو ولسن . خطب ولسن فى مجلس الشيوخ قائلا : «إن رجال السياسة فى العالم طرا مجمعون على ضرورة توحيد پولندا واستقلالها استقلالا تاماً » . وأعلن اتحاد البولنديين الأحرار تأليف جيش يقاتل جنباً إلى جنب مع جيش الولايات المتحدة .

وأبرق پادروسكى إلى مديره قائلا : « ألغيت رحلتى . فإن وقتى كله ملك لپولندا » وفى حفل سابق أعلن أنه لن يعزف مرة أخرى حتى تتحرر پولندا . واستمر فى تأليف الألحان بين الحين والحين . ولكن البيانو ظل صامتاً ، لم يسمع له صوت إلا فى مناسبة واحدة ، وذلك على ظهر سفينة (الكنكورد) التى يممت شطر دانزج . فقد ظل يعزف بضع ساعات على بيانو بال محطم ينقصه الكثير من المفاتيح . ولكن ركاب السفينة لم يعبأوا بالآلة ما دام العازف هو پادروسكى ذلك الأستاذ العظيم .

و بلغ دانزج يوم عيد الميلاد . وقو بل من الشعب بالتكريم والترحيب ، ومن الحكومة بالإنذار والوعيد ، لأنه كان هنا بعيدا

عن حماية الحلفاء . وكان الخطر كامناً أمامه فى منطقة الاحتلال الألمانى . تظاهر الشعب ، ورنا الألمان بأبصارهم صوب هذا الرجل الذى أمسى زعيم پولندا وأرادوا أن يقضوا على حياته ليتخلصوا منه . ولكن جمهرة من الشباب اليولندى انقضت على الجند القائم على حراسة الفندق الذى كان يقيم فيه پادروسكى واستولت على ما لديه من أسلحة واحتلت الفندق . ودامت المعركة ثلاثة أيام ، وانتهت بموت رجال عديدين من الفريقين ، وخرج منها البطل القومى سليما لم يصبه أذى .

أصبحت پولندا دولة ، ولها حلفاء مسلحون . ولكنها كانت فى الداخل أتوناً من الميول المتباينة . ولم يكن فى پولندا بأسرها من يدرك موقف البلاد ، وما يتطلب من جهاد مثلما أدرك پادروسكى . وأخذ على عاتقه أن يوفق بين الأحزاب المتنافرة ، وأن يوحد البلاد المتفرقة . وأقدم على أداء واجبه غير هياب ولا وجل ، وقد ألف منذ حداثته أن يخلق الانسجام بين ألحان الأوتار المختلفة . وقال عنه أحد عارفيه « إن ثقته فى نفسه لا تحد . . . إنه لا يشك لحظة فى انتصاره فى أية معركة يخوض غمارها . »

وقد ظفر فى هذه المعركة الراهنة . كان محافظا ، واستطاع

أن يضم إليه بلسودسكى وأتباعه الراديكاليين . وألف من الحزبين حكومة مؤتلفة . واجتمع مجلس الوزراء الجديد فى عام ١٩١٩ ، وتولى رياسته كما تولى وزارة الخارجية .

(٧)

كان پادروسكى رئيساً مقداماً ذا مثل عليا وآمال واسعة . تظاهر ذات يوم جمهور من الرعاع ضد حكومته ، فخرج إلى لقائهم غير آبه بما نصحه به زملاؤه من الابتعاد عن الجماهير الثائرة المتظاهرة . وما إن وقعت أعين المتظاهرين على هذا الرجل الفارع السن وعلى شعره الأشيب حتى سكن ثائرهم . وتحدث إليهم بكلمات ساذجة تنم عن الصدق والإخلاص فنادوا بحياته ، وانقلبت جموعهم من الثورة عليه إلى موكب النصر له .

ولكن وقت پادروسكى لم يتسع لمثل هذه التحيات والمواكب ، وكان أمامه واجب شاق لا بد من أدائه . وإن تكن أمريكا قد اعترفت بحكومته ، فقد كانت هناك حكومات أخرى لا بد من الظفر باعترافها .

ووجه بصره صوب باريس ومجلس العشرة أولا . وكان أبرز صفاته فى هذه الآونة الإيثار والطموح . ولم يكن بطل بولندا

وحدها ، بل البطل العالمى الذى يناضل فى سبيل كل جماعة مضطهدة منهارة فى أى صقع من أصقاع الأرض .

وناهز الستين ، فأبطأ فى مسيره شيئاً ما ، واحدودب ظهره قليلا ، وبقيت عيناه متقدتين ونشاطه الذهنى مشتعلا . وعقد أواصر المودة مع لويد جورج برغم مجافاة هـذا الرجل الإنجليزى لمشاعر البولنديين القومية . ونظراً لما بين الرجلين من تشابه كثيراً ما خلط الناس بينهما وهما فى باريس . واستطاع پادروسكى أخيراً أن يظفر بصداقة الإنجليز . فعاد إلى وطنه يعمل بهمة لا تعرف كللا ولا مللا حتى أصيب بذات القلب . واتهمه خصومه بمعاداته للجنس السامى . وأذاعوا عنه ذلك فى أنحاء العالم طرا ، حتى أصغت أمريكا نفسها لهذا الاتهام ، وكان دائماً يعتبر أمريكا وطنه الثانى . فدعا پادروسكى مرجنتو وغيره للتحقيق فى الأمر ، وفتح لهم داره وقلبه . وبُرِئَ من كل ما لصق به من تهم ، ولـكن الجرح لم يندمل تماماً .

وواصل پادروسكى النضال ، فقد ظهر نشاط بلسودسكى على مسرح السياسة من جديد ، وثارت ثورة تابعيه . ولما كان پادروسكى يحب لأمته السلامة قبل كل شىء فقد آثر أن يستقيل . وأعقبت ذلك فترة سادها الشغب ، والاضراب ، والثورة ، والمجاعة .

وقد أحجم بلسودسكى عن تولى الحكم ، ولم يستطع پادروسكى أن يقف مكتوف اليدين فألف وزارة جديدة . وحضر اجتماعها الأول بقلب حزين وصدر مفعم بالآمال . ولم يحزن لأنه لم يكن رئيس الوزارة الجديدة ، ولكن لأن بولندا لم تقدر ساعة تحريرها أن تؤلف بين قواها جميعاً فى التئام وانسجام . ولم يفقد الأمل فى مستقبل البلاد لأنه كان يحس إحساساً عميقاً أن إرادة الشعب لا بد أن تنتصر فى النهاية — والشعب يريد السلم ويلح فى إرادته .

وبنفس مطمئنة رحل من زامك ودفع أجور موظفى مكتبه من ماله الخاص . وفى يوم قارس البرد من أيام يناير فى العام التالى بعد وصوله إلى وطنه رحل من وارسو مشيعاً بإخلاص شعبه ، واستقر فى مورجس الحبيبة إلى قلبه ، ولبث فيها يرقب فى حزن وألم سير بلسودسكى نحو كيف وتراجعه المشين .

وحضر جمعية الأمم ، وأسمعها صوته ، وظفر بتأييد الحلفاء ، ثم عاد إلى مورجس . وقد بذل كل ما له — وهو الزعيم الذى غمر بلاده بجوده . وأنفق كل نشاطه — وهو العبقرى الذى ملأ كل لحظة من لحظات حياته بالعمل . وعاد إلى بيانه مرة أخرى ونفض عنه غباره ، وأنصت إليه العالم بشغف شديد .

(٨)

واسترد قدرته على العزف موفورة كاملة ، وامتلأ بيته الصغير على ضفاف البحيرة بأنغام الموسيقى . وتكأكأ أصدقاؤه حوله فى سرور وابتهاج منصتين لعزف بيانه وعذب ألحانه .

ولكنه لم يكن مطمئناً كل الاطمئنان لعودته إلى البيانو . ولكن ما إن هل نوفمبر من عام ١٩٢٢ حتى علم الجمهور بعودة پادروسكى إلى الموسيقى ، فتازحموا بالمناكب ليظفروا بالمقاعد فى صالة كارنيجى . وهم يأبون أن ينصرفوا حتى بعد أن تطفأ الأنوار . وعاد هذا الأستاذ العظيم إلى عزفه بكل ما أوتى من قوة ونشاط . وفاضت الموسيقى من بين أنامله بعد ما حبست عن السامعين زمناً . وحيته الجماهير أجمل تحية « ليحى پادروسكى ! إنه أعظم من أى وقت سلف ! »

وظهر على مسرح مدينة منسوتا يعزف قطعة موسيقية من تأليفه ، فصعد إلى جانبه ستة من ضباط الجيش الاحتياطى يحملون الأعلام البولندية والأمريكية ، وهللت له الجماهير إجلالا وإكباراً فى صوت واحد كأنهم رجل واحد ، فأحنى لهم پادروسكى الرأس شكراً ، ولعله فى هذه الآونة ذكر عبارة موجسكا له « إن پولندا بحاجة إليك لا سياسياً فحسب بل موسيقياً كذلك . »

وعزف موسيقاه فى كل مكان ، وعاد إلى أوربا . وحضرت ملكة انجلترا حفلة أقامها فى لندن وزوجها الملك فى فراش المرض .

وجاوز السبعين من عمره ، وازداد شعره شيباً وظهره احديدابا ، وما عتم قلبه فتياً نشيطاً كما كان فى عهد الشباب ، وما برحت عيناه متقدتين بشعلة الذكاء . وفى عام ١٩٣٣ منحته جامعة نيو يورك الدكتوراه الفخرية فى الموسيقى . وأتاه رسول الجامعة ينبئه بالخبر وهو على فراش المرض ، ومع ذلك فلم تفته النكتة حين أجاب الرسول «سيدى ، لقد أتيت رجلا مريضاً لتجعل منه دكتوراً . »

وأبل من مرضه . ولكن الموت الذى أخطأه أصاب الآن ثالثة ثلاثة أعزاء إلى نفسه — وهى مدام پادروسكا . وقد رافقته خمسة وثلاثين عاماً ، وكانت أكبر معين له فى عمله . وبات بعد موتها وحيداً فريداً ، فصفى حسابه فى أمريكا وعاد إلى سويسرا ليتقاعد عن العمل ويريح قلبه المتفطر .

ولكن أنَّى للرجل العبقرى راحة القلب . فقد طلبت إليه إحدى شركات الأفلام البريطانية أن يلعب دوراً هاماً فى إحدى رواياتها السينمائية . فاستجمع لهذه المغامرة الجديدة كل نشاطه وقواه ، وأخيراً نضا عنه ثياب المقابلات ، وارتدى ثياب البيت ، كأنه ينتظر شعلة حياته أن تخبو . ولكن بقيت له كلمة أخيرة يوجهها إلى بنى وطنه ، وهى كلمة نصح وتحذير . وقد أذاعها من

سويسرا وقال فيها : « مواطنىّ ! احذروا تهديد الفاشية . فإنه آخذ فى الزيادة . »

(٩)

وتدفق السم البروسى مرة أخرى فى عروق پولندا ، واضطر پادروسكى أن يرقب من بعيد مأساة إراقة الدم البولندى من أجل ذلك الممر المؤدى إلى البحر الذى يسمونه الممر البولندى . فناشد أمته بكل ما وسع من قوة أن يقاوموا و يصمدوا حتى النهاية .

واضطر أن يهجر أور با كى يفر من أخطبوط النازية الذى زعزع أركان أور با كلها . و بعد جهد ومشقة بلغ لشبونه ، ومنها أبحر إلى أمريكا تصحبه أخته وسكرتيرته . وأمريكا كما ذكرنا وطنه الثانى يهرع إليه عند الملمات . وهى البلد الذى بلغت فيه عبقريته ذروتها . وقد كانت له الآن ملجأ يأوى إليه فراراً من عالم جن جنونه .

وقضى أيامه الأخيرة فى مدينة نيو يورك . وكثيراً ما كان يتردد على صالة كارنيجى يستمع فيها إلى عذب الألحان ، لعلها تصم أذنيه عن دوى المدافع الألمانية فى أور با فلا يسمعها . وكان يلتمس فى الموسيقى عزاء لقلبه المحزون . فالموسيقى دائماً برد وسلام لكل قلب مكلوم .

وفى عام ١٩٤١ لفظ نفسه الأخير فى نيو يورك .

مصطفى كمال أتاتورك

١٨٨١ — ١٩٣٨

(١)

لبث الجنود الأتراك فى غاليبلى أياما وأسابيع مستلقين فى خنادقهم فى حالة رثة يتضورون جوعاً و يستسلمون للموت . وذات مساء وقف اثنان من الجند يتهامسان بعد ما أديا صلاة المغرب . قال أحدهما : أتراه هناك فى جبهة القتال ؟

— هل تقصد « القومندان » ؟ لا ريب فى أنه هناك . فهو دائما فى الخندق الأمامى .

— إنه يرقب الإنجليز بذلك المنظار الذى يقرب كل بعيد .

— إنى لأعجب ماذا يرى !

— ربما يراهم وهم يتناولون وجبة العشاء الفاخرة .

— وهو منظر لا شك يسيل لعابه كما يسيل لعابنا جميعا .

— أجل فهو مثلنا من لحم وعظم .

و إذ هما فى هذا الحديث سمعا طلقة بندقية مرتفعة ، فذعرا وذعر الجند ، و بدت على وجوههم جميعا إمارات الدهشة والوجوم ،



مصطفى كمال

لأن مصطفى كمال لم يبرح مكانه ، و بقى متكئا على جدار الخندق الأمامى معرضا لطلقات العدو .

ونادى مناد : حذار أيها القومندان ، واهبط برأسك فى أسفل الخندق !

فأجاب القومندان بهز رأسه ، وأصر على مراقبة العدو من خلال منظاره .

ثم سمع دوى طلقة أخرى . وانفجرت القنبلة هذه المرة على حافة الجدار . ولكن مصطفى لزم موقفه بغير اضطراب أو وجل .

ثم كانت طلقة ثالثة . واقترب وقع القنابل من مصطفى ، و باتت حياته فى خطر ، فارتفعت الأصوات « نرجوك أيها القومندان أن تحافظ على حياتك ، إن لم يكن من أجلك فمن أجلنا . »

فالتفت مصطفى إلى مصدر الصوت ونادى فى الجند المروعين قائلا : « إنما أنا باق هنا من أجلكم أيها الرجال . وأنتم تعلمون أنى لا أستطيع أن أضرب لكم بنفسى أسوأ الأمثلة . »

ثم أشعل سيجارة ولبث يراقب العدو .

ثم كانت طلقة رابعة ، أعقبها وميض يخطف الأبصار . وآمن الجند أن قومندانهم المحبوب لا بد ملاق حتفه هذه المرة . ولما

انقشعت سحب الدخان بدا لهم مصطفى كمال ثابتا مكانه كما كان ينفخ الدخان من سيجارته فى هدوء وسكون .

قال أحدهم : إنها لمعجزة ! ولا شك أن عناية الله تحرسه !

وقال الآخر : أجل لقد أنقذ الله حياته حتى يستطيع أن يحررنا .

(٢)

ودارت الأيام دورتها وانتقل مسرح حياة الرجل من غاليبولى إلى أنقره ، وتبدل عمله من قائد حربى إلى رئيس الجمهورية التركية . وعين أصدق أصدقائه الكولونيل شوبال عثمان رئيسا للحرس . وأشفق عثمان على صديقه ورئيسه الذى كان أعداؤه يدبرون له المكايد لاغتياله . وقد نظم خصومه أنفسهم واختاروا لهم زعيما . وكان لا بد من عمل حاسم للقضاء على هذه المؤامرة وهى ما تزال فى مهدها .

وعقد عثمان النية على أن يلجأ إلى الدسائس التركية القديمة . فدعا رئيس المؤامرة إلى تناول العشاء معه ، وأعد له مأدبة فاخرة . وبعد ما طعم الرجل وشرب تنبه فجأة فإذا بحبل ينزلق حول رقبته ويشدد عليه الخناق فيلقى حتفه شنقا .

ويبعث عثمان إلى مصطفى كمال بكلمة يبلغه فيها أن الأمر انتهى على ما يرام . وكان يتوقع من الرئيس جزاء حسنا على إخلاصه . غير أن مصطفى بدلا من أن يجزل له العطاء أرسل إليه ثلة من الجند لتلقى عليه القبض .

— لماذا تقبضون عليّ ألأنى بعثت إلى الجحيم وغدا دنيئاً ؟

— كلا . إنما تهمتك أنك قتلت مواطنا تركيا قتلة شنيعة .

— ولكنه كان عدوا لكم !

— إننا فى تركيا الحديثة لا نقتل خصومنا . إنما نحن نقضى على خصومتهم بتحويلهم إلى صفوفنا أصدقاء .

(٣)

كان مصطفى ابنا عظيما لأب عظيم . هو على رضا محصل الضرائب لسلطان تركيا . وكان رجلا موضعا للإعجاب وموضعا للسخرية فى آن واحد من جيرانه فى سالونيكا . وكان موظفو الحكومة فى ذلك الحين يحترمون شعائر الإسلام ولا يتبعون خلقه الكريم . فكانوا جميعا خائنين مرتشين . وصفهم مؤرخ فقال « إن الخلافة التركية أخطبوط فاسد له أربعة آلاف رأس . » لا تستثنى منهم غير على رضا ، فقد كان لا يحترم شعائر الدين

الإسلامى ، لكنه أمين لا يقبل الرشوة . ومن العسير أن نتصور محصل ضرائب يجرى المال بين أنامله دون أن يختلس منه فى جيبه ولو نزرا يسيرا بين الحين والحين . و إن موظفا فى خدمة السلطان لا يرتشى ولا يختلس المال كان ظاهرة جديدة تظهر تحت سماء تركيا .

لم يكن على رضا ظاهرة جديدة فى الحياة التركية فحسب ، ولكنه كان كذلك يتحرق شوقاً إلى عالم جديد — عالم بغير سلاطين تنتفى فيه الرشوة وأعمال القسوة . غير أنه احتفظ بآرائه لنفسه ، لأنه أدرك الخطر فى إفشاء هذه الآراء حتى لأخلص خلصائه . ولم يتحدث بها بين الحين والآخر إلا إلى زوجته ز بيدة ، وكانت امرأة عجوزاً لا تقبل الآراء الجديدة ، و إلى ابنه مصطفى وكان فتى يافعا لا يدرك هذه الآراء .

ولكن مصطفى لا بد أن يدركها ذات يوم ، فقد كانت فى قلب الصبى ثورة منذ حداثته . كان مصطفى يحتفظ بكل تقاليد الأسرة التركية — لا يبكى فى حضرة والديه ، و يلثم يد أبيه كلما دخل البيت ، و يظل واقفا إلى أن يؤذن له بالجلوس ، ولا يفتح فاه بالكلام حتى يفرغ من يكبرونه سنا منه . وذلك لأنه كان يكنّ لوالديه فى قلبه المحبة والتقدير . ولكنه لم يكن كذلك

فى المدرسة . فهو لم يحب معلمه حافظ ولم يكنّ له فى نفسه التقدير . وكان هذا الرجل مغروراً بمركزه غبيا فى تنفيذ سلطته ، يقول لتلاميذه : « ليس لى إلا أن آمركم ، وما عليكم إلا أن تطيعونى »

— ولكن هب أن تلميذا له رأى خاص .

— لا يفترض فى التلميذ أن يكون له رأى .

كان حافظ شديد المراس . وقد تشاجر مصطفى ذات يوم مع زميل له ، وشاهدهما حافظ مصادفة ، فالتفت إلى مصطفى وسأله : لماذا تضرب هذا الصبى ؟

— لأنه أهاننى .

فأجابه حافظ بجذبه بعيدا عن خصمه وانهال عليه ضربا بغير هوادة ، وقال له « هذا ما تستحق . واعلم أن العين بالعين والسن بالسن . »

فرد عليه مصطفى بصوت مرتعد غضبا ، وقال : « كلا ، ليست العين بالعين ، ألا ترى يا سيدى أن الفتى الذى كنت أتشاجر معه من سنى وفى حجمى ، ولست أنت كذلك . »

وتطاير من عينيه الشرر ، وألقى على معلمه نظرة كنظرة الذئب ، ثم انصرف من حجرة الدرس ، ولم يعد إلى تلك المدرسة من ذلك الحين .

وشقت على أمه تربيته ، وقد ترملت بعد أن اختار الله زوجها إلى جواره وهو فى سن الشباب . ماذا عساها فاعلة بهذا الصبى المارق ؟ لقد وعدها أخ لها يشتغل بالزراعة أن يجد له عملا عنده فى مزرعته . فامتدت يد مصطفى إلى الفأس والمحراث ، و بقى على ذلك زمناً لا بأس به . يحب الزراعة و يقدسها . و يأمل أن تكون له ذات يوم مزرعته الخاصة ، فيصبح سيدا لا يلقى أحد عليه أمرا .

كان مصطفى يفلح الأرض و يرعى الغنم . فكان يجد فى الفلاحة عملا يؤديه ، وفى الرعى وقتا يتدبر فيه . وطالما أرسل الفكر فى الآفاق البعيدة وهو مستلق تحت السماء الصافية يرقب النجم و يرعى لخاله الغنم . أحب مصطفى الفلاحة ، ولكنه رأى أن الفلاح إنما يعيش لنفسه ، وفكر فى أن الحياة تكون أكثر إمتاعا لو أنه عاش لغيره — أو مات لغيره . تلك هى حياة الجندى . فكر فيها فعشقها . فأراد أن يلتحق بالكلية الحربية لكى يعمل فى الجيش التركى ضابطا .

واقترح الرأى على أمه فقبلته على مضض . وكان فى الكلية الحربية نموذج الطالب . وأحب الدقة العلمية فى الدراسة التى كان يتلقاها ، و بخاصة فى علوم الرياضة ، فهى علوم منطقية ليست

كتلك العلوم الأدبية التى لا تتفق والمنطق فى شىء التى كان يتلقاها فى مدرسة سالونيكا .

وكان معلمه فى الكلية — برغم حبه الشديد للطاعة والنظام — يختلف كل الاختلاف عن معلمه فى المدرسة القديمة ، فهو لا يضرب من دونه سنا وحجما ، يحب التكافؤ بين اللاعبين ، ويحب العدالة كمصطفى نفسه ، بل إن اسمه نفسه كان كاسم صاحبنا — مصطفى . وتحدث المعلم إلى تلميذه ذات يوم عن التشابه بين اسميهما ، وقال إن هذا التشابه قد يؤدى إلى الخلط بينهما ، واقترح أن يميزه باسم « مصطفى كمال . »

وقد وصفه بالكمال من فرط إعجابه به . وأراد مصطفى « كمال » من ذلك الحين أن يحيا حياة « الكمال » التى تتفق وهذا الاسم الجديد الذى أطلق عليه . وحاول أن يخرط نفسه فى سلك العظماء من الرجال .

(٤)

ما أعجب هذا الشاب الذى تخرج حديثا فى الكلية الحربية . أنيق الهندام ، مرفوع الرأس ، يقظ اللفتات ، أوربى فى مظهره ، لا كأولئك الضباط الأتراك المهملين المترهلين . ليس فيه ما ينم عن أصله التترى غير بروز عظام خديه .

وجه شرقى فى ملامحه وقلب غربى فى قلقه واضطرابه ، ورغبة ملحة فى الهدم و إعادة البناء . وكانت أمه دائما تقول عنه إنه « ولد ثائراً » . وتزوجت بعد أبيه من رجل ثرى من أجله خاصة ، لأنها أرادت أن ترتفع به عن مستواه . غير أن مصطفى أبى أن يرتفع على أكتاف زوج أمه وقال متأبيا « إنى أوثر أن أشق مستقبلى بنفسى وعلى طريقتى الخاصة . »

ولكن هذا المستقبل الذى يريد مصطفى أن يشقه لنفسه كان أخشى ما تخشاه أمه . فقد كانت تخاف أن تنتهى حياته نهاية سيئة وهو ما يزال فى زهرة شبابه . وألف مصطفى جمعية سرية ثورية وأطلق عليها اسم « الوطن » وهى كلمة لا يرتاح إلى سماعها سلطان تركيا . وانضم إلى هذه الجمعية عضواً فيها رجل خائن العهد . لم يلبث أن كشف سرها ، وألقى القبض على مصطفى كمال وأودع السجن .

ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً و بقى مجهولا عدة أشهر . وحاولت أمه عبثاً أن تعلم مصيره من زملاء زوجها السابقين .

— هل مصطفى على قيد الحياة ؟

— من ذا الذى يعلم ؟

— ربما طعنه أحد من الخلف .

— ربما : فإن هذا كثيراً ما يحدث للمساجين السياسيين .

— أو ربما دس السم له أحد .

— وهذا أيضاً محتمل فأنت تعلمين أساليب الباشا .

وأخيراً نمى إلى زبيدة أن ابنها على قيد الحياة ولـكنه مبعد عن القسطنطينية .

(٥)

وأفرج عن مصطفى وارتقى فى الجيش إلى رتبة أعلى . ولـكنه عاد إلى الثورة على نظام الحـكم الفاسد . وفى بيته دبر مؤامرة لقلب الحـكومة القائمة . وعلمت أمه بالمؤامرة ، وكانت تسكن معه فى بيت واحد . وتفطر قلبها بين عاطفتين : الولاء للسلطان ، وحبها لابنها . ونصحت ابنها بقولها : أى بنى ! دع عنك هذه الآراء الجديدة الغريبة . وكن كأبيك خادماً للباشا . »

ولـكن مصطفى أبى أن يخلص للحاكم المستبد . وللخطر فى ميدان القتال عنده خير من الأمن فى قصر يدب بين أرجائه الفساد . ولما اندلع لهيب الثورة فى عام ١٩٠٨ عين مصطفى رئيس أركان حرب « جيش التحرير » .

وحالفهم النجاح أولا ، ولـكنهم باءوا بالفشل فيما بعد .

وأصبح ضباط جيش التحرير أرقاء لجشعهم . يتسابقون إلى وظائف الرئاسة ، و إلى أهون الأعمال ، وأثمن الغنائم . وقد ابتعد مصطفى عن هـذا النضال نزيها حراً كريماً ، فإنه لم يرم إلا إلى هدف واحد ، وذلك هو الحرية عن طريق الحكم الشريف . ولـكنه فشل فى تحقيق هذا الغرض فى ذلك الحين ، لأن القوى التى كانت تناهضه ، سواء من أصدقائه أو خصومه كانت شديدة لا تقاوم . وأدرك أنه لم يزل بحاجة إلى مزيد من المرونة والوقت والتجارب . وعاد إلى دسائسه ولـكن السلطان كان فى كل مرة يكشفها و يتغلب عليها .

ولمح السلطان فى الأفق — خلف انتصاراته — خطراً يتهدده ، فقد أعلنت البلقان الحرب على تركيا ، واستولت على سالونيكا ، وقرعت أبواب القسطنطينية ، فتعالى صياح الأتراك « نريد منقذاً ينجينا » .

— ومن ذا عسى أن يكون المنقذ ؟

— من ذا عسى أن يكون غير مصطفى كمال ؟

ولـكن السلطان تردد فترة فى اختياره . لأنه أدرك الخطر الذى يتهدده من تخويل زعيم الثوار مثل هذا النفوذ الـكبير . غير أن ضغط البلغاريين أخذ يتزايد و يتفاقم ، و باتت تركيا مهددة

بالهزيمة بين لحظة وأخرى . ففكر السلطان فى استدعاء مصطفى كمال لأخذ مشورته . ولم يقصد بالطبع أن يجتمع به بنفسه ، وإنما أراد أن يستشيره عن طريق أحد تابعيه . فأرسل إليه مذكرة قال فيها « عليك أن تزور مكتب وزير الخارجية . »

وأرسل السلطان إلى وزير الخارجية مذكرة أخرى قال فيها « عليك أن تترك كمال فى حجرة الانتظار مدة طويلة يشعر فيها بشىء من الإذلال » . كانوا بحاجة إلى الرجل . ولكن الرجل كان فى أعينهم بحاجة إلى درس قاس ، وعليه أن يعرف مكانته .

ووصل مصطفى كمال إلى مكتب الوزير فى الوقت المحدد ، و بعث ببطاقته إلى الوزير ، فصاح به صائح من بعيد « أن انتظر »

وجلس مصطفى . وتتابع الزائرون واحد فى إثر الآخر ، وكلما قدم منهم قادم سمح له بالدخول فى الحال . ولبث مصطفى صابراً ساعة ، ثم أخرى ، ثم ثالثة . وأرسل بعد ذلك مذكرة أخرى . فصاح به الصائح مرة أخرى « أن انتظر » .

وأقبل المساء ، وأوشك الموظفون على الانصراف . وأخيراً أرسل الوزير فى طلبه ، وكان مصطفى يتحدث إلى الساعى فى غرفة الانتظار فالتفت إلى رسول الوزير وقال له فى لهجة حاسمة « قل لوزيرك انتظر قليلا » .

(٦)

حبطت الثورة ، ولم يكف السلطان عن مظالمه وسخافاته وهزله . وفى عام ١٩١٤ لما أقحم قيصر روسيا نفسه فى الحرب العالمية الأولى مثّل السلطان أكبر مهزلة فى حياته بانضمامه إلى جانب قيصر . وعين مصطفى قائداً للجيش التركى فى القوقاز ليبعد عنه أذاه . غير أن مصطفى ظل يحلم باليوم الذى تتحرر فيه تركيا . وأخذ يذرع جبهة القوقاز متنقلا من حصن إلى حصن يحث جنده على أن يدفعوا عن أنفسهم الظلم فى الداخل كما يدفعون عن أنفسهم الاعتداء من الخارج . يقول لهم فى هذا « لا بد لأمة الترك أن تخرج من هذا المضطرب حرة موحدة لا تتجزأ ... فإن فشلت حكومة السلطان فى أداء هذه الرسالة فلا مناص من أن تخلفها حكومة ثورية » وتمتم الجند بالرضا والقبول . ولقبوه « بالذئب الرمادى » وقالوا إنه لا ينطق عن الهوى . ولكنهم تمتموا كذلك غضباً وفرقاً وقالوا « إنه يريدنا أن نثور فى وجه خليفتنا الباشا ! »

وأمر الخليفة الباشا السلطان محمد السادس بالقبض على كمال ، ولكن الجند أبوا أن يسلموا قائدهم المحبوب . وزحف البريطانيون

فى حملتهم على غاليبلى ، و بفضل مصطفى خرجت انجلترا من هذه المعركة ظافرة . وأعقبت ذلك الهدنة ، ثم كان السلام ، وعاد القائد مرة أخرى إلى تركيا يمد لها يد المعونة . ولكى تملى إنجلترا شروطها على تركيا أرسلت سفينة حربية مدرعة مسلحة إلى سمسون — وهى الميناء التركى الوحيد على البحر الأسود . وكان قائد الجند الأتراك فى سمسون يدعى الكولونيل رفعت . ولم يكن لديه غير عدد محدود من الجند ، ولكن سر قوته كان خفياً .

استدعى القائد الانجليزى رفعت ، فتوجه إليه صاغراً ، وأنصت إليه وهو يحدثه عن سفينته الحربية وما حملت من جند وسلاح . وما إن أتم القائد الانجليزى حديثه حتى أشار له الضابط التركى ليطل من نافذة حجرته . وكاد الشرر يقدح من عينى الرجل الانجليزى إذ رأى الجند الأتراك يسيرون صفاً صفاً وكأنهم جيش عرمرم لا يحصى له عدد ، وكلهم شباب فتىّ ، يرتدون الثياب العسكرى الأنيق ، مدججين بالسلاح .

وابتسم رفعت ووجه إلى القائد الانجليزى هذا السؤال :

« أفما زلت تزمع احتلال سمسون بما لديك من جند مستضعف ؟ »

فأسرها الانجليزى فى نفسه وأقلع فى ذلك المساء من الميناء ذليلا مدحوراً بعد أن كان يتيه زهواً وغروراً .

وسأل القائد التركى سائل فيما بعد « كيف استطعت أن تعرض هذا الجيش الكبير ؟ »

فأجاب : « تلك كانت فكرة مصطفى كمال . لم يكن بالصفوف عدد كبير من الجند . ولكنى أوصيتهم أن يتجمعوا بعد العرض الأول خلف جدار ناء ثم يعودوا بعد ذلك وكأنهم جماعة أخرى . فالرجل الانجليزى لم يشهد فى الواقع سوى عدد يسير من الجند يعاود السير مرة بعد أخرى . »

(٧)

كان الجيش التركى بأسره والأمة التركية بأسرها يؤازر مصطفى كمال ويؤيده . والسلطان يخشى اشتداد حركة العصيان فيلزم قصره فى القسطنطينية شبه سجين . وأضحت تلك المدينة الواقعة على ضفاف البوسفور عاصمة بغير حكومة . وأنشأ مصطفى كمال العاصمة التركية الجديدة فى مدينة أنقرة . وتقوضت فيها الأكواخ لتحل محلها القصور ، وباتت أنقرة من أجمل المدائن فى الشرق . غير أن الغزو اليونانى أوقف هذه الحركة الإنشائية فجأة . واليونان تواقون أبداً إلى مد نفوذهم داخل حدود الأناضول . وقد رأوا الآن فرصة ذهبية فى ذلك الاضطراب السياسى الذى

كان يسود تركيا . فحشدوا مائتى ألف جندى فى أزمير ، ومن هذه المدينة بدأوا غزوهم فى وجه فلول الجيش التركى الممزق . وسحق المدافعون الأتراك سحقاً ، واستدعى اليونان كمال ليفاوضوه فى شروط الصلح ، فأجابهم قائلا « لا مفاوضة . فإما الحرية أو الموت . »

وفى حماسة شديدة بدأ ينشئ جيشاً جديداً ، فحشد جمعاً من رجال حفاة الأقدام فى أسمال بالية يتسلحون بالبنادق العتيقة ، ولـكنهم يحملون فى قلوبهم سلاحاً ماضياً لا يقهر ، وهو سلاح العزيمة القوية .

وعلى سفوح الجبل الأسود تأهب الجيشان لمعركة حامية . وكان الجيش اليونانى يفوق الجيش التركى عدداً وعدة . وقبل أن تنشب المعركة ببضعة أيام سقط مصطفى كمال من ظهر جواده وانكسرت إحدى ضلوعه ، وألزمه أطباؤه الفراش فى أنقره . فكان هذا الحادث نذير سوء للمعركة المرتقبة .

وبدأ اليونان هجومهم ، وتقهقر أمامهم الأتراك قليلا قليلا ، مدافعين ما وسعهم الدفاع . وكانت خسائرهم فادحة . وأضحت إبادتهم إبادة تامة رهينة بمرور الوقت .

وفى هذه الآونة الحرجة هبطت عليهم معجزة من السماء ،

فقد عاد إليهم قائدهم مصطفى ، هزيلا شاحب الوجه يكاد يئن من الألم ، فهللوا وكبروا حمداً لله وشكراً .

ثم تكلم مصطفى ، واستمعوا له منصتين . و إذا بذلك الجسم النحيل ينطق عن صوت قوى يجلجل كالرعد « فى هذا المكان الذى انكسرت فيه ضلعى سأقصم ظهر العدو » . و بهذه العزيمة القوية بعث مصطفى الحماسة فى قلوب جنده فأصبح نصرهم محققاً . ودامت المعركة أربعين يوماً معلقة فى الميزان ، ترجح كفة الأتراك تارة ، وكفة اليونان أخرى . وأخيراً أتى البشير مصطفى يبشره باستيلاء جنده على « شالداغ » ، وهى أمنع نقطة حربية فى الجبل الأسود . و إذن فلقد هزم الأتراك عدوهم .

و بهذا النصر أعاد التاريخ قصة داود ، وقد نال داود العصر الحديث التكريم من أبناء وطنه ، فقد كنوه « بالكمال » ولقبوه « أتاتورك » أو أبا الأتراك .

(٨)

ونفى السلطان من القسطنطينية و بات كمال سيداً على تركيا بأسرها . وتوسل إليه بنو وطنه وألحفوا فى التوسل أن يتولى عليهم السلطنة . غير أن كمال رفض لقب السلطان بإباء وشمم . وقال

« إن عهد السلطنة فى بلادنا قد انتهى ونحن من الآن نعيش فى ظل جمهورية تركية . »

وانتخبوه رئيسا لجمهوريتهم . وكان بطبيعته رجلا مسالما فنضا عنه الزى العسكرى مسروراً ، وتفرغ لإعادة بناء أمته . وأضحت سياسته إزاء بقية العالم تتلخص فى هذه العبارة : عش ومكن غيرك من العيش . وأراد لتركيا أن تصبح أمة عظيمة تسمو على المطامع ، قوية تقاوم كل اعتداء ، وكأنه المسيح فى القرن العشرين .

ولكنه لم يعزف عن الزواج كما فعل المسيح . فقد أولع قلبه بسكرتيرته وشغفها حبا ، ولكن سرعان ما تبين له ما بينه و بينها من تنافر فى المزاج ، فخلص منها وسار وحيدا فى قافلة الحياة .

وعمل وحده على النهوض بتركيا من ظلام العصور الوسطى إلى نور العصر الحديث فألغى لبس الطربوش ، وهو زى الرأس الذى يرمز لاستعباد أمته لتقاليد الماضى العتيقة . وأمر بارتداء اللباس الأوربى ونزع اللباس الشرقى ، ونادى بأعلى صوته قائلا :

« علينا أن نساير المدنية العالمية فى الزى كما نسايرها فى التفكير . »

وطهر البلاد من الدراويش ، وحرر بلاده كما يقول من مروجى الخرافات والأباطيل .

ثم انصرف إلى تحرير المرأة فأخرجها من عقر دارها ومزق

حجابها ولاقى فى سبيل ذلك ما لاقى ، ولكنه صمد للمقاومة ، ونجح فى بث فكرته فى النهاية . وأصبحت تركيا من ذلك الحين بلد الجمال والمرح — والأمل . وسوّى بين النساء والرجال فى الحقوق كما سوّى بين الرجال أمام القانون .

ولم يكن كل ذلك إلا بداية لإصلاحات مصطفى كمال . فقد عدّل القوانين واقتبس كثيرا من قانون سويسرا . وأنشأ السكك الحديدية والمطارات والموانى . وأسس الصداقات بين تركيا وكثير من الدول . وأدخل فى تركيا التاريخ الميلادى ، وجفف المستنقعات ، ومد أنابيب المياه للأراضى الجرداء . وأصلح نظم التعليم ، وأمر باستعمال الأحرف اللاتينية فى الكتابة .

وموجز القول إنه سار بتركيا شوطا بعيداً فى سبيل الحرية ، وعلم شعبه أن تركيا للأتراك ، وأن صداقة الدول الأجنبية خير من سياسة العداوة والجفاء .



مارکونی

جيوجليلمو ماركونى

١٨٧٤ — ١٩٣٧

(١)

جاءت إلى الأم إحدى قريباتها تهنئها بميلاد الطفل ، وما إن وقعت عيناها عليه حتى صاحت « ما أكبر أذنيه ! »

فأجابتها الأم التى كانت تغرم بالموسيقى غراما شديدا « بهاتين الأذنين سوف يستطيع أن يستمع إلى أدق الأصوات التى تتردد فى الهواء . »

وقد شب منذ حداثته جيوجليلمو طفلا مجدّا مفكرا حالما . ورث عن أمه الأرلندية قوة الخيال ، وعن أبيه الإيطالى مهارة اليدين . وبهاتين اليدين الماهرتين استطاع أن ينقل أحلامه من عالم الخيال إلى عالم الواقع .

ولد فى بولونيا فى الخامس والعشرين من شهر ابريل من عام ١٨٧٤ . وقد ورد على لسان أحد الكهنة القدماء « أن هذه المدينة سوف تقدم للعالم هديتين عظيمتين : إحداهما غذاء للجسم والأخرى غذاء للعقل » ولقد صدقت نبؤة هذا الكاهن . ففى

هذه المدينة ظهر القصاب الذى اخترع « السجق » الذى عرف فى أنحاء أوربا باسم بولونيا فيما بعد . وفى هذه المدينة هيأ القدر للناس ذلك العالم الذى اخترع اللاسلكى .

تلقى ماركونى العلم والتربية على أيدى معلمين ومربين خاصين . فلقد كان أبوه مزارعا ثريا أبى أن يعهد بابنه الضعيف إلى المدارس العامة . واندس ماركونى بين أكداس الكتب فى مكتبة أبيه بضيعته فى بنتكيو قريبا من بولونيا والتهم مئات الكتب فى مختلف الفنون . وقد أغرم خاصة بالقراءة عن الآلات البخارية والكهرباء والكيمياء . وكان دائما يحاول أن يضع محصوله العلمى موضع التجربة . « هذا ما ترويه الكتب ، ولكن أنّى لى أن أعرف الحقيقة حتى أقوم بالتجربة بنفسى ؟ » . وفى إحدى الغرف العليا أنشأ معملا صغيرا أطلق عليه اسم « حجرة الساحر » . ومن هذا المعمل الصغير خرج إلى معمل الطبيعة العظيم ، وحاول أن يستخرج النترات من الجو . وانتهت به التجربة إلى الفشل ، غير أنها وجهت التفاته إلى ما فى الجو من كنوز . إن بالجو أصواتا عديدة تموج فوق الأمواج الهوائية ، وكانت له أذنان كبيرتان شديدتا الحساسية يستمع بهما إلى هذه الأصوات . إنها مقاطع من اللفظ متشابكة يمكن أن تسجل

و ينفك بعضها عن بعض وترتب ترتيباً جديداً بحيث تتكون منها عبارات لها معناها . ماذا يا ترى يحدث لـكل هذه الـكلمات التى يتفوه بها الناس و يقذفون بها فى الهواء كما يقذف فى الماء الحصى ؟ هل تفنى هذه الـكلمات إلى الأبد ، أم هل تظل طافية فوق الأرض ، تنتظر آلة ما تنطبع فوقها وتسجلها ؟

كانت تدور هذه الخواطر فى رأسه حينما اطلع على مقال عن تجارب العالم الطبيعى الألمانى هنريك هرتز ، فخفق قلبه طر باً بين جنبيه ، لأنه وجد فى نهاية الأمر حلا للغز الذى شغله حيناً . فالأستاذ هرتز قد اخترع آلة كهر بائية مذبذبة تستطيع أن تقذف الشرر من جانب الغرفة إلى جانبها الآخر دون أن تستطيع العين أن ترى حلقة الاتصال . كيف يا ترى انتقلت هذه الشرارة عبر الحجرة ؟ يبدو أنها قد انتقلت فوق موجة هوائية كما تنتقل قطعة من الخشب طافية فوق موجة من الماء فى البحر . فإن صدق هذا أفلا يصبح من الممكن أن نوجه الصوت من مكان إلى مكان كما يوجه الصبى قطعة من الخشب فوق سطح الماء ؟ و إذا أمكن للشرارة الـكهر بية أو للصوت أن يقفز عبر الحجرة ، أفلا يمكن لنا أن نجعله يقفز عبر الحقل ، أو المدينة ، أو القطر ، أو القارة ، أو حتى عبر المحيط ؟ إن المسافة التى يمكن للصوت أن يقطعها

فوق الهواء تتوقف على قوة الدفعة الكهربية ، كما تتوقف المسافة التى تقطعها قطعة من الخشب فوق الماء على قوة ساعد الصبى الذى يدفعها .

وقد انزعج ماركونى من شدة البساطة فى هذه الفكرة ، وقال بعد ذلك بعدة سنوات « إن منطق الفكرة كان من البداهة ومن الوضوح بحيث يشق علىّ أن أعتقد أن أحداً غيرى لم يفطن إلى تطبيقها عملياً . وأيقنت أن من العلماء من يبزنى فطنة وذكاء . ولا بد أن منهم من سار على هذا النهج من التفكير ووصل إلى شبيه ما وصلت إليه من نتائج . وكانت الفكرة من أول أمرها ماثلة أمام عينىّ ، ولم يتطرق إلى ذهنى أن هذه النظرية قد تبدو لغيرى خيالا لا يدنو من الواقع . »

وتجسد الخيال صورة حية فى عينى ماركونى ، وأخذ الفتى المخترع — فهو لم يعد العشرين من عمره فى ذلك الحين — يحاول أن يجعل من الخيال حقيقة واقعة . وانطلق إلى حيث كان الأساتذة ذوو اللحى البيضاء يخشون المحاولة . وأقام مع أخيه الفنسو جهازاً ساذجاً حاول به أن يتصيد شرارة هرتز الشاردة . وذهبت محاولاته أدراج الرياح . وأخذ يعدّل فى آلاته شيئاً فشيئاً و يعيد تركيبها وتنظيمها ، ولكن دون جدوى « لا بد أن يكون الأساتذة ذوو اللحى البيضاء على حق ! »

وأضناه الجهد وشحب من شدة الأعياء لونه . وتوسل إليه أبوه أن ينصرف عن أحلامه « الجنونية » وأن يهدأ و يستقر و يتخذ له مهنة « عملية » . وحذرته أمه من تهدم أعصابه وانهيار قواه . ورنا إليه ذووه وخلانه بعين الإشفاق وتوقعوا أن يكون مصيره مستشفى المجاذيب .

« غير أنى لم أفقد شجاعتى » وواصل « تجاربه الجنونية التى لا تجدى » دون تراخ أو تردد . وأعلن ذات يوم أن لديه أمراً يفاجئ به أبويه . ودعاهما إلى « حجرته السحرية » العليا ثم ضغط على زر فرن على إثر ذلك جرس فى غرفة الجلوس فى الطابق السفلى .

وسألته أمه كيف تسنى لك ذلك ، ولست أرى أسلاكاً موصلة ؟ »

فأجاب « هذا ما اهتديت إليه . لقد اخترعت الانتقال اللاسلكى للأصوات . »

فعانقته أمه والدمع يترقرق فى عينيها وصاحت « بارك الله فيك يابنى . »

وهز أبوه كتفيه ازدراء وانصرف من غرفته قائلا « تقول إنك اخترعت اللاسلكى ، ولست أرى لذلك شأناً . »

(٢)

كان السنيور ماركونى متشككا فى عمل ولده . غير أنه كان — برغم ذلك — جواداً ينفق على مشروع ابنه عن سعة وبغير حساب . فقدم له خمسة آلاف ليرة يستعين بها على إجراء تجاربه « بتلك الآلة العجيبة التى استحدثها » فأفعم قلب الشاب بالسرور وصرح بأنه « بمثل هذا التشجيع سوف أجلجل العالم بصوتى » .

فابتسم السنيور وقال « إنما أردت بإهدائك هذا المبلغ أن تبتاع لنفسك ما تتستر به من خرق . أما اختراعك فيبدو لى عديم النفع قليل الجدوى . »

فأجاب ماركونى « ربما كان الأمر كما تقول . ولسوف نرى » . وواصل تجاربه بحزم وثبات .

وكان ذلك العهد (١٨٩٢ — ١٨٩٥) عهد الآمال العلمية العظيمة . وأحس أقطاب العلوم الطبيعية أنهم على أبواب ثورة علمية وكشف خطير ، وبخاصة فى ميدان الكهرباء . فقد استطاعوا أن يحولوا الجسم المعتم إلى جسم شفاف . وتمكنوا من اختراق الصخر الجرانيت والحائط الصلب بالشعاع الكهربى . وكتب فى ذلك العالم الإنجليزى الشهير سر وليم كروكس يقول : « لقد

انكشف لنا عالم جديد يدعو إلى الدهشة والإعجاب ... وتبين أنه بالإمكان أن نرسل البرقيات بغير سلك . وإنه لأمر تتحير منه العقول . . . وليس هذا بحلم شاعر أو خيال فيلسوف . . . وقد نسمع فجأة فى أى يوم من الأيام أن هذا الكشف الجديد قد خرج من عالم التصور إلى عالم الحقيقة الواقعة . »

وهذه النبوءة التى تنبأ بها عالم انجليزى تحققت أول ما تحققت فى بلاد الإنجليز . ذلك أن الحكومة الإيطالية أبت أن تشجع ماركونى فى تجاربه ، فرحل المخترع الشاب — وسنه لم تتجاوز الثانية والعشرين — إلى لندن ، تصحبه أمه الحنون . وفى لندن وجد قلوباً تعطف وآذاناً تسمع وجمهوراً يدهش لسحره .

سأله صحافى ذات مرة وقد أشار إلى آلاته : « ماذا أزمعت أن تصنع بهذه الآلات ؟ »

— إنما أزمعت أن أرسل الإشارات فوق الهواء ؟

— حتى إن اكتنف الجو ضباب كثيف ؟

— أجل .

— هل تريد أن تزعم لنا أن إشاراتك تخترق أى شىء وكل جسم ؟

— إن نتائج تجاربى تحملنى على هذا الاعتقاد .

ثم أخذ يدلل على صحة ما زعم . وأرسل رسائله أول الأمر إلى مسافة مائة ياردة . ثم امتدت المسافة إلى ثلاثة أميال ، فثمانية ، فثمانية عشرة . وفى السابع والعشرين من شهر مارس من عام ١٨٩٩ ضغط ماركونى على مفتاح الإرسال فى جهاز لاسلكى أقامه فى ويمرو — وهى قرية على ساحل فرنسا الغربى . وعند دوفر — على الجانب الآخر من القنال — كان أحد معاونيه ينصت إليه . و بعد صمت رهيب دام بضع دقائق عادت الإشارة إلى ماركونى بغير سلك من دوفر إلى ويمرو قائلة له « تسلمت رسالتك صحيحة . »

حينئذ غمره الواقفون إلى جواره بعبارات التهنئة . ولكن الشاب المخترع نحّاهم عنه ولم يلتفت إليهم ، فقد شُغل عن تافه القول بجليل العمل . وكان جوابه : « الآن وقد تغلبنا على القنال ، مهمتنا التالية أن نغزو البحار . »

(٣)

وسجلت الحكومة الإنجليزية لماركونى هذا الاختراع وحفظت له كل حقوقه فيه . وأسس جماعة من رجال الأعمال الإنجليز « شركة الإشارات والتلغراف اللاسلكى » . وبهذا

التشجيع استطاع ماركونى أن يواصل تجاربه ، فأنشأ سلسلة من المحطات على طول الساحل الإنجليزى ، وجهز عدداً من السفن بآلات الإرسال . وبهذه الطريقة مكّن للسفن أن تذيع مواقعها من حين إلى حين ، وأن تطلب المعونة كلما أحست بالحاجة إليها .

وبدأ المتشككون الآن يوقنون بهذا المخترع الجديد . ولم يكن باطلاً ما زعمه لهم ماركونى .

وذات ليلة كثيفة الضباب فى أبريل من عام ١٨٩٩ ظهرت لأول مرة قيمة التلغراف اللاسلكى الحقيقية . ففى الظلام الدامس اصطدمت الباخرة ماثيوز بالباخرة جُدْوِنْ . وانبعثت إشارة فى الجو تنذر بالرعب والجزع ، وحدثت المعجزة ، واستُقبلت الإشارة ، وأرسلت قوارب النجاة إلى السفينة الصارخة ، وأنقذ ملاحوها جميعاً بغير استثناء .

وحتى آنئذ لم يصب ماركونى نجاحا فى نقل الإشارات إلا إلى مسافات قصيرة المدى . ولكنه ما لبث يحلم بإمكان نقل الرسائل اللاسلكية عبر الأطلنطيق . وكم سخر العلماء من هذه الأحلام ، وأخذت فئة قليلة تشجعه وتؤازره ، يعارضها عدد عديد من أساتذة الجامعات . ولئن جاز أن تنتقل الرسائل إلى مسافات محدودة فمن المستحيل — فى نظرهم — أن تنتقل إلى مسافات

بعيدة ، لأن ذلك فى زعمهم «ضد قوانين علم الطبيعة » . فالأرض مستديرة ، وأمواج هرتز تسير مستقيمة فى الهواء ، إما إلى أعلى أو مماسة لانحناء الأرض ، وفى كلتا الحالين لا يمكن أن تصل إلى أمد بعيد . و بناء على ذلك فإن الرسالة اللاسلكية التى تنبعث مثلا من نيو يورك قد تصل إلى مدينة چرسى أو إلى نيوارك على أكثر تقدير . ولكنها — بعد هذه النقطة — تتبدد من فوق الأرض على مماس فى الفضاء اللانهائى .

تلك كانت نظريات العلماء التى لم يتشككوا فيها لحظة . غير أن تجارب ماركونى حطمت هذه النظريات وفندتها تفنيدا . فقد دلت هذه التجارب على خصيصة عجيبة هامة من خصائص أمواج هرتز . وتلك هى أن هذه الأمواج تطفو فوق محيط الجو فى قوس مواز لانحناء سطح الأرض . و بناء على ذلك فقد أصر ماركونى على أن أمواج هرتز تحمل الرسائل فى الجو كما تحمل أمواج البحر السفينة حول الأرض من مشرقها إلى مغربها .

وظل يواصل تجاربه لكى يحول هذا الحلم إلى حقيقة واقعة . وقد استطاع تدريجا أن يطيل مدى الإشارات اللاسلكية إلى خمسة وعشرين ميلا ، فخمسين ، فخمسة وسبعين . ودعته أمريكا لكى يذيع باللاسلكى سباق الزوارق العالمى بين كولمبيا وشامرك .

وقد نجح فى هذه المهمة نجاحا عظيما ، صفق له الناس وهللوا . ولـكن ماركونى لم ينظر إليه إلا كفترة للاستجمام تعينه على التوثب مرة أخرى . وجعل كل همه الآن أن يرسل شاراته عبر الإطلانطيق .

وسأله أحد المراسلين « هل تظن حقا أن هذا فى حدود الإمكان ؟ »

فأجاب : « لست أظن غير ذلك . وكل ما علينا أداؤه أن ننشئ محوِّلا يقوى على دفع الأمواج عبر البحر . »

(٤)

وفى يوم الخميس فى الثانى عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٠١ ترى ماركونى هزيلا ، حزينا ، نافذ البصر ، شاحب اللون ، يجلس إلى مكتبه بعمارة جون كابوت التذكارية — وهى برج ناء متطرف يقوم فوق ساحل نيوفوندلاند البارد المنعزل ، ويمسك بإحدى يديه سماعة التليفون ويلصقها بإحدى أذنيـه ويحدق ببصره خلال النافذة فى الإطلانطيق وهو يزمجر ويزبد . ما أشد الريح وما أقسى برودة هذا اليوم ! هل يستطيع فى هذا الظرف أن يتلقى الرسالة اللاسلـكية التى توشك أن تذاع لأول مرة عبر

المحيط من انجلترا إلى أمريكا ؟ ويرفع بصره عن الأفق لحظة يسيرة ويحدق فى السماء فيلمح فيها حـدأة تدفعها ريح عاتية وتنجذب بعنف وشدة نحو موصل الأمواج الـكهربية اللاسلـكية وتلتصق بأحد الأعمدة فلا تتحرك . وهل يستطيع يا ترى ذلك السلك الرقيق أن يقاوم تلك الزوبعة العاصفة ؟ لقد شهد الحدأة فى تجارب أخرى كثيرة قبل ذلك تتزحزح عن مربطها . ولـكن هـذا لا ينبغى أن يحدث اليوم . فإن قارتين عظيمتين تنتظران اليوم نتيجة التجربة التى يقوم بها ماركونى — ويكاد العالم أجمع أن يسخر من تجارب ماركونى ومن آماله البعيدة .

ولبث ماركونى يترقب ويعجب ، فقد كان على يقين من نجاح التجربة ، ولـكن ...

وكان مقررا أن يبدأ إرسال الإشارات من انجلترا فى تمام الساعة الثالثة بالتوقيت الإنجليزى — أي في منتصف الثانية عشرة بتوقيت نيوفوندلاند .

وانتصفت الثانية عشرة ، ودقت الثانية عشرة ، بل والربع بعد الثانية عشرة . وما عتم ماركوني جالسا في مقعده والسماعة على أذنه . غير أنه لا يسمع سوى صوت الريح يدوّي . هل كان يا تري على خطأ والجمهور المتشكك على صواب ؟

وانقضت عشرون دقيقة بعد الثانية عشرة ، فخمس وعشرون ، فتسع وعشرون . ما أبطأ مرور الدقائق ! وكاد ماركونى أن يوقن بالفشل الذريع . وسوف يضحك منه الجمهور ملء شدقيه ، ويقول عنه : عالم زائف جديد يأتينا بأحلامه الجنونية ، ماذا عسى أن يكون المصير !

ودقت النصف بعد الثانية عشرة ، وتوترت أعصاب ماركونى فجأة . هل تخدعه حواسه ؟ كلا . إنه ليسمع يقينا ثلاث دقات ضعيفة لكنها أكيدة لا يمكن أن يتطرق إليها شك ، وتلك كانت الإشارة التى اتفق عليها مع محطة الإرسال .

وعاد ماركونى إلى الفندق ، لكنه لم يبح لأحد بهذا النبأ العجيب . فلقد أراد أولا أن يتحقق من صحة التجربة فى اليوم التالى ، وفى اليوم الذى يليه . وكان قد اتفق مع مساعده فى انجلترا أن يكرر الإشارة ثلاثة أيام متتالية . وتوجت التجربة بالنجاح فى كل يوم من هذه الأيام .

وتأهب ماركونى الآن لكى يذيع آخر ما وصلت إليه تجاربه بين الجمهور على صفحات الجرائد . وفى الخامس عشر من شهر ديسمبر كتبت نيويورك تيمز بالخط العريض هذه العبارة التاريخية العظيمة « جيوجليلمو ماركونى يعلن للملأ أعجب تقدم علمى فى

العصر الحديث . إنه يقرر أنه تلقى إشارات كهربية عبر المحيط الإطلانطى ... »

وبينما كان العالم يدوّى بالمدح والثناء على هذا المخترع العظيم ، واصل ماركونى عمله وأبحاثه فى جو من الهدوء والسكون .

(٥)

وفى مارس عام ١٩٠٥ استأجز ماركونى من عمله وتزوج من نبيلة أرلندية اسمها بياتريس أوبريان ابنة اللورد انشكوين . وقضيا معا شهراً واحداً فى سعادة وهناء أعقبه تسعة عشر عاما من الشقاق وعدم التوفيق . ذلك أن ماركونى لم يكن رجل البيت . وقد شغله العالم الخارجى عن إنشاء علاقات الزواج الودية السعيدة ، وأنجبا من زواجهما ثلاثة أطفال ، لكنهما اضطرا برغم ذلك إلى حل رباط الزوجية فى عام ١٩٢٤ . وتزوج للمرة الثانية فى عام ١٩٢٧ من إيطالية حسناء ، هى الكونتس ماريا كرستينا بزّى سكالى . وكان فى زواجه الثانى أكثر توفيقا من زواجه الأول . فقد تعلم من تقدم السن أن يقضى بعض وقته فى اللهو والمرح . فاشترى يختا أطلق عليه اسم « ألترا » ، واتخذ من هذا اليخت معملا لتجاربه وقصراً للهو . وقد علّمه التراخى الذى اتصف به أخيرا سكون الأعصاب وهدوء المزاج .

و بقى على ذلك بقية حياته ، يحاول أن يحتفظ بروح الشباب . والعلم — كما يقول — يُبقى على المرء شبابه ما دام حيا .

« ولست أفهم كيف يرضى العالم لنفسه أن يلزم غرفته حتى ينحنى ظهره و يشحب لونه و يبيض شعره . إنى أحب أن أخرج إلى العراء أتفرس الكون وأوجه إليه الأسئلة ، وأسمح لألغازه أن تندس فى عقلى ، وأعجب بجماله العجيب ، ثم أفكر بعد ذلك فى حقائق الأشياء . »

وفقد عينه اليمنى فى أحد حوادث السيارات ، و بقى مع ذلك صلب العود معتدلا لا يلين . وظفر بجائزة نوبل فى علم الطبيعة — وهى أعظم ما يتمناه العالم من جزاء — و بقى مع ذلك صارماً لم يفسده الغرور .

ظل ماركونى حياته يتابع تجاربه فى شجاعة وتواضع . فبلغ باللاسلكى حد الكمال ، وفكر فيما يمكن أن ينجم عن هذا الاختراع — فكر فى الراديو ، الذى يستطيع المرء عن طريقه أن يرسل أحلامه من طرف الأرض فتبلغ أذن المستمع فى الطرف الآخر — بل فى الكوكب الآخر (ومن يدرى فقد يمسى ذلك ممكنا فى يوم من الأيام !)

لبث ماركونى حياته منكباً على تجاربه حتى أدركه الموت على يخته « ألترا » فى اليوم العشرين من شهر يوليه من عام ١٩٣٧ « فاستقل سفينة أخرى يواصل منها كشوفه فى بحار غير هذه البحار . »

سن يات سن

١٨٦٦ — ١٩٢٥

(١)

فى عام ١٨٦٦ ولد بشوى هنج القرية التى تقع بالوادى الأزرق طفل جديد أسماه أبواه سن ون — أو «سليل الحكمة .» ولما شب وترعرع استبدلوا بهذا الاسم سن يات سن أو « سليل الفراغ الأبدى » . وكان من نعم الله الكبرى فى ذلك الحين أن ينعم أطفال الأسر الفقيرة بالفراغ . كان من دعواتهم « اللهم اكتب لطفلنا البقاء حتى يصبح رجلا ذا علم وافر ، وهبه فسحة من الوقت يمرح فيها ويلعب . »

ولم ينعم سن يات سن (سليل الفراغ الأبدى) بالفراغ إلا نادرا فى طفولته . كان يذهب إلى المدرسة فى كل يوم من أيام الأسبوع ، ويقضى أوقات راحته فى عمل شاق متواصل بمزرعة أبيه . ويمني أبوه نفسه « بأنه ربما وجد الفرصة فى شبابه ليعبر المحيط إلى تلك البلاد التى يسمونها أمريكا ، حيث يكوّن لنفسه ثروة هنالك ، ثم يعود إلى قرية الوادى الأزرق ويعيش فى يسر ورخاء .



سن یات سن

ولكن عمة له عجوزاً كانت تسكن مع أبويه حذرته من الأمريكان « فهم قوم على جانب كبير من الغرابة ، يلبسون ثيابا عجيبة ، ولا يرتدون فوق رؤوسهم قبعات كقبعاتنا . يستعملون فى مأكلهم شوكات تختلف عن الأعواد التى نستخدمها . ابتعد من هؤلاء القوم المتوحشين يا سن ون . »

ولما سمع بذلك سن ون شغف بمعرفة هؤلاء القوم « نعم ، إنهم قد يكونون متوحشين . ولكن لا شك أنهم يثيرون حب الاستطلاع » . وكان يسكن فى قرية الوادى الأزرق ثلاثة إخوة عادوا حديثا من بلاد الأمريكان (أو رجال المحيط) كما كانوا يسمونهم فى الصين . وكانوا يشتغلون أثناء مقامهم فى أمريكا بمناجم الذهب ، ولما عادوا منها كانوا أغنى أبناء قريتهم . وقد أعجبهم الفتى سن ون ، فقصوا عليه قصصا عديدة أتوا بها من الجانب الآخر من المحيط . « إن هؤلاء القوم لا يحكمهم مثلنا ملك كملك مانشو . إنما هم الذين يختارون حاكمهم ويسمونه رئيسا . وليست لهذا الرئيس سلطة القبض على واحد من رعيته ما دام أمينا ، ولا يستطيع أن يستولى على أموالهم أو بيوتهم . »

واستقرت هذه الكلمات فى صدر سن ون . وانقضت ذات يوم ثلة من جند مانشو على ضيعة الإخوة الثلاثة واختطفتهم .

فسأل سن ون أباه : « ماذا عسى يا أبتاه قد حدث لهؤلاء الرجال ؟ »

— قطعت رؤوسهم .

— أى جرم ارتكبوا ؟

— لم يرتكبوا جرما .

— فلماذا إذن قام المانشو بذلك ؟

— لسبب يسير ، وهو أن « ابن السماء » ، ملكنا ملك مانشو ، أراد لنفسه ضيعة هؤلاء الإخوة الأثرياء ، ولذا قتلهم ليخلو له الجو لتحقيق ما أراد .

وأصابت هذه الكلمات قلب سن ون فى الصميم . ما أكبر الفارق بين سير الأمور فى هذا البلد وسيرها فى بلاد « رجال المحيط . » وازداد سن ون شغفا بلقاء هؤلاء القوم ، وأن يتعلم وسائلهم فى الحكم ، ولعلهم ليسوا برابرة كما وصفتهم عمته .

(٢)

ولما بلغ سن ون الثالثة عشرة من عمره أتيحت له فرصة لقاء « رجال المحيط » . ومنذ سنين عديدة قبل ذلك أبحر أخوه الأكبر دا كو إلى هنولولو . وهناك أنشأ لنفسه تجارة رابحة .

فبعث إلى أخيه سن ون ليلحق به فى هنولولو و يعاونه فى عمله .

وكانت حياة سن ون فى هنولولو جديدة عليه مثيرة لحواسه . يذهب فى الصباح إلى مدرسة من مدارس المبشرين ، و يشتغل فى المساء كاتبا فى متجر أخيه . وأتيحت له فرصة لقاء « رجال المحيط » العجيبين الذين سمع عنهم من قبل — أولئك الغربيين البيض . إنهم ليسوا قوما متوحشين ، بل إن لديهم لموهبة لا يعرفها بنو وطنه — الحرية فى حدود القانون . وكم ود لو انتقلت هذه الموهبة الغالية لأهل الصين !

كانت حياة مثيرة للحواس ، ولكنها لم تكن سارة فى كل حين . كان أطفال هاواى فى مدرسة المبشرين يسخرون من شعره المضفور . واعتاد كبارهم أن يجذبوه من ضفائره كلما مر بهم . وقد احتمل سخريتهم عدة أيام ، ثم ثارت نفسه وتحداهم للقتال . وظن أشقياء الأطفال أن فى قتاله معهم ملهاة يتلهون بها . ورأوا فيه طفلا هادئا وديعاً ضعيفاً ، يسهل عليهم أن يصرعوه إن صارعهم .

فلما نازلوه تبين لهم أن هذا الفتى البادى الضعف قوى الساعدين مفتول العضل ، فى صدره شعلة من نار الحماسة . فقد أحالته السنوات التى قضاها فى حقول الوادى الأزرق إلى آلة

محاربة . وكلما انتصر على رفاقه فى النضال عرفوا من هو سن ون .

ولكن الأشقياء من الصبيان لم يكتفوا بهذا . أذلتهم الهزيمة فعادوا إلى جذبه من ضفائره ، صغارهم وكبارهم ، فى جبن واستخذاء . وعانى سن ون الألم والإيذاء هذه المرة دون أن يرفع يدا ، حتى مل الصبية سخريتهم السخيفة وتركوه وشأنه .

وقد ساعدت هذه التجربة التى مر بها سن ون على إبراز صفتين بارزتين من صفاته : معارضة القوى بغير وجل ، ورفق وصبر مع الضعفاء . قال عنه أخوه الأكبر دا كو لما شهد هاتين الصفتين : « عند ما يشب أخى الأصغر سوف يكون فيما أعتقد رجلا يحسب له حساب . »

ولم يكد سن ون يبلغ السادسة عشرة عند ما بدأ حياته العملية . وقد استطاع فى ثلاث سنوات قضاها بهنولولو أن يتقن الإنجليزية كل الإتقان ، وأن يبرع فى علوم الرياضة ويدرك أسرار التاريخ . ولما أتم دراسته منح جائزة التفوق فى العلوم ، وحذره ناظر المدرسة من ميوله نحو التمرد والعصيان ، وقال له أخوه : « لقد استغربت (أى أصبحت كرجال الغرب) أكثر مما ينبغى لرجل صينى محتشم يا سن ون . »

فأجابه سن ون قائلا : « إن عيبنا نحن الصينيين أننا بالفعل

فى حدود الاحتشام زمنا طويلا . وتحت ستار الحشمة ألهب المانشو ظهورنا بالسياط عدة قرون . يقولون لنا افعل هذا ، ولا تفعل ذاك ، وإلا فأنت لست رجلا محتشما ، وقد مللت رؤية الصين دائما بلد الرجال المحتشمين . وإنما أحب أن أراها بلد الرجال المتحررين ! »

— هذا كلام خطر وخطير يا أخى . هل تريد أن تغير المجرى الذى شقته القرون الطوال . أنت تحارب تقاليدنا الصينية . والتقاليد ، كما تعلم ، من الأمور المقدسة ؟

— ليس الظلم التقليدى من الأمور المقدسة .

فهز دا كو كتفيه عجباً من خروج أخيه على ما كان يعده الصينيون أكبر الفضائل ، وهو الرضا بقضاء الله وقدره . وقال له : « لقد رشفت كثيراً من كأس القلق التى يشرب منها الجنس الأبيض . وأصبحت شديد التبرم . وخير لك أن تعود إلى هدوء مزرعة أبيك فى شوى هنج . »

فصدع سن ون لنصح أخيه وعاد إلى قريته . ولكنه لم يعد إلى الحياة الهادئة .

(٣)

ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره اشتدت فى نفسه الثورة

فجال بين الجموع يوقظهم من سبات عميق استغرقوا فيه ألف عام ، وحثهم على التحلل من الأصفاد التى كان يكبلهم بها الإمبراطور .

« إن هذا الرجل يسمى نفسه ابن السماء . . . و إنى أقول لكم إنه ابن الجحيم . إنه يأمركم أن تدفعوا له الضرائب وأن تحنوا له الرؤوس . ولكن هلا سألتم أنفسكم أين تذهب الضرائب التى تدفعونها ؟ هل تنفق فى بناء المدارس والقناطر والطرقات للشعب ؟ كلا . إنها تتسرب إلى خزائن الإمبراطور لتزيدها ثراء ، وتشجعه على التمادى فى فسوقه . إنه يدفع منها أجور الجند المرتزقة الذين يخضعونكم . »

وعدّ دعاة التمسك بالتقاليد الصينية القديمة هذا الحديث جحوداً وكفرانا . غير أن سن ون لم يفتر عن دعوته ولم يخش أحدا ، وأخذ على نفسه أن يوقظ الناس من جهلهم . وحاول أن يعزز رأيه بالأمثلة كلما استطاع ذلك . أخرج مرة وهو يخطب عملة نحاسية من جيبه وسأل السامعين :

— من الذى جعل هذه القطعة النحاسية نقدا للتعامل ؟

— حاكم الصين .

— ومن هو حاكم الصين ؟

— ابن السماء

— وهل هو منا ؟

— بالطبع . من ذا الذى يصلح أن يكون (ابن السماء) إن لم يكن منا ؟

فيرفع سن ون العملة ويقول :

— انظروا إلى الكلمات المنقوشة عليها ، هل هى صينية ؟

— كلا

— أى والله ، كلا . إنها مانشو . إنها كلمات أجنبية . إن الصين يحكمها رجل أجنبى .

وكان هذا النبأ جديداً على السامعين . إذ كانت أكثرية العامة من الجهل بحيث لا يعلمون أن إمبراطورهم أجنبى ، غاصب للعرش . وبدأوا يعيرون سن ون أذناً مصغية ، ويومئون الرأس إيماناً بما يقول .

ولكنهم — برغم ذلك — لما يعوا أكثر ما عنى . فقد كانت كلماته أقوى مما تحتمل أسماعهم . لأنه لم يحارب ابن السماء وحده ، بل كان يحارب السماء نفسها . وحاول أن يثير نفوسهم ضد آلهتهم . وكان فى معبد القرية ثلاثة أوثان — أحدها يمثل « ملك النجم الشمالى » والآخر يمثل « ملكة السماء » والثالث « أم الإله » . وإلى هذه الأوثان الثلاثة يأتى سكان شوى هنج

يقدمون الهدايا ويرفعون الدعوات ويقيمون الصلوات ، وإن لم يفعلوا ذلك أصابتهم الأوثان بالسوء . ولم تكن عبادتهم تقوم على التقديس ، وإنما كانت تقوم على الخوف ، وعلى الخرافة التي ورثوها عن قرون طويلة من الجهل ، فكانت تحجب عنهم نور الحقيقة وضياء المستقبل . وقد كرس سن ون نفسه لتحطيم هذه الخرافة « إن هذه التماثيل المطلية ، القائمة فى كل صقع من أصقاع الصين ، لا بد أن تحطم أولاً قبل أن تستطيع الصين أن تصبح أمة متقدمة . »

واعتزم أن يبدأ بتحطيم التماثيل القائمة فى قريته . فجمع ذات يوم جماعة من الشبان حوله ، وتوجهوا جميعاً صوب المعبد ، ثم وقفوا أمام تمثال « ملك النجم الشمالى » . فخر كثير من رفاقه سجداً ثم رفعوا أكفهم بالدعاء . عندئذ أمرهم سن ون أن ينهضوا ؛ وقال لهم : « اسمعوا يا رفاقى إلى ما أقول . إن هذا الإله لا يملك لأحدكم نفعاً ولا ضراً . كلا ، بل هو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً . »

ولم يكد ينتهى من حديثه حتى أمسك بإحدى أصابع تمثال الإله الخشبى وانتزعها وألقاها « انظروا ! إنه لم يفعل شيئاً ليحول دون ما أنزلت به . إنه لم يقتلنى ، بل إنه لم يبعث الفزع فى قلبى . ولست أراه إلا باسماً بسمة تدل على البله ولا تغادر شفتيه . »

وفزع رفاقه لهذا المنظر ، وانتشر نبأ هذا الاعتداء الدينى فى

القرية انتشار النار فى الهشيم . وحذر الآباء أبناءهم من الاقتراب من محطم التماثيل هذا المجنون . وتوسلوا إلى أسرة سن ون أن تبعده من القرية « فإنه إن بقى هنا فسوف يجلب لنا جميعاً سوء المصير . »

ولذا نراه يغادر قرية الوادى الأزرق ذات يوم عند بزوغ الشمس ، وقد نعته الناس « بالابن الآثم لأب فاضل » ودعا له محبوه « أن يعود ذات يوم خاضعاً نادماً ، تشرف به أسرته العريقة ، طائعاً للأساليب الصينية القديمة الحكيمة . »

بيد أن سن ون كانت له فى قلبه مطامع أخرى . كان مصمماً أن يبرهن لأسرته — وللصين أجمعها — على حكمة « الأساليب الحديثة . »

(٤)

فأبحر إلى هنج كنج . وفى هذه الجزيرة استأنف دراسته المقطوعة ، وواصل نشر تعاليمه الثائرة . التحق « بكلية الملكة » وتخرج فيها ، وكان الأول فى فرقته . ثم درس الجراحة فى مدرسة كانتون الطبية . وهى مهنة تتلاءم وعقلية شاب ثائر . لأن جسم الأمة كجسم الإنسان . إن أجريت فيه جراحة استأصلت بها

الأوساط العليلة طهرت جسم الأمة وروحها . أكب سن ون على دراسته ، ولكنه وجد مع ذلك وقتاً كافياً لنشاطه السياسى . وبمعونة أحد زملائه فى الدرس ، وهو شنج سى ليانج ، ألف جمعية من الطلبة تسعى لتحرير الصين . وقد سمى هؤلاء الشبان أنفسهم « المستميتين » ، وكانوا مخلصين لمبادئهم ، مستعدين للتضحية بحياتهم فى كفاحهم ضد المانشو .

وكانت هذه الجماعة فى مبدأ أمرها محدودة العدد ضعيفة الأثر . ولكنها تحت زعامة سن ون — وقد كان فى ذلك الحين جراحاً فى كانتون — ازدادت عدداً وقوة ، حتى استطاعت أخيراً فى عام ١٨٩٥ أن تؤجج ثورة عامة ضد الحكام المانشو فى الصين .

بيد أن هذه الثورة أخفقت ، وأراد المانشو أن يقبضوا على سن ون وأن يقضوا على حياته ، ولكنه استطاع أن يفر إلى هاواى ، ومنها إلى أمريكا — وفى أمريكا أخذ يثير النفوس ، ويدبر الخطط ، ويلقى المحاضرات ، ويجمع الأموال لكى يقوم بمحاولة أخرى لتحرير الصين . ولم يشك لحظة فى ظفره فى نهاية الكفاح . ونذكر هنا ما قاله نابليون « إن الصين لا بد أن تنهض يوماً ما ، وإن نهضت الصين نهض معها العالم بأجمعه . »

لقد أخذ سن ون على عاتقه مهمة خطرة وخطيرة . لأن

القنصليات الصينية فى المدن الأمريكية المختلفة — وهم رسل المانشو — تلقوا من حكومتهم أمراً بمناهضة سن ون . ولـكن سن ون كان دائماً يسبق خصومه فى التفكير . وقد تعود احتمال المشقة ، لا يخشى العذاب والألم « مستميتاً » يكرس حياته لتحقيق آماله وأحلامه .

ولما أتم أداء رسالته بأمريكا رحل إلى انجلترا . وهنا دبر خصومه اختطافه ، وظنوا أنهم بذلك يقضون على نشاطه وعلى « كل محاولة دنيئة لتأسيس جمهورية صينية . »

ولـكن سن ون استطاع مرة أخرى أن يفر من بين أيديهم لأنه كان أوسع منهم حيلة وأحد ذهناً . وقد قال عنه أحد تابعيه « إن سن يات سن أسرع فى حركته من حملة البنادق ، فيستحيل عليهم أن يصيبوه » . ولا يمكن للمخاوف أن تعوق سن ون عن أداء عمله « لأن سن ون لا يفهم ما يعنيه الناس من كلمة (الخوف). »

و بث فى تابعيه شيئاً من شجاعته وشيئاً من سرعة تصرفه . ولما أدرك ضعف جماعته الثائرة إذا قيست إلى قوة المانشو ، اتبع فى كفاحه أسلوب المصارعين الصينيين القدماء « لتكن قوة خصمك سبب هزيمته . ولتجعل من نفسك الرافعة التى تتحطم عليها عظامه . . . لا تقاوم خصمك مقاومة إيجابية . دعه يرتمى

بكل قوته عليك . ثم بحركة سلبية رشيقة دعه يصطدم بتغيير اتزانك فتتهشم عظامه . اجعل قوته بمثابة المطرقة ، وقوتك بمثابة السندان . ودعه يتكسر بين مطرقته وسندانك . »

اتبع سن ون هذا الأسلوب ماديا وخلقيا واجتماعيا وسياسيا ، وتأهب للقاء قوة المانشو به . وأسس مركزا لرئاسة حركته فى اليابان فى عام ١٨٩٩ ، على بعد مرمى الحجر من القنصلية الصينية فى يوكوهاما . وتلك كانت حركة جريئة ما كرة . إذ كان كلما ترك دار الرئاسة عرض نفسه لاعتداء رجال القنصلية الصينية عليه . ولكنهم إن حاولوا ذلك عجلوا بأنفسهم نشوب الثورة الصينية ، لأن سن ون أصبح الآن شخصية محبوبة لدى الجماهير .

وعلى هذا الوضع شرع سن ون يهاجم قوة المانشو ويفل منها ، « ليس للامبراطور حق إلهى فى حكم الشعب . وللشعب حق إلهى فى حكم نفسه . وعلى الشعب كله أن يعصى الامبراطور حتى يموت من انحلال قواه . »

« ليس للامبراطور حق إلهى » . بهذا السلاح الساذج الماضى أخذ سن ون يفند مزاعم المانشو — يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد آخر — حتى بدأت الجماهير تعتنق صحة الرأى ، وبدأ أتباع المانشو يعتنقون صحة الرأي ، بل إن المانشو أنفسهم

بدأوا يعتقدون ذلك وأحسوا كأن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم ، فلما استغاثوا برجال بلاطهم يطلبون النجدة ، ألفوا هؤلاء الرجال مزعزعى النفوس ، ميالين إلى قبول آراء سن يات سن . وعلى حد تعبير المثل الصينى « من تخلى عنه أصدقاؤه تخلت عنه الآلهة . »

وأخذ جيش التحرير التابع لسن يات سن يزداد قوة حتى ألقى الذعر في قلوب المانشيو وأصابهم بالعجز والجمود . وفى كل مكان في المقاهي والأسواق ، وفى الريف والمدن ، تكونت جماعات من الشباب المتحمس مستعدين للسير بقضية البلاد فى طريق النصر ، وانهالت عوامل التدبير من كل صوب على قصر ابن السماء . وحاول سن يات سن مرة بعد أخرى أن يضرب الضربة القاضية ، وفي كل مرة يمنى بإخفاق هو أقرب ما يكون إلى النجاح . وحاول عشر مرات أن يعلن أن الصين أصبحت جمهورية ، ولكنه كلما حاول ذلك تبين له أن المحاولة سابقة لأوانها ، غير أن المانشو أدركوا أن يوم حسابهم قريب .

وأخيراً بزغت شمس ذلك اليوم التاريخى فى سبتمبر من عام ١٩١١ . كان سن يات سن يجوب أمريكا مرتحلا فى ذلك اليوم يجمع المال لنصرة قضيته ، وسمع بائع الصحف فى دنفر بكلورادو ينادى ، فاستدعاه واشترى منه صحيفة قرأ فيها عنوانا كتب بالخط

العريض انتفض له قلبه ، وذلك هو « الثوار يحتلون وشانج » .
لقد تحقق حلمه ، وانهارت قوى المانشو ، واستنشقت الصين عبير
الحرية أخيراً .

(٥)

وفى اليوم الأول من شهر يناير من عام ١٩١٢ نودى بسن
يات سن أول رئيس للجمهورية الصينية . وفى ذلك الحين كانت
سيدة من كرائم سيدات الصين تتلقى العلم فى كلية وزليان بجورجيا ،
واسمها شنجلنج . وهى من أسرة سونج الشهيرة ، وشقيقة ما يلنج
التى أصبحت فيما بعد زوجة شيانج كاى شك . وأوحى نجاح الثورة
الصينية إلى شنجلنج أن تكتب مقالا فى صحيفة مدرستها قالت فيه :
« إن من أهم حوادث هذا القرن تحرير الصين . إن معناه تحرير
أربعمائة مليون نفس من الاستعباد للملكية مطلقة دامت ما ينيف
على أربعة آلاف عام ، وأنكرت على الناس تحت حكمها الحياة
والحرية والسعادة . إن العالم كله كان ينظر بعين الشك
إلى حلمنا بالجمهورية الصينية . ولم يأمل بعضهم حتى أن تتكون
بالصين حكومة دستورية ، ولم يصدقوا أن ذلك الأمر قد بات
واقعا من التاريخ . غير أن كل صينى محب لبلاده — سياسيا

كان أو عاملا — يكنّ فى قلبه كرها دفينا للمانشو » . كما أنه لا يشك لحظة فى النصر النهائى للشعب على حكامه تحت زعامة سن يات سن . ولما نودى بهذا الزعيم رئيسا للجمهورية الصينية احتفلت شنجلنج لهذه المناسبة برفع علم الصين الجديد ذى القضبان الخمسة فوق نافذة غرفة نومها .

ولما أتمت دراستها فى وزليان عام ١٩١٣ كتبت إلى إحدى معلماتها تقول: « عما قريب أعود إلى وطنى ، وسأحمل معى صندوقا من فاكهة كلفورنيا إلى دكتور سن من المعجبين به هنا . وإنى فخورة كذلك بحمل خطاب خاص له » . وحملت له كذلك قلبها . وقد التقت ببطلها ، واشتغلت سكرتيرة له ، ثم زوجة بعد قليل من الزمن ، وكان تزوج من قبل زواجا لم يوفق فيه . ولكن هذا الزواج الثانى كان سعيدا موفقا حتى الممات .

ولئن كان سن ون سعيدا فى زواجه فقد كان شقيا فى نواح أخر من حياته . بعد ما تمت له هزيمة الخصوم خانه الأصدقاء وارتاب فى مقدرته الإدارية ، فتخلى عن رياسة الجمهورية لإيوان شيه كاى ، وهو موظف سابق فى الحكومة الإمبراطورية ، كان حض المانشو على التنازل عن العرش . وكان حضهم على ذلك لا لينشئ فى البلاد الحكم الجمهورى ، ولكن ليحقق لنفسه

مطامعه الخاصة . ولم يكد يظفر برباسة الجمهورية حتى شرع يتخذ لنفسه سلطات دكتاتورية . ولم يدرك سن يات سن أن إيوان شيه كاى كان يهدف إلى أن يجعل من نفسه امبراطوراً على الصين إلا بعد فوات الفرصة . فأخذ على عاتقه أن يقاوم مطامع هذا الرجل ولـكن بعد أن قبض إيوان شيه كاى على زمام الجيش وأعلن أن سن يات سن خارج على النظام ، ووعد بمكافأة مالية كبرى لمن يقبض عليه أو يرشد إليه .

واضطر سن يات سن إلى الفرار مرة أخرى إلى اليابان يستجمع القوى لتحرير الصين . وفى ذلك الحين ، فى عام ١٩١٥ أعلن إيوان شيه كاى نفسه امبراطورا على الصين .

وهكذا أتم سن يات سن دورة غير موفقة فى حياته . من الإخفاق إلى النجاح ، ثم إلى الإخفاق مرة أخرى . وعاجلت المنية إيوان شيه كاى بعد استيلائه على العرش بزمن وجيز . وظهر من بعده عشرات المغامرين يرثون مطامعه واستبداده . وأضحت الصين بعد وفاته مسرحا للحرب الأهلية ، والمنازعات الداخلية .

وفى هذا المعمان المضطرب جاهد سن يات سن ليسترد لأمته الحرية التى جلبها من قبل لها .

وقضى السنوات العشر الأخيرة من حياته فى هذا الجهاد ،

ينتصر مرة وينهزم أخرى . ولكنه لم يفقد الأمل فى يوم من الأيام . وظل مستبشرا متفائلا حتى وهو فى فراش الموت فى عام ١٩٢٥ . لأنه شهد بين صفوف المجاهدين الأحرار شابا عليه مخايل الذكاء ، وضع فيه كل ثقته ، وذلك هو شيانج كاى شك ، ووجه إليه سن يات سن الخطاب وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وقال له « إنى راحل عن هذه الحياة يا صديقى ، ولكنى مخلفك من بعدى تواصل الجهاد . ولا بد أن تظفر الصين بحريتها فى يوم من الأيام ما دمت تكرس لها حياتك وتخلص لها حبك . »

نقولا لنين

١٨٧٠ — ١٩٢٤

(١)

ظلت روسيا عدة أشهر قبل اليوم السابع من شهر نوفمبر من عام ١٩١٧ تترنح من تأثير هزة سياسية خطيرة . وقد عول القيصر على أن يسلك سياسة العنف ، فأخفق وراح ضحية سياسته ، كما أن الروس ملوا القتال ولم يروا له داعياً بعد موت قيصر . غير أن كرنسكى رئيس الجمهورية الروسية الجديدة لم يحاول قط أن يوقف القتال . وأحس الروس أنهم كانوا مخدوعين ، وأن الحرب قد استنفدت قواهم إلى حد الإجهاد دون جدوى . وقل نصيب الفرد من الخبز إلى حد لا يسد الرمق ، بل كثيراً ما كان ينعدم الخبز البتة ويضطر الناس إلى أن يبيتوا على الطوى . وفى بترغراد لبث أكثر الأطفال عدة أسابيع لا يذوقون اللبن . والجند فى جبهة القتال يقاسون البرد والجوع والمرض ، فأرسلوا رسولهم إلى بترغراد يطلب الصلح ، فنادى الرسول فى القوم قائلا : « أيها الزملاء ، إننا فى الخنادق نموت جوعاً ، ونقاسى البرد والألم بغير



لنین

داع . كنا نحسب أن ثورة كرنسكى سوف تأتى لنا بالسلام ، غير أن الحكومة الآن تمنعنا من مجرد ذكر السلام ... »

كان الشعب بأسره — مجندين وغير مجندين — يحلم بالسلام ، وبالخبز للجائع ، والأرض للفقير . فكان صدى هذا الحلم فى الصحف المعارضة الحث على اغتيال كل رجل فى روسيا من « الانقلابيين (الراديكاليين) أو دعاة السلم أو اليهود . »

وأخيراً صمم الجند على أن يمسكوا بزمام الأمر فى أيديهم . وانضم إليهم العمال والفلاحون ، ونادوا جميعاً « كفى ظلماً ، وكفى جوعاً وقتالا ! » واحتشدوا فى جمع ليعلنوا على الملأ مطالبهم . وتصاعد دخان التبغ سحباً فوق الرءوس ، وعلا الصياح حتى كاد يشق عنان السماء ، وبدا الفقر ماثلا للعيان فى الأسمال البالية التى كان يتستر بها الناس . أبدان معروقة ، ووجوه شاحبة ، وأجسام هزيلة من أثر الجوع والمرض ، ونظرات حارة تتقد بغضاً وأملا .

أضف إلى ذلك تلك الكلمات الملتهبة التى كان الثائرون يصيحون بها مصرين على أسلوب للحياة جديد . فهذا تروتسكى يلقى كلماته كالقنابل معلنا « نهاية الرأسمالية المتحكمة » فى أنحاء العالم طراً . وهذا زينوفيف فى صوت يرتعد حماسة وقوة يعلن أن ذلك اليوم هو يوم الحساب للظالمين جميعاً وعلى رأسهم « قيصر

ولهلم الجلاد » . وذاك رجل يمثل الجند يدعو الأمم جميعا إلى إيقاف « هذا القتل الجنونى الذى يسمونه الحرب .. »

و بعد ما تنتهى هذه الخطب التمهيدية ، ينهض المجتمعون جميعا على الأقدام متغنين بنشيد عام يدعو إلى وقف القتال و إلى تأليف حزب واحد عالمى ينتظم الجنس البشرى بأسره .

وأخيراً ينهض أول الخطباء وأشدهم خطراً — نقولا لنين . وهو رجل ر بعة ضئيل الجسم ، أصلع الرأس ، ألوفا ، لا يبعث فى الرائى خوفا ولا رهبة ، يرتدى سترة رثة وسروالا منتفخا يسير فيه مهرولا ، ينهض على قدميه وكأنه ينفث السحر فى سامعيه ، فتراهم وكأنهم جماعة متراصة لعبادة الله . فهذا شيخ هرم ينشج بالبكاء كالطفل الصغير ، وتلك الجموع من الرجال تبكى وتضحك وتصيح وتتعانق فى نشوة من السرور لم تتطرق إلى نفوسهم من قبل . حينئذ يقف لنين على منصة الخطابة ، و يلقى على الحاضرين نظرة شاملة ، و ينتظر سكون العاصفة فى هدوء وسكون .

فتشرئب الأعناق ويسود الصمت ، و ينصت الجميع لنبى العمال والفلاحين وهو يخطبهم . وفى صوت المطمئن يبدأ حديثه قائلا : « سنشرع الآن فى إنشاء نظام اجتماعى جديد . »

فكانت هذه الكلمة هى الهزة الأخيرة للزلزال الذى سوف يقلب نظام المجتمع فيرفع سافله عاليه .

(٢)

قل بين رجال التاريخ من ظفر من الجمهور بمثل المحبة التى ظفر بها لنين . إذا تكلم أنصت له السامعون كأنه نبى يحدثهم . طبيعى فى حديثه وحركاته إلى حد يرغم الجمهور على تقديره وتعظيمه ، يكرس ذكاءه النادر لخدمة تابعيه . ويفسر أشد الآراء تعقيداً فى أسهل عبارة . ويستطيع التعبير عن رأيه فى دقة ووضوح ، ليس فى أسلوبه تلك « العبارات الدبلوماسية » التى تذكر شيئا وتعنى شيئا آخر . صادق فى معاملته ، صريح فى خطابه . إذا أخطأ كان أول المعترفين بخطئه . ولكنه — من ناحية أخرى — صارم فى التعريض بأخطاء الآخرين ونفاقهم . عثر فى الملفات المحفوظة فى دار رياسة الحكومة على المعاهدات السرية التى أدت إلى حرب سنة ١٩١٤ فأسرع فى نشرها ، واستنزل بذلك على نفسه نقمة الساسة الذين يتبعون خطة الالتواء وعدم الصراحة فى العالم أجمع .

كان يهدف طوال حياته إلى غرض واحد ، وذلك أن ينشئ

نظاماً اجتماعياً يخلو من الظلم ، والاستغلال ، والبطالة ، والدسائس الدولية ، والحرب . ولهذا الغرض الأوحد ضحى بكل مطمع شخصى له .

ولد فى عام ١٨٧٠ فى جو الطبقات المتوسطة . فقد كان أبوه مفتشاً فى المدارس ، وأمه ابنة طبيب . ولـكنه نشأ وسط العاصفة الفكرية التى أثارت غبارها الطبقة المثقفة فى روسيا . وموطنه الأصلى سمبرسك ، وهى المدينة التى كانت فى وقت من الأوقات مركز النشاط الثورى . وكان فى طفولته يعجب بقصص المغامرات التى يسطو فيها أبطالها على الأثرياء لنجدة الفقراء . والتى يثور فيها الشعب على حكامه ويلقى بهم فى وهدة الموت . ويحلم بأن يعيد سيرة هؤلاء الأبطال فينبه المظلوم إلى حقه والغاصب إلى عسفه . وكثيراً ما أثناه أبواه عن هذه الأحلام الطائشة وتلك الآراء الثائرة ، فهى آراء خطرة فى ظل الحـكم القيصرى . وخير له ولمستقبله أن يقبل النظم القائمة ويظفر بمنصب فى ظل الحـكومة السائدة .

وأرسله أبواه إلى مدرسة سمبرسك العليا ، وكان لناظرها كرنسكى ولد من سنه . وكان هذا الصبى حالما خيالياً كذلك . مع فارق فى أحلام لنين وأحلام كرنسكى الصغير . كان كلاهما يريد أن يرى العدالة تنشر لواءها فى روسيا ، غير أن كرنسكى

كان « ينتظر » ذلك اليوم الذى يسود فيه العدل ، فى حين أن ڤلادمير (لنين) كان يحب أن « يعمل » له . لأن بذرة العصيان مدت جذورها فى قلبــه منذ حداثته . وكان يختلس الوقت يقرأ فيه صحف هرتزن الثورية ، وفيها « إن أنين الشعب يتعالى وتذمره يزيد فى كل ركن من أركان بلادنا الفسيحة ، من الدون إلى الأورال ، ومن الفلجا إلى الدنيبر .... أيها الناس ، تيقظوا ! »

وكانت الطبقة المثقفة تناشد الشعب أن يصحو من غفوته ، ولندائها صدى قوى فى صدر لنين . كان أفراد هذه الطبقة يرمون إلى النهوض بالجماهير وتربيتها على تقدير ما يدور برؤوس المثقفين من آراء وما يتردد فى صدورهم من دوافع . لأن الجماهير لم تكن تثق فى حسن نية الطبقات العليا من مواطنيهم . أنشأ مرة أحد ملاك الأراضى العطوفين على الفلاحين عدداً من البيوت الصحية يأوون فيهـا . فارتاب الفلاحون فى مقصــده لأنهم لم يكونوا يتصورون أن رجــلا غنياً يعطف عليهم أو يحس إحساسهم ، فأشعلوا فى تلك البيوت النار .

يالهم من قوم تعساء مضطهدين جهلاء غافلين ! وما أشــد حاجتهم إلى لين المعاملة وحسن التوجيه كأنهم أطفــال . إنهم مخلوقات بشرية بحاجة إلى الفهم والإدراك . وتلك رسالة شاقة .

كان الفلاحون فى أعين الحكام فى روسيا كدواب الحمل لا يصلحون إلا لحرث الأرض وهم أحياء و إخصابها بعد موتهم ، ولم يكونوا فى نظرهم عباداً من عباد الله .

ليسقط إذن أولئك الحكام الذين داسوا رعيتهم تحت أقدامهم ! وفى عام ١٨٦٦ دبرت جماعة من طلاب الجامعة مؤامرة لاغتيال قيصر ، وا كتشفت المؤامرة ، وحكم على الطلبة بالإعدام . وكان أحد هؤلاء الطلبة شقيق لنين الأكبر .

وكان لوفاة هذا الشاب أثر عميق فى نفس لنين . وقد أتم دراسته فى المدرسة العليا حديثاً ، وكان على رأس الناجحين ، وجاء فى التقرير النهائى الذى أصدرته المدرسة عنه أنه « موهوب جداً ، يبذل الجهد باطراد و يواظب على الحضور » . وقد اعتزم بعد تخرجه أن يكرس موهبته الممتازة وجهده الفائق للدعوة إلى الثورة . هذا أخوه لا بد أن ينتقم له ، وتلك أمته لا بد أن يرد لها كرامتها المهدرة . وطريقه فى الحياة إذن غاية فى الوضوح .

(٣)

الطريق غاية فى الوضوح ولكنه ملىء بالمشاكل والمخاطر . وكان لنين باعتباره أخا لإرهابى حكم عليه بالإعدام تحت الرقابة ومحط الأنظار . التحق بجامعة قازان فى نهاية عام ١٨٨٧ ، وقبل

أن يتصرم العام فصل منها « لتأثيره السىء على زملائه . »

ولـكنه واصل دراسته وحيداً بغير معين ، و بعد أر بعة أعوام نجح بتفوق فى امتحان القبول بمدرسة بطر سبرج للحقوق . والتحق بالمحاماة وهو فى سن الثالثة والعشرين . غير أنه لم يتمرس فيها إلا فترة قصيرة نفى بعدها إلى سيبريا ، لأن الحـكومة اعتبرته خطراً على الأمن العام . وفى إحدى رسائله يقول : « إن العامل الروسى سوف يتخلص من حكم الاستبداد ويقود العمال المأجورين إلى الطريق السوى . و يقودهم إلى الثورة الاشترا كية . » وقد تنبأ بهذه العبارة بما حدث فيما بعد . ولو أن الحـكومة الروسية أدركت كل ما تنطوى عليه من معنى فى حينها ما أبعـدت لنين إلى سيبريا وا كتفت بذلك ، بل كانت ترسله كأخيه إلى المقصلة .

وتلقى الأمر بإبعاده بشجاعة وهدوء . ولم يكن كأ كثر زملائه متعصباً متهوراً . بل لقد كانت ثورته تنبع من رأسه لا من قلبه . وكان يدبر كل خطوة يخطوها فى عمله بدقة وحساب ، وكانت سيبريا مكاناً طيباً تنضج فيه فلسفته السياسية وتتضح فيه نظرياته الاقتصادية . رأى أن العالم يتطور من نظام الإقطاع إلى الرأسمالية ، ومن الرأسمالية إلى الاشترا كية . كما يتطور من

الأرستقراطية إلى الملكية ، ومن الملكية إلى الديمقراطية . ومن « الحق الإلهى » للأقلية إلى الحق الإنسانى للأكثرية . ومن ظلم الأمير إلى دكتاتورية العمال . وقضى أيام منفاه جاداً فى وضع أسس الدولة فى المستقبل — وهى دولة الشعب المهضوم .

ووجد له زميلة مخلصة تعينه على عمله ، وتلك هى نادزدا كنستا نتنوفا كروبسكايا . التقى بها أثناء نشاطه الثورى فى بطرسبرج ، والتقى بها الآن مرة أخرى زميلة له فى سيبريا . كانت له فى أول الأمر شريكة وسكرتيرة فى العمل ، ثم أصبحت زوجته فى النهاية . بحثا معا « تطور الرأسمالية فى روسيا » وأخرجا معاً كتاباً بهذا العنوان — وهو كتاب يعد بمثابة « العهد الجديد » للاشتراكية بعد « عهدها القديم » الذى خلفه لها ماركس .

و بعد نشر كتابه بقليل انتهت مدة منفاه فى سيبريا ، وذلك فى فبراير من عام ١٩٠٠ — ولكنه لم يستطع العودة إلى روسيا ، فذهب إلى ميونخ حيث أصدر صحيفة ثورية تحت عنوان «اسكرا» أو « الشرارة » . وارتقب القراء أن تتقد هذه الشرارة يوماً فتصبح لهيباً مستعراً . وأضحى لنين وهو ما يزال فى الثلاثين من عمره زعيم الروس الانقلابيين (الراديكاليين) . و بدأ الموظفون فى برلين يخشون أن يمسى كذلك زعيم الراديكاليين فى ألمانيا .

فأقصوه عن ألمانيا . وأنفق حياته من ذلك الحين فى تجوال مستمر ، يرسم الخطط و يجاهد و يكافح . وكان أمامه الآن جبهتان للكفاح — الحكومة الروسية والثوار الروس . لأن لنين كان يعتقد « أنه لقاء كل رجل مخلص فى الثورة تسعة وثلاثون وغداً وتسعة وستون غراً » . أما الأوغاد فأمرهم هين مستطاع . فهم على الأقل يقيمون حماقتهم على طريقة خاصة ونوع من المنطق . أما الآخرون فليسوا كذلك ، فهم بين متحمس لإشعال نار الثورة قبل أن تتأهب لها النفوس ، و بين مماطل يحب أن يؤجلها حتى يفوت الأوان . « و إنى لأخشى أن نبلغ نهاية سيئة بين جذوة النار ورمادها » على حد تعبيره . وكان يضايقه بنوع خاص أولئك المماطلون الذين يطفئون شعلة العمال . كل أملهم ينحصر فى الحصول على عمل أرقى قليلا مما يعملون ، ومعنى ذلك أنهم يحصلون على عمل حقير مهما تكن الحال . و إنما هم فى حاجة إلى عمل تكون له أهميته ، وهذا ما أراده لهم لنين وعزم على تحقيقه . أراد لهم امتلاك آلات الإنتاج ، وأراد لهم أن يستولوا على النظام الصناعى فى روسيا بأسره .

ولا بد لهم من أجل ذلك أن يصبروا ، ولا بد لهم أن يحرصوا ، ولا بد أن ينتظروا حتى يحل الوقت الملائم ، وذلك يكون

— فى رأى لنين — حينما تشتبك روسيا فى حرب ضروس . يقول لنين « أشركوا البلاد فى معارك مضنية من أجل مبدأ غير سليم يتأهب الجند للانضمام إلى صفوفنا . »

وكانت الفرصة تبدو سانحة لهـذه الثورة الحربية فى الحرب الروسية اليابانية . فقد عانى الجند سلسلة من الهزائم من جراء سوء إدارة ضباطهم . فانهارت الروح المعنوية فى الجيش ، ولم يكن السكان المدنيون خيراً منهم حالا . ونادى الشعب مطالباً بالدستور ، فابتسم لهم القيصر ساخراً . لأنه صرح لهم بمجلس لأعضائه مطلق الحرية فى الـكلام ، فاقد السلطة فى العمل .

واشتعلت قلوب الناس حماسة ، وقسا عليهم الشتاء ببرده القارس ، وانعدم الوقود ، وشح الطعام ، ولم تسترهم إلا أسمال بالية ، وأجهدهم العمل المتواصل . حتى كان يوم الأحد الثانى والعشرون من يناير من عام ١٩٠٥ ، سار العمال فى مظاهرة كبرى ومعهم زوجاتهم وأطفالهم إلى قصر قيصر . وعلى رأس المظاهرة قسيس أرثوذكسى . وكانت مظاهرة سلمية ، يحمل فيها المتظاهرون بين أيديهم صور القديسين بدلا من السلاح . لا يطلبون غير الخبز من « أبيهم الصغير » — وهو الاسم الذى كانوا يطلقونه على قيصر .

ولـكن أباهم الصغير رد عليهم بطلقات نارية بدلاً من الخبز الذى يطلبون . فتشتت جموع العمال مذعورين . وانطلق بين صفوفهم الفرسان من القوزاق يلهبون ظهورهم ووجوههم ورؤوسهم بالسياط . وسكنت العاصفة بعدما استشهد أمام القصر القيصرى ألف وخمسمائة قتيل .

واشتدت الأزمة عندما ثار الجنود البحريون على ظهر الباخرة بوتمكن : فهل حان يوم الحساب ؟ كان لنين ينتظر هذا اليوم فى ارتقاب شديد ، و يتأهب للوثوب ، فعاد إلى روسيا مستعداً لأن يمسك الزمام فى قبضته .

كلا . إن الساعة لم تحن بعد . إنه الفجر الـكاذب ، ولـكن إشراق النور قريب . و يبرم قيصر الصلح مع اليابان ، وتخمد نار الثورة لقلة ما تلقى من وقود . و يزج فى السجن بالـكثير من زعمائها ، و يتمكن لنين من الفرار . و يعود شريداً بغير مأوى ، يطارده رجال الشرطة ، يسابقونه فيسبقهم ، و يفلت من بين أيديهم . يثير النفوس ، و يكتب بأحرف من نار ، و يحلم بالمستقبل ، و يدبر الخطط لذلك اليوم الذى « تنتفى فيه الحاجة إلى العنف ، لـكى يخضع فيه الإنسان للانسان ، وطبقة من الناس لطبقة أخرى من الناس » . وكان مثله مثل القديس

فرانسيس ، يهب نفسه للفقر والألم لـكى يختفى من العالم الفقر والألم . وكانت زوجته ورفيقته فى المنفى تشاطره آلامه وتسلونه على أداء عمله طوال منفاه . وكان لجميلها شكوراً ، يبادلها محبة بمحبة و إخلاصاً بإخلاص .

وظفرت بمحبته و إخلاصه امرأة أخرى ، هى أمه التى وهبها مع زوجته كل قلبه . ولم ينسها قط حتى وهو فى أوج نشاطه وثورته .

كانت شخصية لنين مزيجاً نادراً من الصفات . قلب رقيق وذهن قوى . لا يحمل فى قلبه ضغينة لأحد . نضاله موجه إلى الآراء لا إلى الأفراد . كان بطبيعته شاعراً و بتطبعه مبشراً . يحب الموسيقى ، ويقول لجوركى « لست أعرف شيئاً أجمل من (العواطف) لبيتهوفن . إنها قطعة من المسيقى السماوية رائعة . ولا أمل سماعها كل صباح » . ولـكنه كرس حياته لشىء آخر غير الغناء . لأن العالم ملىء بالمظالم ، ولابد من العمل على انسجام « الجسد » قبل الاستماع إلى ما يدل على انسجام « الروح » . ولا مناص لتحقيق ذلك من العنف الشديد و إن كان مثل لنين الأعلى أن يتجنب كل عنف .

وموقف لنين من الدين كموقفه من الموسيقى . لم يكن فى

قلبه كافرا بالدين ولكن « حينه لم يحن بعد » كما يقول. « و بدلا من أن نهدئ روع الناس بحلم السماء يجب أن نخلصهم من كابوس الجحيم على الأرض » وكان يعتقد أن هذا الكابوس يجثم على صدور الناس عن طريق رسل قيصر الذين يشاركون ممثلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. فناشد الناس بقوله « إن أردتم أن تحرروا أنفسكم فاخلعوا قيصركم الأوتوقراطى وعقيدته الدينية. وكان كبوذا صوفياً وملحداً فى آن واحد ، وكأنه يقول « ليس هناك إله ، و إنما أنا نبيه . »

(٤)

ولما اندلع لهيب الحرب الكبرى فى عام ١٩١٤ أحس لنين توًّا أن « يوم روسيا العظيم » لم يعد بعيدا . ولم يكن يهمه سير القتال « فإن مطامع الدول المختلفة ليست سوى مطامع الرأسماليين المتنافسين فى تلك الدول . فليهشم هؤلاء الرأسماليون بعضهم بعضا ، فسوف تخرج الثورة الاشتراكية من هذا الهشيم .

وهكذا ظل لنين ينتظر الفرصة الملائمة صابراً متجلدا . وكان ينظر بعين الرضا إلى هزائم الروس ، لأن إحساسه الوطنى لم يكن قوميا ، و إنما « مواطنىّ هم العمال فى جميع أنحاء العالم » كما كان يقول . فكان يريد خلاص العمال لا خلاص روسيا . « وهزيمة

روسيا سوف تجتاح القيصر وحكومته بأسرها وتودى بها فى وهدة النسيان » . ولبث وهو فى اغترابه — وكان الآن فى زيورخ — يرقب فى لهفة شديدة انحلال الجيش الروسى وانهيار الحكومة الروسية . وأخيراً فى فبراير من عام ١٩١٧ تنفس الصعداء ، وذلك حينما عصت ثلة من الجند فى جبهة القتال ما أمرهم به ضابطهم من إطلاق النار على زملائهم الثائرين . وانتشر الخبر بين صفوف الجيش . فصاحت الألوف المؤلفة ثائرة ونادوا جميعاً « كفانا قتالاً وكفانا قياصرة ! » واضطر نقولا إلى التنازل عن عرشه ، فقد بدأ الاشتراكيون ثورتهم .

ولكنها لم تكن ثورة لنين . فقد جاءه هذا الظرف وهو على غير استعداد برغم شدة يقظته . فإنه لم يتوقع انهيار النظام القيصرى بهذه السرعة . وقبض على زمام الحكم كرنسكى ، فكان أول أوامره أن الحرب ينبغى أن تستمر .

هنا أتيحت الفرصة للنين ، فقد أجابه متحدياً « أن الحرب يجب أن توقف » . وذاعت كلمة لنين بين أفراد الشعب ، فعززه وشد أزره . لأن المدنيين والعسكريين على السواء ملوا القتال . واعتلى لنين سيارة مصفحة وطاف بها شوارع بتروغراد مردداً رأيه بإعلان السلم فى الحال . « إن الشعب يريد السلام ، ويريد

الخبز ، ويريد الأرض . ولـكنهم يعطونه الحرب والحرمان والجوع ، ويحتفظون بملاك الأراضى فوق أراضيهم . »

ونصح مستشارو كرنسكى له بالقبض على لنين ، ولـكن كرنسكى أجابهم بقوله « دعوه وشأنه ، إنه معتوه » . و بدلا من أن يلقى باله إلى لنين ، ظن أن من واجبه أن يهتم بالجيش . فأمر قائد القوات أن يصمد فى دفاعه وهجومه على الألمان . ولـكن الجند ، بل وكثيراً من الضباط أبوا أن يطيعوه . وتجدد صياحهم . « كفانا قتالا ، كفانا من حكم كرنسكى . »

و إذن فقد ظفر لنين ، واضطر كرنسكى إلى أن يلقى بنفسه فى « سلة مهملات التاريخ » على حد تعبير لنين . وأضحى الآن لنين متأهباً للشروع فى إنشاء النظام الاجتماعى الجديد .

(٥)

وكان هذا العمل شاقاً عسيراً ، بل لقد كان لنين يفقد فيه الأمل فى بعض الأحايين . وكان مضطراً إلى أن ينشىء نظامه الجديد من أساسه ، وأن يبذل — فوق ذلك — جانباً كبيراً من قوته فى معارضة الجيوش التى أشار عليها الحلفاء باجتياح روسيا . وكان الحلفاء يعتزمون — رغبة منهم فى حماية أنفسهم —

أن يقضوا على الثورة فى روسيا قبل أن تستفحل و يسهل انتشارها فى بقية العالم . غير أن لنين نجح فى صد الأعداء واستطاع أن يشرع فى إعادة بناء روسيا. وكان زعيما شعبياً يظفر بتأييد الجماهير. ولم يحط الرفيق لنين نفسه بمظاهر الأبهة الشرقية التى كان يحيط نفسه بها قيصر . وكانت حجراته فى قصر كرملن فقيرة الأثاث كما كان بيته فى زيورخ . وطعامه لا يزيد فى شىء عن طعام الفلاحين الساذج البسيط .

وتلك ظاهرة جديدة فى التاريخ — دكتاتور زاهد متقشف ، ذو قلب مفعم بالإخلاص . ولما وجد أن بعض آرائه الاشتراكية غير عملى تخلى عنها صراحة واستبدل بها آراء رأسمالية عملية . لم يكن جامداً فى آرائه ومعتقداته ، بل يخضع لما تهدى إليه التجربة و يعدل من أفكاره وفقاً لمقتضيات الأحوال والظروف . ومن أقواله فى ذلك « سوف نخطئ ألوف الأخطاء ، ولكننا سوف نكتشف الطريق السوىّ الأوحد فى النهاية . »

دكتاتور كالعالم يجرى التجارب فى الحكم ولا يفر من النتيجة ، يعرف كيف يعمل وكيف يلهو . حدث مرة فى اجتماع المؤتمر السوفيتى فى موسكو فى يوليه من عام ١٩١٨ أن وقفت ماريا سبريدانوفا الزعيمة العاطفية للثوار الاشتراكيين ، وألقت خطاباً

حماسياً هاجمت فيه لنين وقالت « إنى أتهمك بخيانة الفلاحين ، وباستغلالهم لأغراضك ... الفلاحون فى فلسفتك ليسوا سوى أدوات للإنتاج » وعلا صوتها وهددت بقولها « ولو أصررت على هذا فسوف تجد بين يدى مسدساً أصوبه إلى صدرك لاغتيالك . . . . » وعلى أثر خطابها علا هتاف الجماهير « ليسقط لنين ! ليسقط عدو الفلاحين ! ولتحى سپريدانوفا ! »

عندئذ نهض لنين وتوجه إلى سپريدانوفا وربت على كتفها ، ثم التفت إلى جمهور الهاتفين وابتسم لهم . ولبث كذلك هادئاً مبتسما خمس دقائق ، ثم رفع لهم يده ، وساد الحاضرين صمت كصمت القبور . وبدأ خطابه بقوله : « أيها الرفاق . دعنا ننسى ما تفوهت به ملريا سپريدانوفا منذ لحظة وهى ثائرة . ولنواصل عملنا . . . . »

وثوى فى مقعده وسط عاصفة من الاستحسان « إن لنين على حق ! وهو دائماً على حق ! ليحى لنين ! »

ذلك سحر ابتسامة لنين . كل من خالطه اعترف بأن ضحكاته هى أبرز صفاته المميزة . وظن بعضهم أنها تنم عن القسوة ، ولم ير فيها بعضهم الآخر غير الطبيعة الطيبة واستعداده لأداء الدور الذى قدر له أن يلعبه فى التاريخ ورضاه عنه . وحلو بعضهم فى

تفسير تلك الابتسامة التى ترتسم دائماً على شفتيه . ولكننا لا نرى فى ابتسامه لغزاً لا يحل . لم يضحك لنين قسوة ولا سروراً ، وإنما كان يضحك من الحزن والأسى . يضحك ملء رئتيه لأن الألم بعيد الغور فى نفسه . وبرغم جهوده الشاقة لتحويل المأساة الإنسانية عن مجراها ، كان يحس فى أعماقه أنها مهزلة كبرى . كان يضحك كما كان يضحك من قبله سوفت أو هين أو مارك توين . ضحى بنفسه فى سبيل الانسانية ، وهو يدرك أن الإنسانية لا تستحق التضحية . وصف فرجيل الشاعر الرومانى الانسان بقوله « هذا الحيوان الدنىء التافه الذى يسير على قدمين ويسمونه الإنسان » وقد فهم لنين الطبيعة البشرية كما فهمها الشاعر الرومانى ، وأدرك ما بعقل الانسان من غباء وما بقلبه من ألم . فكانت ضحكاته تمتزج بالدموع .

(٦)

ولم تنته آلام لنين إلا بانتهاء حياته . وقد قاسى كثيراً قبل موته من آلام المرض . وكان يغالب المرض ويجهد نفسه بالعمل الشاق . وأخيراً صرعته علته ، وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر يناير من عام ١٩٢٤ أغمض عينيه وعلى شفتيه ابتسامة .

ونعاه الـكونجرس السوفيتى كأنه ينعى نبياً مات . جاء فى نعيه « . . . إن قدرته على تنظيم الجماهير فوق التصور . كان القائد الأعلى لجميع الأمم وجميع الأزمان وجميع الشعوب . كان نبى الإنسانية الجديدة ، ومخلص العالم من الشرور . »

وجىء بجثمانه إلى موسكو وأودع فى (بهو الأعمدة) . و بلغت درجة الحرارة فى ذلك اليوم الثلاثين تحت الصفر . ولـكن بعض تابعيه أشعلوا ناراً كبرى فى الميدان الفسيح الذى يقع خارج البهو تستدفىء بها ألوف الحجاج الذين أتوا من كل ركن من أركان روسيا لـكى يظهروا ولاءهم لزعيمهم المحبوب لنين . وألقوا على جثمانه النظرة الأخيرة داعين له مترحمين .

ليو تولستوى

١٨٢٨ — ١٩١٠

(١)

كان ترجنييف — وهو من أعلام الأدب الروسى الحديث — يعجب بتولستوى أشد العجب ، ويعد أعظم كاتب أنجبته الروسيا منذ أول التاريخ . وظل يتمدح باسمه فى كل مجلس وكل منتدى ، إلى أن هجر تولستوى الأدب المحض ، واتجه إلى البحوث الدينية الغامضة . حينئذ أشفق ترجنيف على هذه الموهبة العظيمة أن تنطفئ شعلتها ، وساءه أن تخلو مكتبة هذا الأديب الفحل — الذى أصاب فى تصوير الطبيعة والإنسان ما لم يصب أحد من قبل — من كل كتاب سوى الإنجيل و بعض الرسائل الدينية . ولشد ما كان يخشى ترجنيف أن يبذل تولستوى خير سنى إنتاجه فى التأملات الدينية التى لا تؤدى إلى غاية ولا تهدى إلى سبيل .

وألم المرض بترجنيف وأقعده عن الحركة والعمل ؛ ولكنه ، رغم ما كان يعانى من ألم ، ويكابد من سقم ، أمسك بقلمه ، ويده ترتعش من الضعف والوهن ، ودبج رسالة حارة إلى صديقه



تولستوی

الأديب العظيم نابغة الروس ، رسالة — كما وصفها ترجنييف نفسه — لا تنبعث إلا من قلب مخلص ليس بينه و بين القبر إلا قيد خطوات . وقد ألحّ ترجنييف على صاحبه فى هذه الرسالة البليغة أن يهجر الفلسفة والدين ، وأن يرتد إلى الأدب الخالص ، فهو ميدانه الذى يبزّ فيه كل قرين .

ولكن تولستوى لم يُعرْ هذه الصيحة المنبعثة من فراش المرض أذنا مصغية ، ولم يجب على الرسالة فى حينها . ومرت الأيام ، وهمّ تولستوى بالكتابة إلى صاحبه ، ولم يكد يتم كتابه حتى فاضت روح ترجنييف وصعدت إلى بارئها ، ومات الرجل دون أن يعلم أن صديقه قد ضرب برجائه عرض الحائط . وفى الحق إنه كان شديدا على تولستوى أن يستجيب لدعوة صاحبه ، وأن يعود إلى الأدب ، لأنه لم يسلك طريق الدين ترفاً أو غروراً ولم يتأمل خلق الله عن تطلّع وتشوّف وحسْبُ ، بل لقد أحس كأنه ينساق إلى تلك الطريق انسياقاً ، و ينحدر إليها بغير إرادته وهو راغم .

كان تولستوى أول الأمر لا يفكر إلا فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يمتد بصره إلى ما وراء الواقع المحسوس ، بل لقد كان أرهف حساً من كل أديب سواه . ولم يجنح يوماً إلى البحث الدينى الخالص ،

ولم يفكر قط لمجرد التفكير . إنما كان يعنى فى فنه قبل كل شىء بعناصر الحياة الملموسة القريبة ، لا بمعانيها الغامضة البعيدة . ولا نشك أنه تحول إلى التأمل والنظر الدينى راغباً أو عامداً ، ولكنه أصيب بصدمة نفسية مفاجئة ، صدمة ارتعدت منها فرائصه واهتز لها كيانه ، وأخذ من هولها يلتمس له دعامة تسنده فلا يضطرب ، ويطمئن إليها فلا يهوى .

حلّت هذه الأزمة النفسية بتولستوى وهو فى نحو الخمسين من عمره . وهى أزمة لا نستطيع أن نصفها ، ولا نستطيع أن نردها إلى سبب بعينه ؛ فقد كان الرجل يعيش عيشة لا تؤدى فى ظاهرها إلى ضيق ، ولا تؤدى إلى حرج ، وواتته حينئذ كل عوامل الحياة السعيدة ، وتوفرت له كل أسباب النعيم : كان رجلاً قوىّ البنية ، صحيح البدن ، ثاقب البصر ، حاد الذكاء ، يعده أترابه من المجددين فى الأدب ، وكان صاحب ضيعة واسعة ، ومال وفير فلا يحسب للمادة حسابا ؛ وكان نابه الذكر بعيد الصيت ينتمى إلى أسرة من أنبل الأسر ، ويجيد الكتابة بلسان قومه إجادة تجعله إمام الكتاب وشيخ الأدباء ؛ وقد انتشرت رواياته وقصصه فى أنحاء العالم طرًّا حتى عرفه كل قاص ودان ، وكانت حياته المنزلية سعيدة مشبعة بروح العطف والحنان ، وكان له زوج وكان

له بنون ... ومن العسير بعد هذا أن نلتمس سبباً ظاهراً يدفعه إلى التبرم والضجر .

ولكن هذه الأزمة التى حلت بصاحبنا برزت إليه من ظلام النفس لا من نور الحياة ، فأحس كأن شبحاً مخيفاً يطارده ويتهدده ، واسودَّت الدنيا فى عينيه ، وكاد أن يقف فى بيداء الحياة لا يبدى حراكا . وكثيراً ما كان يسائل نفسه : « ماذا دهانى ؟ ما هذه الكآبة التى عرتنى بغير سبب ؟ ما هذا التبرم ، وما هذا الانزعاج ؟ إنى لم أعد أجد فى الحياة متعة ، أو أشعر فيها بما يهزُّ منِّى الحس والعاطفة . لقد باتت زوجى غريبة عنى ، وتخلى عنى أبنائى غير آبهين . وأمسى العمل إلى نفسى بغيضاً ممجوجاً ! »
وبلغ منه اليأس والضجر أن أخفى عن نفسه بندقية الصيد خشية أن يصوبها إلى صدره فى ساعة من ساعات القنوط ، فيقضى فى لحظة لا يرقبه فيها أحد . ويقول عن نفسه على لسان شخص من أشخاص روايته (أنا كرنينا) : « لم يعد عندى شك أنى ككل كائن حى لن أصيب فى هذه الدنيا غير الألم وغير الموت والفناء . إنى لن أستطيع العيش على هذه الحال ، فإما أن أجد للغز الحياة حلاًّ أو أنتحر . »

ولن نحاول هنا أن نتعرف إلى طبيعة هذا النزاع الباطنى

الذى جعل من تولستوى مفكراً ومبشراً ؛ ولربما كانت أزمة نفسية طارئة جزعا من تقدم السن والشيخوخة أو خوفاً من الموت ، وربما كان انقباضاً عصبيا ثم استحال جموداً روحانيا .

ومن طبيعة الرجل العبقرى — والأديب خاصة — أن يلاحظ هذه الأزمات النفسية ، وأن يحاول أن يغلبها ويخرج منها ظافراً. فلما اشتد بصاحبنا القلق تساءل جزعا : « لعلى لم أعش كما كان ينبغى أن أعيش » وشرع يختبر نفسه كل يوم ، ويفكر فى معنى الحياة ، وكان ينشد الحقيقة ويغوص لجة الفلسفة لا عن لذة طبيعية فى التأمل أو عن تشوّف عقلىّ ، ولكنه أراد أن يتقى اليأس ، وأن يخلص من هذا القنوط . ومن ثم سار — كما سار باسكال — على هامش الفلسفة ولم يضرب فى صميمها ؛ وبمكتبة موسكو وثيقة بخط يده بقيت من ذلك العهد الحائر يقول فيها : « هناك مسائل مجهولة ينبغى لى أن أجيب عنها ، وتلك هى : لماذا أعيش ؟ وما السبب فى وجودى ؟ وما الغرض منه ؟ وما معنى هذه التفرقة بين الخير والشر التى أحسها فى دخيلة نفسى ؟ وكيف ينبغى أن أعيش ؟ وما الموت ؟ وأين سبيل الخلاص ؟ »

ولكن الإجابة عن هذه الأسئلة كانت فوق العمل الأدبى

الذى ألف ، فاضطر إلى ممارسة الفلسفة اضطراراً ، واشتغل بها ثلاثين عاماً بعد هذا .

ولم يكن تولستوى من قبل شاكاً ، بل كان يعيش ظاهراً وباطناً عيشة هادئة حرة أبيقورية ، كلها نشاط وكلها عمل ، ولما انقلب إلى الفلسفة مفاجأة — كما رأينا — أخذ يقرأ الثقات فى الموضوع ، ويتعرف إلى آرائهم فى نشأة الإنسان وفى الغرض من حياته ؛ وشرع يقلب صفحات الكتب الفلسفية ذات المنازع المختلفة ، ويستطلع آراء أفلاطون وكانت وشوبنهور وباسكال ، لعله واجد فيها للحياة معنى . ولكن الفلسفة والعلم كليهما لم ينتهيا به إلى غاية ، وقد أسف تولستوى أشد الأسف إذ تبيَّن أن آراء هؤلاء الحكماء — كما يقول — « واضحة جلية دقيقة حينما تبتعد عن مشاكل الحياة المباشرة ، ولكنها لا تهدى الحائر إلى سبيل ، ولا تبعث الطمأنينة إلى القلوب الضالة القلقة ؟ وكلها يقصر دون سؤالى الذى طالما حِرْت فيه ، وذلك هو : لماذا نحيا ؟ »

(٢)

وهنا ينتقل تولستوى إلى المرحلة الثالثة من حياته ، فقد طلق الأدب أولاً ، وطلق الفلسفة ثانياً ، ثم توجه إلى الدين لعله يجد فيه هداه . تنكرت له المعرفة فأخذ يبحث عن عقيدة ، وازورَّ

عنه العقل فمال إلى القلب ، ودعا الله قائلاً : « اللهم هبني إيماناً قوياً أملأ به قلبي ، وأهدي إليه غيري . »

وفي هذه المرحلة التي تشتت فيها ذهن تولستوي لانراه ينتمي إلى عقيدة بعينها ، أو يبتدع رأياً جديداً لم يسبقه إليه أحد ، ولم يفكر في الثورة على الدين السائد ؛ وإنما أراد أن يلتمس طريقاً وهدفاً لنفسه الحائرة كي يعيد إلى روحه دعتها وطمأنينتها . أراد أن ينقذ نفسه من حيرتها لعله يجد معنى للحياة ليس لها في ظاهر الأمر معنى ، ولم يخطر له حتى آنئذ أن يعلن على المسيحية القديمة التقليدية ثورته ، بل إنه ليعاود الزُّلفى لدى الكنيسة — بعد أن كان قد تخلى عنها وعن الصلاة إبان الشباب — ويخضع لها ولقانونها ، ويؤدي فريضة الصوم ، ويحج إلى المعابد والأديرة ، ويخشى الله ويجادل القسس ورجال الدين ، ويتعمق دراسة الكتاب المقدس .

وفي هذا الدور وقع له ما يقع لكل باحث وراء الحق حائر ، فقد لمس ما أصاب أوامر الدين ونواهيه من إهمال ، وأدرك أن ما تعلّمه الكنيسة الروسية من تعاليم المسيح دخيل على المسيحية مضاف إليها . فرأى أن من أُولى واجباته أن يفسر معنى الإنجيل الحق ، وأن يعلّم الناس هذه المسيحية الجديدة خالصة من كل

لبس أو غموض . ثم أمسى بعد ذلك تولستوى الباحث قساً ، وبات القس مبشراً بدين جديد . وأخذ يأسه الشخصى يتخذ صورة عقيدة جديدة ثابتة ، وإصلاح خلقى ، وقاعدة يقوم عليها كيان الجماعة . واستحال سؤاله الأول الذى طالما أزعجه وهو : « لماذا نعيش ؟ وكيف ينبغى أن نعيش ؟ » إلى جواب صريح وهو : « هكذا ينبغى أن نعيش . »

ولكن الكنيسة الأوربية — وقد عاشت الآن زهاء ألف عام — كانت تحس إحساساً دقيقاً بالخطر الكامن فى كل محاولة فردية لتفسير الإنجيل ، وكانت تعلم حق العلم أن كل فرد يحاول أن يصوغ حياته وفقاً لكلمة الله وحدها لا بد أن ينتهى إلى نزاع مع الكنيسة وخلاف مع الدولة . ولذا فقد صادر أولو الأمر (اعترافاتى) وهو أول كتاب لتولستوى عن المبادئ العامة ، ولم يسمحوا له بالذيوع والانتشار ، وصادر مجمع القساوسة المقدس كتابه الثانى (عقيدتى) . وترددت الكنيسة طويلاً قبل أن تتخذ الخطوة الحاسمة الفاصلة احتراماً للكاتب العظيم ، ولكنها اجترأت آخر الأمر وقررت أن تحرم الرجل من رحمة الكنيسة ، لأن تولستوى بدأ يهز أساس الكنيسة والدولة والنظام . وبات تولستوى — ككل من حاول من قبل أن يعود بالمسيحية إلى

نشأتها الأولى ، وأن يعيش على كلمة الإنجيل وحـدها — عدو الدولة اللدود ، وأصبح فى نظر الحكومة فوضوياً ثائراً يهـدد كيان الجماعة . ولـكن الرجل بقوته وعزيمته ومقدرته على تحمل المشاق وشجاعته التى لا تعرف الخور ، بزَّ كل مصلح دينى سبقه من أمثال لوثر وكلفن ، ولم يعرف القرن التاسع عشر عدواً للنظام خطراً عليه مستميتاً فى دفاعه كهذا الأديب الفنان العظيم .

واشـتدت العداوة بين الرجل و بين أصحاب النفوذ ، لأن الـكنيسة والدولة تعرفان أن أخلص المصلحين وأشدهم نبوغاً هم بعينهم أولئك الذين يثيرون الأرض وما عليها و يحرضون عليهما قلوب البشر . والـكنيسة والدولة تعرفان أن المسيحية الأولى ترمى إلى مملـكة فى السماء لا فى الأرض ، وأن قوانين المسيحية الأولى ثائرة تنكر الحـكومة ، لأن المؤمنين يرفعون المسيح فوق قيصر ، ودولة الله فوق دولة الإنسان ؛ وهـذا لا يتفق وواجبات الرعية المخلصة ، ولا يتفق وقوانين الدولة وكيانها . ولـكن تولستوى لم يدرك بادئ الأمر كل هـذه المشاكل المعقدة التى تقوده إليها بحوثه . ولم يرتدع عن نقد الحـكومة ونقد الـكنيسة . وتفقد أبناء الروسيا آنئذ فهـداه الرأى إلى أن عدم المساواة فى الشئون الاجتماعيـة ، والتباين بين الفقراء والأغنياء ، و بين الترف

والبؤس ، هو العلة الكبرى والداء الوبيل . وتبين له من نقده لنفسه ذلك الظلم الشديد الذى كان يصدر عن زملائه أبناء الطبقة الرفيعة . وأخذ على نفسه أن يرد هذا الظلم بكل ما وسع من قوة ، وأن يحرر الشعب من كل عسف وحيف . وقد مرّ بموسكو ذات يوم فشهد عن كثب ذلك الحاجز العظيم بين حياة الغنى وحياة الفقير ، فأصدر كتابه « ماذا نفعل ؟ » يصور فيه هذه الزيارة الأولى لعاصمة الروسيا ، وما شهد من بؤس الجماهير فى هذه المدينة العظيمة . ولا شك أنه رأى بعينه النافذة من قبل بؤس العامة وشقاءها ، ولكنه كان شقاء القرى والريف ، لا شقاء المدن الصناعية حيث تتجمع الألوف من عامة الناس — ذلك الشقاء الذى كان يعتبره وليد العصر الحديث ونتيجة للمدنية « الآلية » .
وأخذ تولستوى الآن يطبق آى الإنجيل بطريقة عملية ، فحاول أن يحدَّ من البؤس بالهدايا والمنح ، و بعطفه على الفقير وحبه له . ولكنه سرعان ما أدرك عبث هذه الجهود الفردية ، كما أدرك أن المال وحده لا يصلح لقلب حياة هؤلاء البائسين ؛ إن أردنا أن نرفع مستوى العامة وجب علينا أن نعيد بناء المجتمع . ويقول تولستوى فى هذا : « إن بين الغنى والفقير حائلا من التعليم الزائف . وقبل أن نمدَّ أيدينا لمعونة الفقير ينبغى أن نرفع المعاول

ونهوى بها على هذا الحائل القائم . إنى لم أعد أشك فى أن الثروة هى السبب الحق فى بؤس العامة وشقائها . »

فكان الكاتب إذاً يعتقد أن بالبناء الاجتماعى الراهن خللاً وصدوعاً ، وأن من واجبه أن ينبه مواطنيه إلى مواطن الخلل والضعف ، وأن يعلم الناس ويحذرهم ويبين لهم سعة الهوة بين طبقة وأخرى . وكان فى الواقع يرمى إلى ثورة خلقية نفسية لا إلى ثورة دموية هدامة . كان يرمى إلى ثورة فى العقائد تؤدى إلى المساواة بين الطبقات ، وكان يريدها ثورة تقوم على الضمير ، وتتم بتنازل الأغنياء طوعاً عن ثرواتهم ، وتخلى الكسالى الذين لا يعملون عن بطالتهم ، وتنتهى بتقسيم العمل تقسيما جديداً . فلا يغير أحد على أحد ، ويتساوى الجميع فى الحاجات . ومن ذلك الحين بات أديبنا يرى الترف سماً زعافاً فى جسم الجماعة ، سماً يجب اقتلاعه للتسوية بين الناس أجمعين .

ومن هذه العقيدة بدأ تولستوى يهاجم الملْكية أشد مما هاجمها (كارل ماركس) ومن أقواله فيها : « إن الملكية اليوم أساس لكل شر ، فهى تسبب الألم لمن يملكون ومن لا يملكون على السواء ، وهى — بالضرورة — تؤدى إلى النزاع بين الأغنياء والفقراء . »

وما دامت الدولة تعترف بمبدأ الملكية ، فهى فى رأى تولستوى دولة آثمة لا تقوم على أساس صحيح من الدين أو الاجتماع ، و « إنما تتآمر الدول وتتقاتل لأن كلا منها ينشد المِلْك ، فتراها تحارب تارة على ضفاف الرين ، وطوراً فى أفريقيا ، وطوراً فى الصين أو فى البلقان . إن أصحاب المصارف والمتاجر ، وأصحاب المصانع وملاّك الأراضى ، إنما يعملون ويدبرون للملكية وحدها . والموظفون يتقاتلون ويغشون ويظلمون ويألمون من أجل الملكية وحدها . إن العقوبة والسجون إنما تقوم لحماية الملكية دون سواها . »

يرى تولستوى أن هناك هيئة واحدة كبيرة تسرق وتخدع وتحمى كل ظلم ، وتلك هى الدولة التى قامت لحماية الملكية وحسب ، والتى أقامت قواها المختلفة وزودتها بالقوانين والقضاة والسجون ورجال الشرطة والجيوش لهذا الغرض وحده . وأكبر إثم ترتكبه الدولة هو فرض الجندية على الجميع . ويرى الكاتب تبعاً لهذا أن المسيحى الذى يخضع لقانون الدولة يخرج على تعاليم المسيح وأحكام الإنجيل ، لأنه يحمل أداة قاتلة يهدر بها دم الغريب من أجل كلمة عارضة : هى الوطن أو الحرية أو الدولة ؛ وهى كلمات جوفاء لا ترمى إلا إلى حماية الملكية وتقديسها . وقد كتب

تولستوى مئات الصفحات يشرح كيف أن الدولة بدفعها الناس إلى القتال إنما تحملهم على نقض ما يأمر به الله ، وما ينادى به الضمير .

(٣)

انقلب تولستوى إذاً من باحث دينى إلى فوضوى ثائر . أخذ الآن ينادى بملء فيه أن من واجب كل فرد ذكىّ عاقل على شىء من مكارم الأخلاق أن يقاوم الدولة إذا طلبت إليه ما ينافى « العقيدة المسيحية » ، كالخدمة العسكرية أو القتال . ولا يرى تولستوى أن تكون هذه المقاومة بالقوة والسلاح ، وإنما تكون بالعداء السلبى وعدم التعاون . ومن رأيه أن لا يستغل أقوياء الأمة ضعفاءها فيسخروهم لأعمال لا تعود عليهم بطائل . والرجل الشريف عنده من يفكر ويعمل ، لا فيما يقتضيه الوطن وإنما فيما تقتضيه الإنسانية بأسرها . ولا ينى تولستوى عن الإشارة إلى حق الفرد المقدس فى أن يعمل ما يوحيه إليه ضميره ، لا ماتمليه عليه الدولة ، وألّا ينفذ للدولة أمرها إن شذت عن قواعد الأخلاق . ونصيحته لكل مسيحى مؤمن ألّا يؤيد الدولة الظالمة ، فلا يحتكم إلى قاض ، ولا يقبل وظيفة فى الدولة حتى لا يفسد قلبه ، ويبقى نقياً طاهر الذيل .

ويرى تولستوى أن جرائم الأفراد لا تفسد الجماعة كما تفسدها الدولة بنظمها ومؤسساتها ، ويقول فى ذلك : « إن اللصوص والقتلة والمزوّرين مثال حى لما ينبغى أن نعمله ، نفزع من جرمهم ونزدرى ما يرتكبون من إثم . فهم لذلك أقل خطراً من أولئك الذين يقترفون القتل والسرقة والعدوان ، ويتوارون وراء ستار من الدين والعلم والتقاليد ؛ أولئك هم ملاّك الأراضى ، وأغنياء التجار ، وأصحاب المصانع ، فهؤلاء بما لهم من مكانة بين الناس يوحون إلى غيرهم ، أن يحذو حذوهم وينهج منهاجهم . إن خطرهم لا يقتصر على من يقع تحت طائلتهم وحسب ، إنما يمتد إلى ألوف البشر فيفسدون ضمائرهم حتى يضطرب فى أذهانهم ميزان الخير والشر ... إن حكما واحدا بالموت يقضى به ظلماً رجل من رجال القضاء نابه مثقف — ويؤيده رجال الدين — يفسد الإنسانية أكثر مما تفسدها ألوف جرائم القتل ، يرتكبها عمّال جهال مدفوعين بعاطفة أو شعور . إن الحروب — رغم ما قد تزعمه الدولة من تبرير لها ، ورغم ما تدّعيه من ضرورتها وعدالتها ، ورغم ما يحوطها من ثناء وإجلال للمقاتلين ، وما يكتنفها من تقديس الحرية والوطن ، وإنقاذ الجرحى ومعونة البائسين — إن الحروب التى تشنها الدولة — رغم هذا كله — تفسد الناس فى

عام واحد أكثر مما تفسدهم ملايين جرائم النهب والقتل يرتكبها الأفراد بتأثير العاطفة فى مئات السنين » ؛ أو بعبارة أخرى : إن الدولة والنظام الاجتماعى الحاضر ، هى أكبر آثم وأكبر مقوض للجماعة ؛ هى الشر المجسد ، ويحملها تولستوى كل تبعة وكل عار .

وإذا كانت الدولة هى الشر ، وهى ستار الفوضى على الأرض فإن تولستوى يرى أن واجب المؤمن أن يجتنب كل ما يتطلبه هذا الشبح الشيطانى ، وكل ما يغريه به . إنما المسيحى الحق هو من لا يأبه لروسيا — أو لفرنسا أو انجلترا — لأنها دولة لها قدس ولها كرامة . المسيحى الحق لا يجعل الدولة أساساً لتفكيره ، وإنما يضع العالم بأسره نصب عينيه كلما خطا خطوة أو قام بعمل . وهكذا ثار تولستوى على الدولة كلما ثار على الكنيسة من قبل ، وأعلن « أنه لا يستطيع أن يعترف بالدول والأمم ، ولا أن يشترك فيما ينشب بينها من شجار ، لا بالكتابة ولا بالعمل . وأنه لا يستطيع أن يساهم فى عمل يقوم على العداوة بين دولة وأخرى ، كالعوائد والضرائب ، وصناعة المفرقعات والأسلحة ، وكل تأهب للحرب أو استعداد لها » . الرجل المؤمن عند تولستوى لا يحاول أن يفيد من نظم الدولة ، ولا أن يثرى تحت حمايتها ، ولا أن يبنى لنفسه مستقبلا فى ظلها ، ولا أن يتوجه إلى قاض من قضاتها .

الرجل المؤمن لا يستغل ما تنتجه الدولة من صناعة ، ولا يستخدم فى حياته شيئاً من عمل الآخرين ، ولا يرضى أن يكون من المالكين . الرجل المؤمن لا يداول النقد ، ولا ينتقل بقطار أو سيارة ، ولا يشترك فى انتخاب برلمانى ، ولا يشغل وظيفة عامة ، ولا يقسم يمين الإخلاص لقيصر أو لأية سلطة أخرى ، لأنه لا يدين بالطاعة إلا لله وحده دون سواه ، ولكلماته التى أنزلها على لسان أنبيائه المرسلين . المؤمن عند تولستوى أو قل عند هذا الرجل الفوضوى الثائر — لا يحكمه غير ضميره ، ومن أولى واجباته أن ينكر الدولة ، وأن يعيش خارجها على قواعد أخرى من الأخلاق . وهو بهذا يختلف عن الثائر السياسى الذى يمقت الدولة ولا ينكرها .

ويثور تولستوى على نظم الجماعة السائدة ، ولكنه لا يشير بمقاومتها بالعنف والشدة — كما قدمنا — لأن الثورة تحارب الشر بالشر ولا تنتهى إلى خير . ومن أقوال تولستوى فى هذا الصدد : «إن المقاومة السلبية الفردية هى وحدها السبيل المشروعة للعراك . وعلى المسيحى أن يكابد مظالم الدولة وأن يتحملها دون أن يقرها أو يعترف بها ، وألاّ يعارض القوة بالقوة ، لأن العنف معناه اعتراف بالقوة ومبدأ الشر» . ولذا فالثائر الذى يستمع إلى

تولستوى يُضرب ولا يَضرب ، ويُظلم دون أن يَظلم . لا يطمح إلى القوة ، ولكن القوة لا تزحزحه عن رأيه ، وهو لا يكافح (الدولة) ، و إنما ينبذها غير آبه بها ولامكترث لها لأنه لا ينتمى إليها.

والفرق واضح عند تولستوى بين المقاومة السلبية الدينية ، و بين الكفاح الإيجابى ، فهو يقول : «إننا حين نقابل الثائرين نظن خطأ أنا نلتقى و إياهم فى الرأى ، فكلانا ينادى أن لا دولة ولا ملكية ، ولا ظلم ولا عسف ؛ ولكن هناك فارقاً بين المسيحى المؤمن والثائر السياسى ، فالدولة عند الأول لا وجود لها ، أما الثانى فيفرض قيامها و يعمل على تحطيمها . والملكية عند المؤمن لا وجود لها ، أما الثائر فيفرض وجودها و يعمل على محوها . والناس جميعاً عند المؤمن سواء ، أما الثائر فيلمس الفوارق بين الطبقات ، ويعمل على إزالتها . والثائر يتظاهر بالكفاح ، والمؤمن يبطنه ولا يرفع به صوتاً » ! و يرى الكاتب أن الثورة الدينية إذا التزمت حدود المقاومة السلبية ، كانت أخطر على الدولة من الثورات العنيفة والجمعيات السرية الهدامة . فإنك إن أردت أن تغير نظام العالم ، كان عليك أولاً أن تغير ضمائر الناس ونفوسهم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وإنما يرمى تولستوى إلى ثورة باطنية ، ثورة لا تقوم على السلاح ، و إنما على

الضمير الذى لا يلين ، والفرد الذى لا يشكو ألماً ولا ظلماً — هى ثورة القلوب لا ثورة السواعد .

وهذه النزعة المعادية تذكرنا برسالة لوثر (حرية الرجل المسيحى) ، وهى قوية ولا شك ، فعّالة ولا ريب ، ولا يتبين ضعفها إلا حينما ينتقل تولستوى من هذا النداء إلى تقرير الذات ، إلى نظرية إيجابية فى تأسيس الدولة . وقد أدرك الكاتب أن الإنسان لا يعيش فى فراغ لا مكان له ، ولا يحيا فى جيل بغير زمان ؛ ولا بد لألوف البشر أن تتجمع ، ولمختلف الآراء أن تتقابل . ولا مناص من وضع الحدود والقواعد لحياة مستقرة ، سواء انتهينا بذلك إلى إقامة الدولة أو لم ننته . إنما ينبغى على أى الحالين أن نفصل بين الخير والشر ، و بين الخطأ والصواب . وهنا عند وضع الحدود والقواعد تتوعر السبيل على تولستوى كما توعرت على مئات المفكرين من قبل ، لأن بناء الجماعة أشق من هدمها .

(٤)

وفى اللحظة التى ينتقل فيها تولستوى من التشخيص إلى العلاج ، فى اللحظة التى لا يكتفى فيها باتهام النظام الاجتماعى الحاضر و إنكاره ، بل يتعدى إلى اقتراح يقدمه لإصلاح الجماعة

البشرية — فى هـذه اللحظة ترى كيف تغمض آراؤه وكيف تضطرب أفكاره . فهو يستبدل (الحب) بهذه (الدولة) المستقرة الموحدة ، بما فيها من سلطان وقانون ، وما فيها من قدرة على التنفيذ . الحب عنده هو السبيل الوحيدة لتقريب المصالح المتعارضة ؛ وهى وسيلة غامضة ؛ وعجيب أن تصدر عن رجل بحث فى أعماق النفس البشرية بحثاً لم يسبقه إليه أحد ! ويرى تولستوى أن الهوة العميقة التى تفصل اليوم بين المالكين وغير المالكين ، تزول إذا تنازل الملاك طوعا عن أملاكهم وقلّت مطالبهم فى الحياة ؛ ليتنازل الغنى عن ثروته ، والمتعلم عن غروره ، وليخلق الفنان أعماله ليفهمها عامة الناس ، وليعش كل فرد بعمله ، ولا يتقاضى عليه أكثر مما يحتاج لحياة ساذجة بسيطة .

ومجمل الرأى عند تولستوى أن التسوية الاجتماعية ينبغى ألّا تبدأ من أسفل كما يريد الثائرون حينما ينادون بانتزاع الملك من مالكه بالعنف والقوة ؛ وإنما يجب أن تبدأ من أعلى بتنازل تلقائى من جانب الأثرياء والأغنياء .

وكان تولستوى يعلم حق العلم أن الهبوط إلى مستوى وضيع فى الحياة يهدم كثيراً من مظاهر الثقافة العالية ؛ وكان يخشى ألاّ نأخذ برأيه إشفاقا منّا على صرح هذه الثقافة أن يتقوض ؛

ولذا فقد كتب رسالة فى الفن يحط من شأن كبار الفنانين ، حتى من أمثال شكسبير و بيتهوفن ، لأن منتجاتهم فوق مستوى العامة ، ولا يفيد منها أكثر الناس ؛ ووجه تولستوى كل همه إلى تحطيم ذلك الحائل القائم بين الغنى والفقير ، والذى لا ينجم عنه إلا كل شر . فإذا سوينا بين الناس فى المطالب والحاجات ارتبطت قلوبهم برباط المودة والائتلاف ، لأن غرائز الشر من حسد و بغض ومنافسة ، لا تجد لها بعد هذا هدفاً تهاجمه وتتجه وجهته . وفى هـذه الجماعة الجديدة لا تنشأ الحاجة إلى السلطة الحاكمة أو إلى حمايتها بالعنف والقوة ، و إنما يسود العدل إذا لم يعد على وجه الأرض سيد ومسود ؛ و إذا لم يكن بين الإنسان وأخيه الإنسان غير رابطة الحب والإخاء .

وكانت هذه الرسالة فاتنة جذابة فى بلد كالروسيا بلغ التناقض فيه بين طبقة وطبقة حداً بليغاً . وكان نفوذ تولستوى قويا شديداً ، فرغب كثير من أهل روسيا فى الأخذ بنظريته الاجتماعية . وحاول بعضهم بالفعل أن ينقل هذا الرأى الجديد من عالم القول إلى عالم العمل بتأسيس مستعمرات لا يكون للملكية أو العنف فيها أثر . ولـكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، ولم يفلح تولستوى فى إقامة مبدئه الجديد حتى فى بيته و بين أهله وذويه ، وحاول

أن يوفّق بين حياته الخاصة و بين نظرياته ، فتنازل عن حبه للصيد ، ولم يأكل اللحم إشفاقا على الحيوان ، ولم ينتقل بقطار أو سيارة ، ودفع كل ما درَّه عليه قلمه من ربح إلى جمعيات الإحسان . وأخذ يفلح أرضه بنفسه ، وارتدى ثياباً خشنة ، وعمل حذاءه بيديه .

ولكنه — رغم هذا — لم يستطع أن يصد تيار المعارضة الشديد ، حتى بين أفراد أسرته وأقربائه وأعزائه . فقد أنكرته زوجه ؛ ولم يرض أبناؤه أن ينشأوا كما ينشأ الفقراء ، والمال لديهم وافر ؛ وظنوا بأبيهم مسًّا أو ضربا من الجنون . وأخذ الكتاب والأدباء يعارضون رأيه فى الملكية ولم يعترف له أحد من معارفه أنه يعيش عيش المسيحى المؤمن . وقد أدرك تولستوى نفسه فى نهاية الأمر — كما يتبين من مذكراته اليومية — أنه فشل فى بث أفكاره بين الناس ، وأن آراءه لا تصلح للانتشار . ولم يثابر هو نفسه على العيش وفقاً لمبدئه . وقد جاءت فى مذكراته هذه العبارة : « أى تولستوى ! هل أنت تعيش وفقاً لعقيدتك ؟ كلا . إنى لأموت خجلاً من نفسى ، و إنى لآثم أستحق الازدراء . »

(٥)

ولما بلغ الرجل الثالثة والثمانين أحس الموت يدنو منه ، ففر من بيته ليلا ، وطفق يهيم على وجهه حتى مات فى العراء وحيداً مخيَّب الرجاء فى نظراته وآماله .

ولعله من التعسف على الرجل ومن عدم الإنصاف له بعد موته أن نقول إن رأيه فى الاجتماع والدين والسياسة قد انتهى إلى ما انتهت إليه مدينة أفلاطون الفاضلة أو نظام جان جاك روسو الاجتماعى ! ولئن كان تولستوى قد ضل السبيل فى بعض رأيه ، وفشل بعض الشىء فى بث عقيدته ، فلقد أصاب كل النجاح كأديب فى قصصه ورواياته وتصوير عصره وأبناء جيله . ونحن — فضلا عن هذا — ندين له بالكثير من النظر الاجتماعى . فقد كان له علينا أثر لا ينكر ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن أحداً من المفكرين من معاصريه — حتى كارل ماركس أو نيتشه — لم يؤثر فى ملايين البشر كما أثر فيها هذا الرجل . وتستطيع أن تلمس رأيه فى كل فكرة ثائرة تنبت فى رأى أبناء هذا الجيل . ويخطئ بعض قارئيه فهمه فيحسبونه بلشفيا ، والرجل من البلشفية براء ؛ فالبلشفيه ترمى إلى سحق من يعاديها ؛ ويرمى

هو إلى التوفيق بين الأفراد عن طريق العطف والحب ، والبلشفية تعطى الدولة — وهى شيطان تولستوى — نفوذاً واسعاً على الفرد ، وتركز السلطة ، وتنكر الله ، وتعمل على إثارة الجماهير ؛ وهو ما لم يقل به تولستوى أو يعتقد فيه . ورغم هذا كله تستطيع أن تقول إن أحداً من الثائرين فى الروسيا فى القرن التاسع عشر لم يمهد السبيل (للينين) و (تروتسكى) كما فعل هذا الرجل عدو الثورات ، الذى طالما نادى بأن التوفيق بين الجماعات شرط ضرورى لإنشاء عالم خير من عالمنا هذا . وقد حرمت السلطة نشر مؤلفاته ، فنسخت بخط اليد و بلغت آلاف القراء ، ودفعت مواطنيه إلى الجرأة ، فكان — رغم إرادته — أكبر باعث على الثورة الروسية ، كما كان روسو أكبر باعث على الثورة الفرنسية .

ومن العجيب أن تعاليم تولستوى كان لها أثر عكسى على ألوف أخرى من الناس . فبينما ترى الروسيا تأخذ بمبدأ الثورة على الجماعة ، ترى غاندى وأتباعه فى الهند يأخذون عن هذا الرجل مبدأ المقاومة السلبية ، ويلجأ غاندى إلى سلاح تولستوى الذى لا يتلطخ بالدماء ، فيهجر الصناعة الآلية ، ويأخذ

الصناعة البيتية ، ويطلب الاستقلال الاقتصادى عن طريق الحد من الحاجة المادية .

* * *

إن الفكرة الرفيعة لا تتجه وجهة بعينها ، وإنما يسيرها الزمن كما تسير الريح السفينة . وإنما الآراء قوى محركة تنتج الحركة دون أن تعلم إلى أين المسير ، وليس عجيباً إذاً أن تكون الروسيا الثائرة والهند المسالمة من صنع هذا الرجل ؛ فإنك إن أردت نشر السلام ألفيت بين سطور هذا الكاتب مايدعم رأيك ويقوى حجتك ، وإن أردت ثورة نفسية على قدس الدولة وجدت لنفسك غذاء فيما كتب !

إن كل رجل سياسى أو اجتماعى يستطيع أن يستمد من نقد تولستوى لعصره ثاقب الرأى ونافذ البصيرة ، كما يستطيع كل أديب أن يستوحى هذا الشاعر العظيم ، الذى أنزل بنفسه العذاب كى يفكر للجميع ، وكى يحارب الظلم بقوة القلم !

كان تولستوى مثالا يحتذى فى قوله وفعله ، ونال من الشهرة أقصاها ، ولم يحاول أن يستغل نفوذه فى الوصول إلى مناصب الحكم . وإنما خصصه للخدمة الإنسانية جميعاً ؛ ولم يخضع كفاحه لخلق عالم جديد إلا لسلطة واحدة على الأرض : هى سلطة الضمير الذى يهتدى إلى الحق ويسلك إليه سواء السبيل .

كارل ماركس

١٨١٨ — ١٨٨٣

(١)

ولد كارل (هنريك) ماركس فى ترير[١] فى اليوم الخامس من شهر مايو من عام ١٨١٨ . وهو ينتمى من ناحيتى أمه وأبيه على السواء إلى سلالة عريقة من حاخامات اليهود . غير أن أباه — وهو محام ضليع مجدّ حى الضمير — انقلب من اليهودية إلى التحرر من الأديان ، ثم اعتنق المسيحية أخيراً . وعمد نفسه وآل بيته فى عام ١٨٢٤ وانتسب إلى الكنيسة الإنجيلية القومية . فلقد أراد — كما يقول — أن ينقذ أطفاله من حياة أليمة ، وذلك بفصلهم عن الجنس اليهودى المضطهد .

وعبثاً ما حاول ، فإن إنقاذه لبنيه من الاضطهاد الذى يعانيه الجنس اليهودى لم ينقذهم من الاضطهاد الذى يكابده « الجنس البشرى » . فلقد فجعه الله فى ابنين وابنتين وهم فى سن الحداثة ، راحوا جميعاً ضحية التدرن الرئوى . وعاش ثالث أبنائه وأحبهم

(١) Trier .



کارل مارکس

إليه — كارل — ليصبح البطل فى قصة محزنة من قصص القرن التاسع عشر .

كان كارل عبقريا للعالم ، وعاراً على أمه ، إذ كانت تشكوه فى شيخوختها وتقول : « وددت لو أن كارل انصرف إلى جمع رأس المال بدلا من مجرد السخرية منه ! »

(٢)

كان كارل فى صباه طالباً مجدا وقاد الذهن ، عرف بإغراقه فى الأحلام الخيالية ، وبميله إلى الآراء المتطرفة . وقد كرس حياته وهو فى الجامعة لخدمة زملائه ، لا يتقاضى فى سبيل ذلك أجراً ، ولـكنه يجد أقصى ما يتمنى من متعة ولذة . وهو فى ذلك يقول : « إن المرء إذ يختار لنفسه عملا يقدم به الخير للإنسانية لا يمكن أن ينوء بعبء عمله مادام يشعر بأن فيه تضحية لمصلحة المجموع . . . إن أسعد الناس من يجلب السعادة لأكبر عدد من الناس . والدين يرسم لنا المثل الأعلى الذى نجاهد جميعاً فى سبيله — وذلك أن نضحى بأنفسنا فى سبيل الإنسانية . »

وكان والد ماركس غير راض عن مسلك ابنه فى الجامعة . فدرس كارل القانون — كارهاً — لـكى يرضى عنه أبوه ،

ودرس العدالة — راغباً — لكى ترضى عنه نفسه . ولم يكن كارل — برغم ذلك — زاهداً . بل لقد كان يشرب الخمر ويلعب الميسر ويجيد الضرب بالسيف فى النزال . وأحب كثيراً من النساء ، وأفتن من ملكت عليه لبه منهن چنى فون وستفالن[1] أبرعهن جمالا وأكثرهن فطنة وذكاء . ولم يعد كارل الثامنة عشرة من عمره فى ذلك الحين — وهو من أصل يهودى — فكان مما يثير العجب فى النفوس أن تأسر قلبه هذه الفتاة التى كان يطلق عليها أبناء المدينة « أميرة الأرستقراط فى بلدة ترير » . وأشد من ذلك عجباً أن تعشق الأميرة كارل عشقاً تحدث الناس عنه . فتزوجا بعد أن هام كل منهما بالآخر سبع سنوات . وعاشا منذ قرانهما ثمانية وثلاثين عاماً — حتى وافى الأجل چنى — فى محبة ومودة على السراء والضراء ، وكثيراً ما كانا يأكلان الخبز بغير إدام ، ولا يشربان سوى نبيذ المحبة والوئام . وبرغم ما لقيا فى حياتهما من مشقة وعذاب ظل كل منهما يخلص الحب للآخر حتى أدرك الموت جنى ، وفرقت بينهما المنية .

وفى عام ١٨٤١ حصل ماركس على شهادة الدكتوراه ،

---

(١) Jenny Von Westphalen .

من جامعة جينا . فحاول أن يرتزق من تدريس القانون فى أى معهد من المعاهد . ولكنه كان يقابل بالرفض فى كل مكان لأنه كان متقدما فى رأيه ، ثوريا فى مذهبه . ألم يدبج رسالة فى فلسفة أبيقور المادية ؟ إن أرض بروسيا لا تتسع للمفكرين الأحرار ، بل لا تتسع للمفكرين إطلاقاً ، أحراراً أو غير أحرار ، جامدين أو متطورين .

تقدم كارل ماركس مرة يطلب الاشتغال بالتدريس فرفض لمبادئه التى عرفت عنه . ويقال إن الرجل الذى رفض طلبه هو بعينه الرجل الذى أبى أن تنشر « الكوميديا الإلهية » لدانتى بالألمانية قائلا : «لا ينبغى لنا أن نجعل من الإلهيات كوميديات» ، ولكن كارل الذى لم يفلح فى وظيفة التدريس أفلح ثائراً محرضاً على الثورة ، وقد استطاع بذهنه الحاد وأسلوبه الأدبى اللاذع أن ينضم إلى الحركة الثورية المندلعة فى ذلك الحين فيزيد لهيبها أواراً وسعيرها ناراً . وبعد بضعة أشهر ارتفع إلى قمة الثائرين ، وبات زعيم الانقلاب الفكرى الجديد . كتب عنه المؤرخ الألمانى موسى هس لصديق له يقول : « يسرك أن تقابل كارل ماركس — أعظم الفلاسفة الأحياء . بل لعله الفيلسوف الحق الوحيد ، . . . وبرغم حداثة سنه — فهو لا يزيد عن الرابعة

والعشرين — فإنه يجمع إلى الجد الفلسفى العميق النكتة البارعة اللاذعة . صور لنفسك روسو وفلتير وهلباخ وهين وهجل وقد انصهروا فى شخص واحد — وأقول انصهروا ولا أقول انضموا معاً — يكن لك الدكتور كارل ماركس . »

تقدمت الطبقة المثقفة من الألمان تحت زعامة كارل ماركس من ثورة على الآداب والفنون إلى ثورة على أوضاع المجتمع . لم يكفهم الآن أن يقلبوا أوزان الشعر ، وقواعد الدراما وحبكها ، بل أرادوا أن يؤججوا ثورة على قواعد الحياة نفسها ، وطرق حبكها . فتطورت ثورة جيتة الأدبية إلى ثورة اقتصادية يقود زمامها كارل ماركس .

ولكى يفسر ماركس هذه الثورة الاقتصادية للعمال شرع يكتب سلسلة من المقالات عن اليقظة الاجتماعية الجديدة . وسرعان ما صودرت الصحيفة التى كان ينشر فيها هذه المقالات . غير أن ماركس لم تفتر همته ، فهاجر إلى باريس ، ومنها واصل حملته على الحكم الاستبدادى وعلى الحكم الثيوقراطى (الدينى) بمختلف المقالات والنشرات . وفى هذه المقالات التى كتبها فى باكورة حياته تستطيع أن تتبين معالم فلسفته الكبرى فى مستقبل حياته . فى هذه المقالات يقول إن الدين — ويعنى به ما وعد الله

به المحرومين فى الأرض بالنعيم فى السماء « كالمادة المخدرة للجماهير » وفيها كذلك يقول : « كلما شاعت العقيدة فى الحكم الملكى كانت عامة الناس ذات أهمية صغرى . وإذا لم يكن هناك من يناوئ المبدأ الملكى فكأن الدولة تخلو من الرجال » وفيها كذلك يقول « إن الفلاسفة لم يصنعوا شيئا أكثر من أن يفسروا لنا العالم ... وإنما واجبنا أن نقلبه ونصحح فيه الأوضاع . »

غير أن رغبة ماركس فى تعديل الأوضاع فى عالمنا هذا كانت تتضارب ورغبة الطبقات العليا التى كانت تتمنى أن يسير العالم الهوينى كما هو ، فهم به على هذا قانعون . وقد اتهمته الحكومة الجرمانية بالخيانة الكبرى . وبهذه التهمة أُبعد عن الوطن . ولو عاد إلى ترير أو إلى أية مدينة أخرى فى ألمانيا لأُلقى عليه القبض ، وربما سيق إلى الموت . وعلى أثر نفيه من ألمانيا أصدرت الحكومة الفرنسية قرارا بضرورة رحيله عن باريس . فرحل إلى بروكسل حيث واصل تربيته للعمال ، يعرفهم بحقوقهم ، ويبين لهم كيف يتسنى لهم أن يظفروا بهذه الحقوق . الإنسان — عنده — أثر من آثار البيئة ، ولكنه ينبغى ألا ينسى كذلك أن البيئة أثر من آثاره . التاريخ يخلق الإنسان ، ولكن الإنسان يستطيع كذلك أن يخلق التاريخ . ومعنى هذا بعبارة أخرى أننا خالقو التطور ومن خلقه فى آن .

كان ماركس إذن يرى الإنسان آلة سلبية فى عملية التطور ، كما يراه شريكا فعالا ذا أثر فيها . وهذا هو حجر الزاوية فى تفسير ماركس المادى للتاريخ . و بناء على هذه النظرية نستطيع أن نتعجل تقدم العالم بالتحول من « التطور » إلى « الثورة » أو الطفرة كلما بدت لنا هذه الخطوة ضرورة من الضرورات .

وأهم الثورات جميعاً عند كارل ماركس هى الثورة « الاجتماعية » ويقصد بها نهوض الطبقة العاملة « التى تحتمل أعباء المجتمع جميعا دون أن تستمتع بمزاياه . »

كان الفلاسفة قبل ماركس يبحثون فى فكرة الله البعيدة . ولكنه شغل نفسه بمشكلة أخرى أدنى إلى حياتنا من فكرة « الله » . هى مشكلة العمال المأجورين[1] (والمعنى الحرفى للكلمة الإفرنجية هو الرجل الذى يعول أطفالاً كثيرين) . يقول ماركس إن التاريخ بأسره إن هو إلا نضال طبقى بين المالكين والمأجورين ، أو بين الحائزين والمحرومين ، أو المستغِلين والمستغَلين ، أو السادة والعبيد . والعمال — كما يقول — يحرزون النصر بين الحين والحين ، ولكنه نصر زائل لا يدوم . غير أنا يجب ألا ننسى أن تنظيم هيئة العمال ينمو على مر الزمن و يقوى .

---

(١) Proletariat .

ولما كانت مصالح العمال فى العالم كله مشتركة (ومن هنا جاءت كلمة « الاشتراكية ») فإن حركتهم تتخطى حدود القوميات وتصبح حركة عالميـة . « الاشتراكيون فى كل مكان يؤيدون كل حركة ثورية ضد الظروف الاجتماعية والسياسية القائمة ... الاشـتراكيون أعظم من أن يخفوا آراءهم وأغراضهم . إنهم يعلنون صراحة أنهم لا يستطيعون تحقيق أغراضهم إلا بقلب النظام الاجتماعى الحاضر بالعنف والقوة . ولترتعـد الطبقات الحاكمة عنـد ما تنظر إلى أفق المستقبل فترى ثورة اشتراكية . العمال (المأجورون) ليس لديهم ما يفقدونه غـير الأغلال . وأمامهم الدنيا بأسرها يكسبونها إن صحت عزائمهم . أيها العمال فى العالم طراً . اتحـدوا وتعاونوا ولا تفرقوا ! » تلك هى دعوة ماركس للعمال فى أنحاء العالم جميعاً .

(٣)

وحتى آنئذ كان كارل ماركس لا يختلف كثيراً فى نظريته الاجتماعيـة عن الزعيم الوطنى الإيطالى مازينى . فكلاهما كان ينادى بثورة عالمية لتحرير الشعوب . و « نداء الاشتراكية » الذى أذاعه ماركس والذى يضع فيـه فكرته فى أوضح عبارة

وأقواها يصلح أن يكون شعاراً لإيطاليا الناهضة ، بل لأوربا الناشئة بأسرها . وأكبر فارق بين مازينى وماركس هو أن مازينى كان يبشر بالحرية وفقاً لإرادة الله العليا ، فى حين أن ماركس كان يبشر بها لأن الحياة تقتضيها .

وحتى ذلك الحين لم يبن كارل ماركس آراءه على البحث العلمى ، بل كان مدفوعاً بثورة نفسية عنيفة . و « نداؤه الاشتراكى » الذى نشره عام ١٨٤٨ — حينما كانت أوربا بأسرها تضطرم بنار التمرد والعصيان — كان إلى النداء الحار إلى حمل السلاح أقرب منه إلى البحث الفلسفى الهادئ . ولم يتعلم ماركس حتى آنئذ أن يقيم فلسفته للتاريخ على أساس من الاقتصاد . إنما همه الأول إلى الآن أن يبعث الثورة فى نفوس العمال فى العالم لا أن يعلمهم ويبصرهم بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

ولما كانت الطبقة الحاكمة فى أوربا تريد أن تخمد نفوس العمال ، فقد نظر أفرادها إلى ماركس كرجل يزعج الأمن والسلام — اللذين يقومان على الحكم الأوتوقراطى والنظام الرأسمالى . ولذا فقد طاردوه من بلد إلى آخر ، حتى استقر به المقام فى إنجلترا ، وكان ذلك فى عام ١٨٤٩ .

وإنجلترا فى ذلك الحين كانت أكثر بلدان أوربا حرية ، فكانت تدعى « موئل المنفيين » . كانت متحررة من حكم الاستبداد ، فكانت لذلك متحررة من الخوف من نشوب الثورات . ومن أجل ذلك استطاعت أن تأوى من كان طريداً بغير مأوى من أبناء الأمم الأخرى . وعُرفت الحكومة الإنجليزية بكرم الوفادة وبعدها عن التحيز ، وهما صفتان من أهم الصفات التى تميزت بها إنجلترا فى القرن التاسع عشر .

بلغ ماركس لندن خالى الوفاض لا يحمل فى جيبه دانقاً ولا فلساً ، وأخذ يدعو لقضية العمال المأجورين ، وهو نفسه نموذج لأولئك المأجورين . كان فقيراً معدماً عليه أن يعول نفسه وثلاثة أطفال أحياء — ورابعاً يُرزقه بعد بضعة أسابيع .

والآن دعنا نلقى نظرة على هذا الرسول الداعى للعمال وهو يطأ بقدميه هذا البلد الجديد الذى اتخذه موطنا له حيث لاقى صنوفا من الآلام والعذاب . كان فى الحادية والثلاثين من عمره فى ذلك الحين . « له شعر فوق رأسه كث غزير أسود ، ولحية ضخمة مستديرة ، ويدان مشعرتان ، ويرتدى معطفا مهملا . غير أنه يبدو للرائى وكأن الطبيعة وهبته القوة والحق اللذين يدعوان إلى احترامه مهما يكن مظهره وأيا كان ما يفعل . حركاته غير متزنة

ولـكنها جريئة تنم على الثقة فى النفس . وآدابه لا تتفق البتـة ومواضعات الحياة الاجتماعية . فى نفسه كبرياء ، بل عنده لغيره ازدراء . وصوته الأجش برنينه المعدنى يتلاءم كل الملاءمة وآراءه الثائرة عن الناس والأشياء . »

سريع الغضب عنده كثير من الصلف والغرور . يسخر من كل من يخالفه الرأى ولا يتسامح معهم وهو يناقشهم الحساب . أعصابه فى توتر دائم ، فإن تراخت فى لحظة ما ، ألفيته وديعاً ليناً شفيقاً متفانياً فى خدمة الآخرين .

ولعل سرعة غضـبه ترجع إلى آلامه التى لم تنقطع . فهو وأفراد أسرته الستة — كما يقول أحد مؤرخيه — كانوا مكدسين فى حجرتين صغيرتين ، يسدون رمق الجوع فى يوم ولا يعلمون من أين لهم قوت الغد . وقد اضطروا إلى بيع ثيابهم وأحذيتهم ، حتى أرغم ماركس قسراً وكرهاً أن يلزم داره ، لأنه يعدم المعطف الذى يرتديه للخروج . وحُرم اللحم فى غذائه لأن القصاب أبى أن يدينه بعد هذا .

وفى عيـد الفصح من عام ١٨٥٢ ، اختار الله إلى جواره إحدى بناته . وقد كتبت أمها تقول : « إن ابنتنا الصـغيرة المسكينة فرانسسكا أصيبت بالتهاب رئوى حاد . وظلت هـذه

الطفلة البائسة ثلاثة أيام تغالب الموت حتى غلبها ، وما أشد ما عانت من ألم . فلما فاضت روحها لبثت جثتها الصغيرة ملقاة فى غرفة خلفية صغيرة . وفى المساء استلقينا على أرض الغرفة ... وقد ماتت هـذه الطفلة ونحن فى أقسى محنة وأشد حاجة ... فتصدق علىّ لاجئ فرنسى بجنيهين . وبهذا المبلغ اليسير استطعت أن أبتاع الكفن الذى تتستر به الآن طفلتى المسكينة وادعة فى نومها الأبدى . هبطت إلى هـذه الدنيا يوم ولدتها ولم تجد لها سريراً يتلقاها ، وعنـد ما لفظت أنفاسها الأخيرة وجدنا مشقة كبرى فى الحصول على صندوق يأوى جثمانها الطاهر فى مرقدها الأخير . »

إن الفقر والجوع والمرض كانت ضيوفاً ثقلاء على بيت ماركس أمداً طويلاً . وقد كان الرجل كاتباً من أكبر كتاب القرن التاسع عشر ، ولكنه — برغم ذلك — لم يستطع أن يكسب قوته بقلمه . ذلك لأنه أتى بدين جديد يبشر به ويبيعه الناس . والدين الجديد فكرة لا تلقى من النـاس عادة جزاء ولا شكورا . وقلّ من الناس من دفعته الرغبة إلى قراءة آرائه الانقلابية الثائرة . وأقل منهم من يدفع لهذه القراءة ثمناً .

قال قائل : « إن المبشرين بديانة جـديدة لا ينبغى لهم أن

يتزوجوا ، لأن من يتطوع لحمل الصليب لا يحق له أن يلقى عبئه الفادح على عواتق أطفال صغار . » وقد أوشكت أسرة كارل ماركس كلها أن تفنى من الجوع والألم ، لولا أن أدركهم فردريك انجلز بعطفه وجوده وكرمه . كان انجلز يقوم بعمل الكاتب فى مصنع أبيه ، ولا يتقاضى نظير عمله سوى الأجر اليسير ، ولكنه كان من آن لآخر يتبرع بماله لماركس يسد به نفقات عيشه فيعينه عليها بعض العون . وهذه التضحية المادية التى كان يقدمها انجلز لصديقه ماركس وأسرته البائسة صفحة ذهبية فى تاريخ البشرية بأسرها . وقد دامت الصداقة بين الرجلين دهراً طويلا ، لم يكف فيها ماركس عن استجداء صديقه انجلز، ولم يكف فيها انجلز عن معونته بالمال اليسير الذى كان يتقاضاه . لم يتضجر مرة واحدة ولم يمتنع عن تقديم المساعدة يوماً واحداً . ويقول ماركس فى إحدى رسائله لصديقه : « خير لى أن أبتر إبهامى من أن أكتب إليك أطلب المساعدة » فيرد عليه انجلز كعادته بشيك قيمته عشرة جنيهات ، ثم بآخر قيمته عشرون جنيهاً ، ثم بهدية قيمتها ثلاثون جنيهاً ، وهكذا ...

ذلك لأن انجلز كان يعتبر صداقته مع ماركس شركة مادية لتحرير البشرية . فكان انجلز يقدم المال لكى يمسك

على كارل حياته . وماركس يكب على تأليف كتابه العظيم « رأس المال » أو إنجيل العمال . وقد وقع هذا الكتاب عند نشره وقع الصاعقة لدى أصحاب النظريات الاقتصادية العتيقة . وماذا عسى يا ترى أن تكون الآراء الأساسية التى تحتويها فلسفة ماركس الانقلابية الجديدة ؟ سنحاول أن نشرحها بإيجاز فيما يلى .

(٤)

إن اختراع الآلة كان بداية لعهد جديد فى تاريخ العالم ، هو العهد الصناعى . وتربع المال على عرش السلطان . وارتفعت إلى مراكز السيطرة فى الدولة طبقة المولين وأصحاب المصانع والمتاجر — وهى طبقة البورجوازى . وتخلى أصحاب الضياع عن سلطانهم لأصحاب الأموال . واتخذ العمال المأجورون فى المصانع مكانة الرقيق فى عهد الإقطاع .

وقد أشار ريكاردو قبل ماركس إلى أن الرأسمالية تقوم على أساس استغلال العمال . ولكنه لم يوضح الباعث على هذا الاستغلال ، ولم يحاول أن يصف له الدواء . أما ماركس فقد شخص الداء ووصف الدواء .

يرى ماركس أن العمل بضاعة . والرجل الذى يشترى

العمل (ويعنى به صاحب المصنع أو المزرعة أو أى عمل آخر) — كالرجل الذى يشترى أية سلعة أخرى — يحاول أن يحصل عليه بثمن بخس ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وتقاس قيمة السلعة بتكاليف إنتاجها ، وتقاس قيمة العمل بالحد الأدنى للأجر اللازم للاحتفاظ بحياة العامل و بمقدرته على العمل .

ور بح صاحب رأس المال يتوقف على حصوله على العمل رخيصاً ما استطاع . والفرق بين ما ينتجه العامل وما يتقاضاه هو قيمة العمل الفائضة — وهو ر بح صاحب رأس المال .

لأن العمل عند صاحب المال — كما يزعم ماركس — شىء غير شخصى . والعامل ليس بشراً من البشر ، إنما هو « يد » عاملة كما تعبر لغة الرأسماليين . إنه يشترى بأبخس ثمن مستطاع ويباع إنتاجه بأغلى ثمن يمكن الحصول عليه . وهذا موقف لا يلام عليه الرأسمالى أكثر مما يلام عليه العامل نفسه . كلاهما أداة للقوانين الاقتصادية التى لا سلطان لهم عليها .

العامل إذن يعطى أكثر مما يأخذ . وينتج أكثر مما يستهلك . وهذا الانعدام فى التوازن يؤدى إلى نتيجة عجيبة : تخرج إلى العالم مصنوعات أكثر مما يستطيع صانعوها شراءه . وهذه المصنوعات تتكدس سنة بعد أخرى حتى يلزم فى النهاية

إيقاف زيادة الإنتاج كى يمكن استهلاك الزائد من السلع . وهذا التوقف عن إنتاج السلع الجديدة يؤدى إلى تعطل العمال عن العمل وفقدهم وظائفهم ، وانحطاط قدرتهم على الشراء ، فتبقى السلع المكدسة بغير مشتر ، ولا يمكن تفريغ المخازن المترعة بالبضائع «ويموت العامل جوعاً لأن بالعالم فيضاً من الطعام ! » .

ويقول ماركس هذه هى المأساة المروّعة التى يسوقنا إليها النظام الرأسمالى ! ومالم نستبدل بهذا النظام غيره فنحن حقيقون بأن نعانى أزمة مالية مرة فى كل عشر سنوات . وقد تحققت نبوءة كارل ماركس بغير إخلال حتى الكساد المروع الذى حدث بعد عام ١٩٣٠ .

ومن حسن الحظ أن العلاج — كما أشار ماركس — من طبيعة الداء نفسه . فإن ازدياد الآلات يستتبع تركيز رأس المال فى أيدٍ قلائل . وإذن « فليستول العمال على الآلات ويعملوا بأنفسهم لأنفسهم ... بهذه الطريقة لا تعانى الكثرة الحرمان بسبب ما عند الأقلية من شره » وينتهى ماركس من ذلك بقوله : إن تركيز الرأسمالية — سواء رضينا أو لم نرض — يمهد الطريق قطعاً — وإن يكن على مهل — لتحقيق الاشتراكية . وليست فوضى النظام الحاضر سوى مرحلة ضرورية للانتقال من عهد

الإقطاع فى الماضى إلى عهد النظام التعاونى فى المستقبل .

لقد وضع كارل ماركس إصبعه على موضع الألم فى النظام الاقتصادى الحاضر . وقلّ من الناس من ينكر ذلك . ويستحيل الآن أن نقرر هل وجد العلاج الناجع له أم لم يهتد إليه بعد . ولنذكر هنا عرضاً أن كارل ماركس وحده هو الذى تنبأ فى عام ١٨٧٧ بأن الثورة الاجتماعية ستبدأ فى الروسيا . ولم يدرك أحد فى عهده صدق نبؤته . فإن تعاليمه الاقتصادية هى اليوم الكتاب المقدس عند الاتحاد الروسى للجمهوريات الاشتراكية السوفيتية .

(٥)

لقد عاش كارل ماركس حتى شهد بعينيه المجلد الأول من مؤلفه العظيم بعد نشره . ولكن المنية عاجلته قبل أن يرسل المجلدين الثانى والثالث إلى المطبعة . وقد ظل سنوات عدة قبل وفاته يكابد الألم من قروح مبرحة انتشرت فى كل أنحاء جسده مصحوبة بصداع يكاد يتهشم منه رأسه . وفى عام ١٨٨١ أصيب بذات الجنب واعتكف فى إحدى غرف داره ، وفى الغرفة المجاورة كانت زوجه تموت بداء السرطان . فنهض بكل مشقة على قدميه ودخل غرفتها ليودعها الوداع الأخير . وقد كتبت

إحدى بناته لصديقة لها تصف لها هـذا اللقاء بين الزوجين فقالت : « كانت أمى فى فراشها فى الغرفة الأمامية الـكبرى ومُهْر (وهو الاسم الذى كانت تطلقه الأسرة على كارل ماركس) فى الغرفة الخلفية . ذلك لأن هـذين الزوجين اللذين تشابكت حياتهما أمداً طويلا بغير انفصام لم يستطيعا الآن أن يتلازما . فغالب مُهْر مرضه وتحامل على نفسه ليرى أمى قبل فراقها الأبدى للدنيا . ولن أنسى ما حييت ذلك الصباح الذى استجمع فيه البقية الباقية من قواه وانتقل من مرقده إلى مرقدها . وكأنهما عادا إلى شبابهما ، عاشقين مولعين يستقبلان الحياة معاً ، لا شيخاً هرماً هدّه المرض ، وامرأة عجوزاً فى النزع الأخير ، يودع كل منهما الآخر وداعاً أبدياً . »

وماتت فرو ماركس فى الثانى من شهر ديسمبر من عام ١٨٨١ ، وتبعها زوجها بعد خمسة عشر شهراً .

رالف ولدو إمرسن

١٨٠٣ — ١٨٨٢

(١)

فى اليوم الخامس والعشرين من مايو من عام ١٨٠٣ ولد رالف ولدو إمرسن فى مدينة بوستن بأمريكا لأب من رجال الدين . و بعد ما تخرج فى جامعة هاڤرد اشتغل بالتعليم ، ولكنه لم يلبث على هذه الحرفة طويلاً ، بل التحق بإحدى الكنائس قسيساً كأبيه . ولما كان يميل بطبعه إلى حرية الفكر ، فقد أخذ يذيع على الناس خلال عظاته مبادئ ثورية لم تتفق وما كانوا فيه يعتقدون . فاشتد سخط العامة عليه ، وتبرمهم به ، حتى اضطر إلى الاستقالة من عمله ، ثم رحل إلى أور با والتقى بكبار كتابها وشعرائها ، وتعرف إلى كولردج ، ووردزورث ، وكارليل . وعاد بعدئذ إلى أمريكا واشتغل أستاذاً بجامعة بوستن ، وألقى كثيراً من المحاضرات العامة التى لفتت إليه الأنظار ، وحينئذ أدرك الناس أن بينهم أديباً كبيراً وقائداً عظيما من قادة الفكر ، وقوة تدفع الرأى الأمريكى إلى الأمام . ومات إمرسن فى



امرسن

عام ١٨٨٢ ، بعد ما اعترف له الأمريكيون جميعاً بالصدارة فى الأدب ، والزعامة فى الفكر .

كان إمرسن عميق الفكر ، ولكنه لم يكن فيلسوفاً بما تحمل هذه الكلمة من معنى . لم يكن فيلسوفاً له مذهب خاص وطريقة خاصة ، بل إنه كثيراً ما يناقض نفسه فيما يكتب وما يقول . وأشهر ما خلف لنا هذا الكاتب العظيم « مقالاته » و « كتاب الطبيعة » و « خصائص الإنجليز » الذى نشره إثر عودته من زيارة انجلترا ، و « نماذج الرجال » الذى صاغه على صورة كتاب كارليل « الأبطال وعبادة البطولة » ؛ وله فوق هذا بعض المقطوعات الشعرية الرائعة .

ومن النقاد من يعتقد أن « نماذج الرجال » خير ما كتب إمرسن . فى هذا الكتاب تخير إمرسن تلك الشخصيات البارزة التى كان يراها نماذج للبشرية . ولو ألقينا نظرة عاجلة على من كتب عنهم من الرجال عرفنا كثيراً عن مبادئه فى الحياة . فلم يشتمل كتابه على رجل من رجال الدين أو رجال الأخلاق والإصلاح الاجتماعى ، إذ لم تكن له ثقة بأمثال هؤلاء من عظماء الرجال . الأبطال عند إمرسن هم أفلاطون الفيلسوف ، وسودنبرج

المتصوف ، ومونتينى المتشكك ، وشيكسبير الشاعر ، ونابليون رجل الدنيا ، وجيته الكاتب .

يقول عن إفلاطون إنه كان يرى العلم والفضيلة شيئاً واحداً ، لأن الرذيلة لا تستطيع أن تعرف نفسها وتعرف الفضيلة ، فى حين أن الفضيلة تعرف نفسها كما تعرف الرذيلة . ثم يقول كذلك : « ليس فى العالم فى وقت واحد أكثر من اثنى عشر شخصاً يقرأون أفلاطون و يفهمونه . وليس من بين هؤلاء من يستطيع أن يشترى نسخة واحدة من مؤلفاته . ومع ذلك فإن هذه المؤلفات تنحدر من جيل إلى جيل من أجل هذه القلة من القراء ، كأن الله يحملها لهم بين يديه . »

و يقول فى الشك عند كلامه عن مونتينى : « من ذا الذى لا تداخله الريبة ؟ إن الإنسان لا يستطيع فى مشكلة واحدة من المشاكل أن يصل إلى حل حاسم قاطع لا يتطرق إليه الشك ... إننا نشك فى نظام الزواج ، وفى الدولة وفى الكنيسة ، كما يشك الشاب فى الطريق التى يسلكها لتكوين مستقبله ... » .

وكان شيكسبير لديه نموذج الشاعر الذى يرى للشجرة منافع غير الثمر ، وللغلال فائدة غير الخبز ، وفى الكرة الأرضية شيئاً أكثر من أرض تُفلح وطريق تمهد .

ونابليون عنده مثل أعلى لرجل العمل والتنفيذ ، الذى طهر الجو من أدران الإقطاع والامتيازات والملكية المستبدة . أجل ! لقد لجأ نابليون إلى حشد الجيوش و إلى العنف والقوة ، وهى — عند إمرسن — وسائل ممقوتة تبررها الغاية النبيلة .

(٢)

وفيما يلى مقتطفات مما كتب إمرسن اخترناها من تراثه الأدبى ، ونقلناها إلى اللغة العربية لعل فيها حافزاً إلى الاستزادة لمن أراد مزيداً .

* * *

الجماعة الإنسانية لا تتقدم . إنما هى ترتفع فى جانب وتنحط فى جانب آخر ، وتسير سيراً ظاهرياً أشبه ما يكون بسير العجلة الدائرة . وهى لا تفتأ تتحول من حال إلى حال ، فهى آونة همجية وحشية ، وآونة أخرى متمدنة متحضرة ، يسود فيها الدين مرة والعلم مرة أخرى . وليس هذا التغير إلى الخير دائماً ؛ فنحن كلما كسبنا شيئاً خسرنا شيئاً آخر . تظفر الجماعة بفنون جديدة ، ولكنها تفقد فعل الغرائز القديمة . ما أشد التباين بين الرجل الأمريكى فى ثياب فاخرة ، يقرأ ويكتب ويفكر ، ويحمل فى

جيبه ساعة وقلماً وصكاً مالياً ، و بين الرجل من أهــل زيلنده الجديدة عارى الجسد ، أداته العصا والرمح ، ليس له سوى جزء من عشرين من حظيرة ليستلقى تحت سقفها لينام ! ولـكن هلا وازنت بين صحة الرجلين ؟ قارن بينهما تجد أن الرجل الأمريكى الأبيض قد فقــد قوة النيوزلندى الساذج . روى لى مسافر — إن صحت روايته — أنك لو ضربت الرجل الهمجى بفأس غليظة التأم جرحه بعد يوم أو يومين ، كأنك تضرب الفأس فى القار . ولو أنك هويت بمثل هذه الضربة على الرجل الأبيض لشيعته بها إلى قبره .

* * *

يؤثِّر الـكاتب فى عقول الجماهير بمقدار ما عنده من عمق التفـكير .. فالـكاتب الذى يستمد موضوعه من أُذنه ولا يستمده من قلبه ينبغى أن يعلم أنه يخسر بمقدار ما يربح ... لا تقوم الشهرة الأدبية على الحظ ، فإن أولئك الذين يصدرون الحـكم النهائى على الـكتاب ليسوا هؤلاء القراء المتحـيزين الصخبين الذين يضجون للـكتاب عند ظهوره ، إنما هى محكمة كأنها من الملائكة ؛ هو جمهور لا يرتشى ، ولا يُتوسل إليه ولا يُروّع ؛ ذلك الجمهور هو الذى يقرر شهرة الـكاتب . ولا يبقى من الـكتب إلا ما يستحق

البقاء . فالغلاف المذهب والورق الصقيل والجلد المتين ونسخ الهدايا الفاخرة التى تقدم للمكاتب ، كل أولئك لا يكفل للكتاب الذيوع إلا إلى أمد قصير .

* * *

كل شيء مزدوج ، هذا يقابل ذاك ، دقة بدقة ، العين بالعين ، والسن بالسن ، والدم بالدم ، والحب يقابله الحب . أعط يعطك الله . من سقى غيره ماء لم يشك العطش . إن أردت شيئاً فلا بد أن تدفع الثمن . إذا لم تغامر لم تكسب شيئاً . جزاؤك يكافئ عملك ، لا يزيد ولا ينقص . من لا يعمل لا يأكل . ألق بنفسك إلى التهلكة تهلك . اللعنة تقع على رأس من يستنزلها . لو أنك استعبدت رجلاً وطوقت جيده بسلسلة من حديد فإن طرف السلسلة الآخر يطوق جيدك كذلك . المشورة السيئة تعود على قائلها بالشر .

هكذا قدر الله ، وهذه هى الحياة ، فإن قانون الطبيعة يسيطر على أعمالنا ونحن راغمون .

* * *

بلوغ الحق هو الغرض من الحياة . ولكنك إن وجهت التفاتك إلى ناحية واحدة من الحق ولم تشغل نفسك إلا بتلك

الناحيـة أمداً طويلا ، فإن الحق يتشوه ولا يعود حقاً ، وإنما ينقلب إلى البهتان والزور . والحق فى هـذا يشبه الهواء ؛ وهو عنصر ضرورى للحيـاة وبدونه لا يكون التنفس . فإنك إن تعرضت لتيار شديد مدة طويلة أصبت بالبرد والحمى ، وقد يؤدى بك هـذا التيار الشديد إلى الفناء . ما أشد الخطأ يقع فيه الرجل إذا تعصب لعلم النحو ، أو النفس ، أو السياسة ، أو الدين أو لأية ناحية من نواحى المعرفة ! إنه يفقد التوازن بالمبالغة فى موضوع واحد ، وهذا لون من ألوان الجنون .

* * *

ويقول عن الإنجليز : فى كل ناحيـة من نواحى النشاط العملى تراهم يضارعون خير الأمم ، فليس هناك سر من أسرار الحرب لم يبلغوا فيه حـد الإجادة . إن آلة (وَتْ) البخارية ، وقاطرة (ستيفن) ، ومصنع (روبرتس) للقطن تقوم بالعمل للعالم أجمع . ليس فى الأدب ناحيـة ، ولا فى العلم باب ، ولا فى الفن المفيد ضرب من الضروب لم يخرجوا فيه كتاباً من خير الـكتب . إنما هى انجلترا التى يتطلع الناس إلى رأيها فى الحـكم على كل مخترع جديد أو علمٍ مستحدث . وفى منشأ كل التجارة والسياسة فى إمبراطوريتهم الواسعة كانوا أكفاء لـكل مأزق بصواب

الرأى وحسن السلوك . فهل هـذا هو حظهم أم هو فى تركيب عقولهم ؟ إنما تلك ميزتهم الطبيعية : تراهم يلمحون كل ضـوء يشع من أى رأى جديد أو مخترع حديث . هم أسرة يتعلق بهـا مصير الأمم ؛ وقد قيل عنهم إنهم لا يعدمون أبداً الوريث الذكر. لديهم ثروة من الرجال تملأ الوظائف العامة ، وتنبه النقد الحزبى عندهم يكفل لهم دائماً حسن اختيار الرجال الأكفاء .

وتتجلى قوة الإنجليز فى عدم التطفل ، فيكاد كل منهم لا يلتفت إلى الآخر . كل منهم له طريقته الخاصة ، يسير ويأكل ويشرب ويلبس ويتحرك فى أية ناحية دون الرجوع إلى الواقفين من حوله ، ولا يهمه أن يتـدخل فى شأنهم أو يضايقهم . وليس معنى الواقفين من حوله هـذا أنه ينشأ على إهمال أعين الجيران ؛ إنمـا هو مشتغل بشئونه الخاصة ، ولا يفـكر فيهم . إن كل إنسان فى هذا البلد المهذب لا يستشير غير ضميره ... إنى لا أعرف بلداً يسمح فيه إلى هذا الحد بالحرية الشخصية التى لا تهم أحداً غير صاحبها . يسير الإنجليزى والمطر ينهمر مدراراً يلوِّح بمظلته المقفلة كما يلوِّح بعصا المسـير ، ويلبس شعراً مستعاراً ، وقد يضع على ظهره سرجاً ، أو يقف على رأسـه دون أن يتصدى له أحد بإبداء الملاحظة . وقد مارس هذه العادة أجيالا حتى باتت فى دمائه .

وله قصيدة عنوانها « الوداع » هذه ترجمتها :

وداعا دنيا الغرور ، فإنى إلى بيتى سوف آوى

لستِ من أصدقائى ولستُ من أصدقائك

كم ذا سرتُ بين جموعك المنهوكة

وكم ذا ركبت متن بحارك فى زورقى

وطوحتْ بى أمواجك كما تطوّح بالزبد !

أما الآن ، يا دنيا الغرور ، فإنى إلى بيتى سوف آوى

وداعاً وجهَ الملق الذليل

وداعا أيتها العظمة الكاذبة

وداعا أيتها الثروة الخلابة

وداعا أيها السلطان المغرى ؛ وضيعاً كنت أو رفيعاً

وداعاَ أيتها القاعات المزدحمة ؛ وأيتها الساحات والطرقات

وداعا أيتها القلوب الباردة وأيتها الأقدام المسرعة

وداعا أيها الذاهبون وأيها القادمون

وداعا دنيا الغرور فإنى إلى بيتى سوف آوى

* * *

سآوى إلى نار موقدى

وحيداً على صدر تلك التلول الخضراء

إلى ركن خفيّ فى أرض بهيجة
خطط أحراشَها الجن فى مرح وحبور
حيث المنعطفات المعشوشبة
طوال النهار تردد غناء الطيور
حيث الأقدام الوضيعة لم تطأ قط
هذا المكان المقدس عند المؤمنين

***

آه متى أطمئن فى بيتى هذا بين الأحراش !
حينئذ أتعالى على صلف الرومان والإغريق
وحينما أتمطى تحت أشجار الصنوبر
عندما يشرق نجم السماء المقدس
فسأضحك من حكمة الإنسان ومن كبريائه
ومن مذاهب السفسطة وجماعة العلماء
فما كل هؤلاء ؟ وفيم غرورهم الشديد ؟
اذا كان الإنسان يلتقى الله بين الأشجار !

جيسپ غاريبالدى

١٨٠٧ — ١٨٨٢

(١)

كم من الأبطال العسكريين فى التاريخ من قاتلوا فى صفوف المجدودين . أما غاريبالدى فقد كان من الأبطال الأفذاذ القلائل الذين انضموا إلى جانب المكدودين المهضومين . ولم يكن ذلك رغماً عنه ، إنما كان برغبته و بمحض اختياره . وكأنه كان يبحث عن القضايا الخاسرة يقاتل من أجل نصرتها . لا يحمل السلاح إلاّ لمظلوم أو فقير أو ضعيف . وحيثما كانت هناك أمة تناضل من أجل حريتها — فى العالم القديم أو العالم الجديد — كنت ترى غاريبالدى فى طليعة قوات المجاهدين فى سبيل التحرير . ولم يكن يطمح فى مجد أو جزاء لقاء ما كان يؤدى من خدمات . ففى عام ١٨٤٢ ، بعد ما ظفر بسلسلة من الانتصارات لأوروجواى كان يقطن مع زوجته فى كوخ متداع محطم النوافذ والأبواب . وجاءه ذات مساء قائد قوة فرنسية تقاتل فى جنوب أمريكا ، وهو الأميرال لينى ، يقدم إليه التهنئة على ما أصاب من نجاح ،



غاریبالدی

وكان الـكوخ مغموراً فى الظلام فسأل :

— هل يقطن الجنرال غاريبالدى هنا ؟

فلما سمع غاريبالدى اسمه ينادى التفت إلى زوجته وقال :
« أنيتا ، إيتينى بمصباح . »

— فردت بقولها : آسفة ، ليس فى الـكوخ مصباح !

— فأجابها معتذراً : « آه ، لقد نسيت أن التعيين الحربى لا يشتمل على الشموع . »

قال الأميرال : « وهكذا سمعت صوت غاريبالدى الذهبى ، ولـكنى لم أستطع أن أشهد ابتسامته الذهبية ! »

(٢)

وكانت تلك الابتسامة الذهبية معروفة عن غاريبالدى فى العالم بأسره . كان فى مظهره مزيجاً من مارس إله الحرب وأپولو إله الشعر . القوة فى بدنه والجمال فى وجهه . مديد القامة ، سمهرى العود ، مفتول العضـل ، تحيط بوجهه هالة من الشعر الذهبى الداكن تتوج رأسه ، وتتكون منها لحيته ، فكأنه صورة من رسم ميخائيل انجلو ، يرتدى قميصاً أحمر وسروالاً مهلهلاً .

وقد دعاه إلى ارتداء القميص الأحمر ظرف عجيب . وحذا

حذوه «جيش التحرير» الذى كان يتزعمه ، فأصبح هذا القميص الأحمر شعاراً لهم .

كانت موارد هذا الجيش محدودة ، وكان لا بد للجند من رداء رخيص لا يكلف إلا أقل النفقات . والتقى غاريبالدى ذات يوم مصادفة بأحد تجار منت ڤديو ، وألفى لديه رسالة من القمصان الصوفيـة الحمراء على وشك أن يبعث بها إلى مذبح فى مدينة بونس إيريس ، فتقدم لشرائها . فأجابه الرجل بأن اللون الأحمر يساعد على امتصاص الدماء فى المذابح . »

فرد عليه غاريبالدى بقوله : « كما يساعد على امتصاصها فى ساحات القتال . إن هذا اللون هو الذى يلائمنا تماماً . »

وهكذا أصبح اللون الأحمر رمز القتال الذى شنه غاريبالدى من أجل نصرة الحرية .

(٣)

كان أبوه بحاراً أنجبه فى «نيس» وقد ولد بغريزتين قويتين فى دمائه : أولاهما حب الخلوات الفسيحة ، وثانيتهما حب الحرية . وكان أشد ما يعشق فى طفولته التجول فوق التلال والسباحة فى البحار . قال مرة للإسكندر دوماس : « يبدو لى أنى ولدت برمائياً . »

وكذلك كان لا يخشى بأساً ، كان يسير ذات يوم على شاطئ النهر فالتقى مصادفة بجماعة من النسوة يغسلن بعض الثياب فى الماء ، وقد انزلقت قدم إحداهن وسقطت فى النهر ، وكان التيار دافقاً قوياً مليئاً بالدوّامات . فقفز غاريبالدى لتوه فى الماء وجذب المرأة إلى الساحل وأنقذ حياتها .

ولم يجاوز غاريبالدى فى ذلك الحين الثامنة من عمره . ولو أن شاباً فى عنفوان شبابه قام بهذا العمل لوصفه الناس بالشجاعة النادرة .

وفى الخامسة عشرة ترك المدرسة قائلاً : « إن حرية الهواء الطلق أحب إلى نفسى من حبس حجرات الدروس » . وأبحر وحده إلى جنوه يبحث عن مغامرة يلقى بنفسه فيها . وكانت تلك ضربة شديدة على أبيه ، لأنه كان يتمنى أن يرى جيسب قسيساً من رجال الدين . وكان يقول « إنى أحب هدوء الكنائس لولدى . فقد شهدت كثيراً من العواصف والأنواء وأود لولدى أن يتجنبها . »

غير أنه أدرك الآن أن ابنه لم يخلق للهدوء . فصدع لقضاء الله ، واستأجر « پيپنو » صبياً على إحدى سفنه الخاصة .

وسرعان ما التفت الملاحون حول پيپنو (وهو ما تلقب به جيسپ) وأحبوه . بزهم فى صيد الحيوانات البحرية وفى السباحة على متن الماء ، ولكنهم برغم ذلك لم يحملوا له فى نفوسهم حقداً ولا حسداً . يشع الود من عينيه الزرقاوين ، ويرن العطف فى صوته سواء كان فى الحديث أو فى الغناء .

كما أنه كان أكثر منهم علماً . حقا إنه لم ينفق فى المدارس سنوات أكثر مما انفقوا ، غير أنه اطلع على عدد من الكتب أكثر مما فعلوا . وكان يحب التاريخ والفلسفة والشعر — والشعر خاصة . وكم كان يعجب به رفاقه وهم يستمعون إليه فى ساعات المساء الساكنة يردد بصوته الذهبى أشعار فسكولو ودانتى وڤلتير ، أو يغنى أناشيد الثورة الفرنسية . فيهتز لكلماتها القوية وموسيقاها الشجية .

وقضى غاريبالدى عشر سنوات بين الملاحة والغناء والعمل الشاق ، يعمل بذهنه كما يعمل بيديه . وقد ارتقى من صبى بحار إلى قبطان سفينة . وياله من عمل خطر خطير ، فإن قيادة السفن فى أوائل القرن التاسع عشر لم تكن بالأمر الهين اليسير . وأبحر إلى مياه الليڤانت حيث الترك والإغريق يقتتلون قتالا مميتاً . وحارب القرصان الذين تهجموا على سفينته بالفؤوس والمدى

الغليظة . وعبر البحار التى خلدها لورد بيرن فى شعره الحماسى .
فكانت حياة محفوفة بالمخاطر والمغامرات والمطامع . يشن الحروب
من أجل الحرية ويتغنى بقول بيرن « خير للمرء أن يموت حراً
من أن يعيش عبداً . »

ونمى إليه نبأ رجل إيطالى مات فى سبيل الحرية ، واسمه
سيرو مَنُتِّى الذى حاول أن يوحّد بلاده الممزقة ، ويحطم ما كانت
تكبلها به النمسا من أغلال . فألقى عليه النمساويون القبض
وأردوه قتيلا .

لكنهم لم يقووا على قتل روحه الثائرة . فإن الشرارة التى
أشعلها مَنُتِّى اندلعت لهيباً حاراً فى قلب عدد عديد من أهل
إيطاليا . وقد التقى غاريبالدى بأحد أتباع منتى ، وهو شاب من
أهل جنوه يدعى كنيو . وقد روى له كنيو «أن المئات من مواطنينا
قد أعدموا ، لكن خير رجالنا طرا ما زال على قيد الحياة —
ذلك هو مازينى . ولا بد لك من مقابلته ذات يوم . إن هذا
الرجل رسول بعثه الله فينا لينتقم لما أوذينا به . »

وأبحر غاريبالدى إلى مرسيليا حيث التقى بمازينى فى منفاه
فألفى رجلا قوى الإرادة عنيداً لا يلين ، فكتب عنه فى مذكراته
« إن كولمبس لم يسعد بكشف أمريكا بمقدار ما سعدت بكشف

هذا الرسول المخلص الذى قدر له أن يقود شعبنا إلى الأرض الموعودة . »

ونمت الصداقة بين مازينى وغاريبالدى حتى أضحت تعاونا مدى الحياة على تحرير البلاد . مازينى يحلم بالرؤيا العظيمة ، وغاريبالدى يحقق هذه الرؤيا فى عمل أعظم منها .

(٤)

وبدا تحرير إيطاليا بادئ الأمر كأنه عمل لا رجاء فيه . فإن إيطاليا قد باتت بعد الحلف غير المقدس الذى عقد فى عام ١٨١٥ ممزقة تدمى كجثة القتيل . فقد اقتطعت منها بيدمنت وسردينيا لتضم إلى بيت سافوى . وتحولت لمباردى والبندقية إلى إقليمين من الأقاليم النمساوية . وداس دوقات النمسا تحت أقدامهم تسكانيا ومُدينا وپارما . وخضعت للحكم البابوى يؤازره جيش فرنسى روما وأمبريا ورماديا . أما نابلى وصقلية فقد أمست تحت سيادة آل بوربون الذين لا يرحمون . وقد قال مترنخ ذلك الرجل القاسى الذى كانت له اليد الطولى فى الحلف غير المقدس « إن إيطاليا لم تعد أمة فى عام ١٨١٥ ، إن هى إلا اسم جغرافى . »

وقد أخذ الشابان الملهمان على عاتقيهما أن يحولا هذا الاسم

الذى لا حياة فيه إلى أمة تنبض بقوة الحياة . وكرس غاريبالدى نفسه قلباً وروحاً لهذا العمل العظيم . وتستّر تحت اسم (بورل) وحاول أن يؤجج نار الثورة فى صفوف الملاحين الذين يعملون فى أسطول جنوه الملكى . وقد فشا سره وخان عهده أحد الثائرين ففر غاريبالدى إلى مرسيليا حيث وجد اسمه مطبوعاً فى نشرات عديدة ، لأن حكومة پيدمنت قد وعدت من يأتيها برأسه عطاء جزيلا .

وأضحت حياة غاريبالدى خطرة فى إيطاليا ، فسارع إلى عبور الإطلنطيق ، ورحل إلى جنوب أمريكا ، فهناك ثورة يستطيع أن يسهم فيها ، وظلم يشترك فى القضاء عليه .

وأبحر إلى جنوب أمريكا ومعه جماعة من أتباعه المخلصين . وقضى هناك اثنى عشر عاما (من ١٨٣٦ إلى ١٨٤٨) يقود عصابته المتفانية ذات القمصان الحمراء فى سبيل تحرير ريو جراند واوروجواى مما يكابدان من ظلم واستبداد .

وقصة مغامرات غاريبالدى فى جنوب أمريكا أعجب مما يروى من قصص ألف ليلة وليلة . أبحر فى أول الأمر متقرصناً ضد « أعداء الحرية والمستبدين بإخوانهم فى الإنسانية » . وبعد تجوله فى البحر ببضعة أشهر انتقل من متن البحر إلى متن الجواد .

فأخذ يركض على رأس جنده فوق سهول البمپاس . وقد انضمت إلى حفنة الجنود الإيطاليين ثلة من متطوعى جنوب أمريكا ، وهم خير من يجيدون ركوب الخيل فى العالم . ترى الواحد منهم وكأنه وحصانه قطعة واحدة . إنهم مخلوقات خيالية عجيبة ، أنصاف رجال وأنصاف وحوش ، يعدو الرجل منهم فوق الحقول بسرعة الريح يهز الرمح بيمينه وحبل الصيد بيساره .

ولم تنقض بضعة أشهر حتى بات غاريبالدى أمهرهم جميعاً . قائد متوحش لعصابة متوحشة ، ينكلون بالعدو ، ويضربون كالصواعق ، ويسوقون ماشيتهم أمامهم طعاما لهم ، يذبحون منها ما يشاءون ليشووه فوق النار فى الخلاء . إذا أسر أحدهم تحمل العذاب بغير أنين . يموت فى ساحة الوغى والابتسامة على شفتيه.

إذا قتل عدوهم منهم نفراً حل محله نفر أكثر منه عدداً وعدة . لأن ذلك القائد الساحر كان يجذبهم إليه كالمغناطيس . لا يؤذيه شيء ولا تقف فى سبيله عقبة . أسره مرة ضابط من الأعداء ، وبذل الجهد كى يستمد منه أنباء الخصوم ، فألهب الضابط ظهره بالسياط ، وحبسه فى غرفة مظلمة معلقاً من إبهاميه مدة ساعتين . وقال غاريبالدى عن هذا الحادث إن آلامه تفوق الوصف ، ولكنه مع ذلك لم ينبس ببنت شفة .

وكما كان مقاتلا عجيباً كان عاشقاً غريباً . نزل ذات يوم فى عام ١٨٣٩ عن ظهر جواده برهة قصيره تولى فيها قيادة إحدى السفن ، وكان ينظر إلى الساحل من خلال منظاره المكبر .

« فوقعت عينى مصادفة على تل مرتفع . . . حيث لا تقوم فوقه سوى بضعة منازل جميلة متواضعة . وأمام أحد هذه المنازل لمحت شابة حسناء . فأصدرت أمرى فى الحال للسير بالسفينة صوب الشاطىء ، لأنى أردت أن أنزل إلى البر . ثم نزلت براً .... وسرت نحو تلك المنازل التى كنت أتوقع أن لديها الفتاة . وأوشكت أن أيأس من رؤيتها مرة أخرى حينما دعانى أحد معارفى إلى تناول فنجان من القهوة فى بيته . فولجت داره ، وأول ما وقعت عليه عيناى تلك الآنسة التى جذبتنى من البحر إلى البر . وابتهجت للقائها كما ابتهجت للقائى ، وتبادلنا النظر صامتين ساكنين ، وأخيراً حييتها بقولى : لا بد أن تكونى لى . »

وكان ما أراد وصارت إليه . واسمها أنيتا ريبيرا . و برغم أنها لم تتجاوز الثامنة عشرة فقد تحدت اعتراض أبيها الذى أراد أن يزوجها رجلا آخر . واستسلمت إلى تلك الجاذبية الساحرة التى تميز بها محرر وطنها . وقابلته ذلك المساء على ظهر السفينة وأبحرا معا لقران سعيد محفوف بالمخاطر التى أدت — كما سيتبين فيما

بعد — إلى مأساة كبرى . شقا عباب الماء معا ، وركضا فوق سهول البمپاس معا ، وقاتلا جنباً إلى جنب ، يحمى كل منهما الآخر من ضربات الخصوم . ووقعت أسيرة فى إحدى المعارك . وظنت أن غاريبالدى قد خر صريعاً فى تلك المعركة ، فاستأذنت فى البحث عن جثته . وخرجت تحت حراسة جنديين من جنود الأعداء وشقت صفوف القتلى من الزملاء مقلبة وجوههم نحو النور ، وأخيراً فرت من الحارسين ، واعتلت متن جواد حصلت عليه من أحد الفلاحين ، واختفت فى الغابة الاستوائية .

ولبثت أربعة أيام تعدو وسط الأدغال وتعبر الأنهار سابحة ، لا تتبلغ بلقمة ، ولا تكاد تستريح لحظة — وأخيراً عثرت على على زوجها غاريبالدى . وأنجبت منه طفلا أسموه منتى باسم بطل الثورة الإيطالية الأولى .

(٥)

كان غاريبالدى رجل الرجال ورجل النساء على السواء . يحب كل مغامرة جديدة ، وكل إغراء للنساء جديد . لكنه برغم ذلك يهب كل قلبه وإخلاصه لأنيتا . وقد أراد مرة أن يخفف عنها غيرتها فقص شعره الذهبى حتى جذوره وقال لها «الآن تمتنع النساء عن مطاردتى فترة طويلة . »

فكان كشمشون الجبار بعد ما جز خصلات شعره. غير أنه كان يختلف عن شمشون فى أنه ما برح يملك القـدرة على قتال الفلسطينيين. و بعد ما أنجز مهمته فى جنوب أمريكا ، عاد إلى إيطاليا ، وقو بل بحماسة رائعـة . ولم تخمد نار الثورة والعصيان خلال الفترة التى غاب فيها عن الوطن « فواجبى الآن أن أشعل لهيبها حتى تلتهم كل شىء . »

فجمع جنده — وهم حفنة صغيرة — وسار نحو روما ، كى يخلص تلك المدينة من الجيش الفرنسى . وكانوا ألفاً لقاء ثلاثين ألفاً . « ولم يكن فى الإمكان أن ينجو من سحق الفرنسيين له ومن الهزيمة المنكرة إلا أن تدركه معجزة من السماء . »

وقد أدركته المعجزة . وقام بسلسلة من الهجمات الجريئة . ولم يكن يدرى أحد متى أو أيان أو كيف ينقض فى هجومه التالى . واستطاع (نمر منت ڤديو) أن يوقع الهزيمة بجيش الجنرال أودينو. وأعلن روما جمهورية حرة فى عام ١٨٤٩ — « حكومة بغـير سجون ، و بغير محاكمات ، و بغير عنف . »

فـكانت مدينة فاضلة كاملة ، ولـكنها لم تعمر طويلا . فقد تجمعت حولها جيوش الأعداء من كل حدب وصوب . ورسمت للقتال خطط جديدة ، وظهر فى الميدان الخائنون الخاتلون . وأعلن

الجنرال أودينو الهدنة ، واعتمد على « سـذاجة غاريبالدى وبساطته » ثم انقض عليه مفاجأة قبل أن ينقضى أجل الهدنة .

وفعلت الخيانة فعلها ، وأبيدت حامية غاريبالدى الرومانية ، وأصابت الرجل رصاصة فى جنبه ، لـكنه استطاع معها أن يفر . وفرت معه أنيتا وهى تحمل له طفلا آخر . وصحبته البقية المحطمة من جنده البواسل « ليرافقنى كل من يريد أن يواصل القتال فى وجه الغريب . ولست أمنح المقاتلين إلى جانبى مأوى أو غذاء أو مالا . إنما يجدون عندى الجوع والعطش ، والسير العنيف ، والمعارك ، والموت . ليتبعنى من يحب وطنه بقلبه لا بطرف لسانه . »

وسار على رأس عصابة محطمـة مشعثة تقاسى آلام الجوع والحرمان . يحفزها إلى القتال شجاعة قائدهم الجريح وآلام زوجته . وقد توسل إليها أن تتخلف وراءه «فإن العدو لن يقسو على امرأة فى مثل حالك » . غير أنها أزمعت أن تشاطر زوجها مخاطره . وكتب غاريبالدى يقول « عند أول دار مررنا بهـا طلبت إلى إحدى النساء أن تقص لها شعرها ، ثم ارتدت زى الرجال واعتلت ظهر الجواد . »

وكان تراجعاً يدعو إلى الإعجاب . يختفون نهاراً ، ويواصلون السير ليلا ، كى يتحاشوا أعين العدو المطارد الذى بلغ عدده الآن

خمسة وسبعين ألفاً . وكثيراً ما تحوطهم العدو وأوشكوا أن يقعوا فرائس فى حبائله . ولكن غاريبالدى كان دائماً يستعين ببديهته الفذة ويسلك الطريق الوحيد الذى كانت تشق على الخصوم حراسته .

وكان يحدوه دائماً أمل لا يضعف ولا يفتر . ولبث كذلك حتى آده حزن فادح حطم كل ما كان لديه من أمل . وذلك هو المرض الخطير الذى ألمّ بزوجته . ولما بلغت عصابته الصغيرة فى نهاية الأمر مدينة كسناتيكو الساحلية أشار إليهم بقوله « هناك ترسو السفن التى سوف تحملنا إلى أرض الحرية » لكن أنيتا كانت على حافة الموت .

وركبوا تلك السفن ثم أبحروا . ولم يكن لديهم ماء أو طعام ، والقمر فى تمامه « ولم أره من قبل فى مثل هذا الجمال الرائع » . وإلى جوار غاريبالدى امرأة جفت شفتاها من الحمى ، تقول له :

« لا عليك يا جيسب مما يحدث لى . أدّ واجبك . »

وهاجمهم أسطول العدو ، وأسرت سفن غاريبالدى جميعاً ما خلا ثلاثاً ، جلس فى إحداها غاريبالدى وأنيتا تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعيه .

وانبثق النهار عند ساحل مهجور قريباً من رافنا . فحمل

غاريبالدى زوجه إلى الشاطىء ، وهناك على أحد الكثبان الرملية رأى على وجهها شحوب الموت « فتحسست معصمها — ولم أشعر بنبض . »

فحفر لها قبراً على الساحل ، وتابع المسير .

(٦)

لم يكن لغاريبالدى طوال حياته سوى شعار واحد لا يؤمن بغيره : « إلى الأمام » . وحاول لفترة ما أن يستقر فى الولايات المتحدة يشتغل فى مصنع للشموع . ثم تولى قيادة سفينة أبحرت شرقا قائلا لنفسه « كفاك مغامرة ياجيسب . عد إلى إيطاليا ، واعتزل جهادك فقد أدركتك الشيخوخة . »

واستقر به المقام فى كابريرا ، وهى جزيرة صغيرة عند سردينيا . وهناك اشترى لنفسه كوخا تقاعد فيه ، وأحب أن يقضى فيه ما تبقى من العمر فى عزلة هادئة .

لكن استغاثة المظلومين عبرت المياه وطرقت مسمعيه ، وأحس مرة أخرى القلق فى فؤاده . ذلك أن إيطاليا بإيحاء كافور وجهاده السياسى كانت تحاول أن تطرح عن عاتقها نير الحكم النمسوى . فثار فى رأسه ذلك الحلم القديم مرة أخرى : إيطاليا الحرة الموحدة .

فرحل من كابريرا والتحق بجيش كافور . ودب فى عروقه العتيقة دم الشباب والفتـوة ، وعاد إلى القتال مرة أخرى ، كما عاد إلى الحب مرة أخرى . التقى بفتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ، فأسر قلبها وسحر فؤادها وتزوج منها فى شهر يناير من عام ١٨٦٠ .

وكان زواجا شتويا انتهى بزوبعة عاصفة ، فلم يكد يقترن بها بضعة أيام حتى هجرها حينما علم أنها ما برحت معلقة بعشـيق كان لها معه شأن فيما مضى .

ثم عاد إلى ميـدان القتال . وبذل جهداً لم يبذله من قبل ، كاد يتفطر له قلبه الهرم رغم بسالته وشجاعته . فقـام بتحرير صقلية ، واستقلال نابلى ، وأخيراً استطاع أن يطرح النيرالنمسوى ويحقق حلمه العظيم — فتم توحيد إيطاليا تحت تاج ملك واحد ، هو الملك فـكتور عمانويل من بيت سافوى .

وما كان أشد اعتراف الملك بالجميل لغاريبالدى للدور الهام الذى لعبه فى توحيـد إيطاليا . وفى اليوم السادس والعشرين من شهر اكتوبر من عام ١٨٦٠ التقى فـكتور عمانويل بغاريبالدى وعصابته الصغيرة من الثائرين المتحمسين . وكان يوما بارداً رطباً ، ولقاء باردا رطبا . صافحه الملك فى كثير من الـكبرياء ثم واصل مسيره راكباً جواده يتبعه حرسه الملـكى فى موكب فاخر . واضطر

غاريبالدى وجنده — الذين تحملوا وطأة القتال — أن ينظروا إلى هـذا الموكب كما ينظر إليه الأجنبى الغريب . وكان يقف إلى جوار غاريبالدى صديق له حميم ، فالتفت إليه غاريبالدى . وابتسامة السخرية على شفتيه ، قال له : « ألست ترى كيف يسيرون قدما و يتركونا خلف الصفوف ! »

كان غاريبالدى دائما فى الطليعة أثناء القتال ، وفى المؤخرة بعد ما ينتهى القتال ، يزرع ولا يحصد ، ويجاهد ولا يجنى ثمرة الجهاد .



دزرائیلی

بنيامين دذرائيلي

١٨٠٤ — ١٨٨١

(١)

ولد بإنجلترا فى عام ١٨٠٤ فأغرم بحب كل ما هو إنجليزى . اختلطت فى عروقه الدماء الإيطالية والأسپانية الحارة بشعر الشرق وروحه الذى لا يقهر فكانت تضطرم بين جنبيه النيران التى تكاد تلتهمه ، فيخمدها بإرادة قوية — رغبة واحدة لا تتزعزع تدفعه إلى خدمة الجنس النوردى الشاحب الذى يقدره ويقدسه .

طفولة مستترة ، وتعليم مضطرب ، وأبوان رقيقان محبان ، ولكنهما خاملان لا يعملان . هذه العناصر فى باكورة حياته لم تكن تبشر بظهور رجل عظيم .

وكانت أمامه عقبة أخرى . ذلك أنه زُج به فى سن صغيرة فى عالم غريب عنه ، وكان عليه أن يجابه مشكلة عويصة ، وتلك هى جنسيته ، ولم تكن تميزه أمارات ملحوظة . ولكنه — برغم ذلك — كان غريباً ، لأنه كان يهوديا . ومع أن أباه كان

يؤمن بمبادئ ڤلتير ، إلا أنه خضع لرأى جده واتفق مع رجل من رجال الدين اليهودى على أن يلقن الطفل التعاليم اليهودية خارج المدرسة . وبذا زاد النار المضطرمة بين جنبيه تأججاً . وازداد شعوره بالضعة والذلة .

ولما صعدت روح جده إلى بارئه ، أرغمت الأسرة إسحق (والد دذرائيلى) على أن يحول ابنه إلى العقيدة المسيحية . فتخلى دذرائيلى عن الدروس العبرية ، واستبدل بها النصرانية وتعاليمها . وحينئذ تنفس بن (دذرائيلى) الصعداء .

ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بمدرسة الدكتور كوجان — فاستطاع فى النهاية أن يشعر شعور الرجل المهذب الإنجليزى — الجنتلمان !

ولكن سرعان ما خاب ظنه . ولم يتحقق رجاؤه . فقد أدرك — ولم يكن من قبل يدرك — أن الصلاة فى الكنائس والاستماع إلى القسس لا تخلق « الرجل الإنجليزى » ، وكان الصبى بطوله الفارع ، وبشرته الزيتونية ، وشعره الجعد الأسود ، ولباسه الأنيق ، وطباعه الغريبة ، مثار الضحك عند الصبيان الآخرين . وكان يقابل سخريتهم برأس مرفوع ، ويقول والإيمان ملء قلبه : « سوف أسودهم فى يوم من الأيام. »

وقبل أن ينقضى وقت طويل ، سنحت له الفرصة الأولى لكى يسود زملاءه فى الدرس ، فألف المسرحيات وأشرف على إخراجها واشترك فى تمثيلها ، وبذلك أضحى أبرز شخصية فى الحياة الاجتماعية فى مدرسة الدكتور كوجان .

غير أن تمثيل المسرحيات كان يخالف قوانين المدرسة ، فتوجه زعماء المدرسة السابقون إلى أستاذهم يقصون عليه ما يفعله دزرائيلى فى الخفاء ، وقد أحنقهم ما أصاب « هذا الدخيل المتكبر » — كما كانوا يلقبونه — من نجاح . وفى خطاب لاذع صب الدكتور كوجان اللوم على دزرائيلى وقال : « لا مراء فى أن العقل الذى يدبر هذه الخطط عقل فاسد غريب . »

وآل الطود الشامخ إلى السقوط والانهيار ، وبات بن هدفا للسخرية والتهكم . وصاح من بين الطلبة صبى يكبر دزرائيلى جسما وقال : « لقد تزعمنا أجنبى أكثر مما ينبغى ! » ولشد ما كانت دهشة الطلبة الحاشدين حينما لطمه بن بقبضة راحته . غير أن هذا النصر المؤقت الذى أصابه أثار سخطه وغضبه ، وخلف فى نفسه مرارة شديدة .

ومن ذلك الحين تعلم بنيامين درساً انتفع به طوال حياته ، فقد أدرك أنه « أجنبى ، غاصب ، يهودى » .

وشاء الدكتور كوجان أن ينتهى عهد بن بالمدرسة ، فعاد الفتى إلى بيته مشيعاً بالخزى والفضيحة .

(٢)

كان الغلام فى حيرة من أمره ، ولم يجد إلا عوناً يسيراً عند آبائه الأبعدين . فاتجه نحو أخته ساره ، وتباحثا معا فى أمر هذه العقبة العجيبة التى تعترض سبيلهما بحكم الميلاد . واستمعت الفتاة لأخيها ساعات طوالا يبثها مطامعه ولواعج نفسه . وكان بن يعتقد أن القدر يدخره لعمل عظيم ، وتشاطره أخته هذه العقيدة .

وقرر أن التعلم والثقافة والمعرفة هى الخطوة الأولى فى سبيل العظمة فانقض على مكتبة أبيه ، والتهم فى همة لا تعرف الكلل كل ما امتدت إليه يداه من كتب ومجلدات ، وأخذ يدون ملاحظاته ونتائجه فى مذكرات خاصة ، فسود منها مئات الصفحات . وكان منظر هذا الفتى الفارع الطول وهو يضرب فى أحشاء البيت « على غير هدى » يصدر أحكامه القاطعة فى كل ما يقوم على وجه الأرض مصدر ضيق عظيم لأبيه إسحق . وكان يؤنبه حيناً بعد حين ، ويأمره بأن يحتفظ بأوراقه مرتبة وكتبه منظمة .

وأراد الوالد أن يوجه الفتى وجهة صحيحة ، وأن يصرفه عن

ضلالته ، فاقترح عليه أن يلتحق بمكتب أحد المحامين . فنبذ بن هذا الاقتراح فى تعاظم و إباء . ورد على أبيه قائلا « تبا لهذه المهنة. إنى أن أردت أن أكون محامياً عظيما فلا بد لى من أتخلى عن كل أمل فى أن أصبح رجلا عظيما . »

فقال له إسحق « حذار يا بنى من أن تحاول الصعود إلى قمة العظمة على عجل » . وطال الجدل بين الإبن وأبيه . واختتم الوالد نصحه بقوله « فكر يا ولدى فى الفرصة التى تتيحها لك هذه المهنة لدراسة الناس من مختلف الطبقات » . وأخيراً استسلم بن لرأى أبيه .

والتحق بمكتب محام يدعى مستر مابلز ، وجال ببصره و بصيرته فى مسرح البشر . وأدرك أن المرء إن أراد أن يلمع نجمه بين الناس فى هذا العالم فلا بد أن يبزهم فى حب الدنيا والتكالب عليها . وملكت عليه لبه شخصيتان بارزتان ، هما لورد بيرن الذى تميز بالفطنة والذكاء ، وقد حذا حذوه فى أسلوبه الأدبى . و بو برومل الذى تميز بالجرأة والإقدام ، وقد حذا حذوه فى مسلكه وملبسه . ولم يكن دزرائيلى بالرجل الذى يعرف التوسط والاعتدال ، فأسرف فى ملبسه حتى بزبرومل نفسه فى بذخه وتطرفه .

وعاش حياة كلها نشاط وأبهة ومغامرة . وربح مبلغا وفيراً من المال من الأسهم التى اشتراها فى إحدى شركات التعدين فى جنوب أمريكا . فساوره بعدئذ القلق من عمله الكتابى . وأشفق عليه أبوه واقترح عليه أن يرحل إلى ألمانيا . فوجد على ضفاف الرين ما خلب لبه وصرفه عن الكتب التى تبعث السأم والمكاتب التى يعلوها التراب . ما أعجب هذا العالم الجديد الذى أقبل عليه وكأنه ينتظر مقدمه !

وقد هيأ له خروجه إلى ميادين المال والاقتصاد الاتصال بجون دستن پاولز ، وهو رجل ذو نفوذ عظيم فى الأسواق . وقد أعجب پاولز بما شهده فى هذا الشاب من حدة الذهن وسرعة الخاطر فكلفه تقديم رسالة عن التعدين فى جنوب أمريكا . ولم يكن دزرائيلى يعلم من الأمر شيئاً ، ولكن جهله بالموضوع لم يثبط همته . فلم تكد تنقضى بضعة أيام حتى جمع مادته وأتم رسالته ووجدت إلى المطبعة سبيلها ، ثم نشرت بين الناس وأذيعت .

وأدرك جون مرى الناشر المعروف ما عند بن من قدرة وكفاية ، فباح له بأمنية طالما ترددت فى صدره ، وهى إصدار صحيفة يومية ، فرحب بن بهذا الاقتراح ، وعاد مرى فتردد فى تنفيذه ، غير أن بن ذا العزم الحديدى الصارم لم تفتر همته ولم يتراجع .

ولم يثنه عن حماسته لتنفيذ الفكرة انعدام الخبرة ورأس المال .
وأعد بن للمشروع عدته . وقدم له مرى نصف المال المطلوب ، وقدم باولز الربع ، ولم يبق إلا الربع الأخير ، وهو مبلغ زهيد بالنسبة إلى بن بعد الأرباح الباهظة التى عادت إليه من مساهمة الشركات.

وتقرر أن يتولى لكهارت أحد أصهار السر والترسكت رئاسة التحرير ، ولما عرض الأمر على لكهارت لم يرحب بالدعوة . وحسب أن الداعى هو دزرائيلى الكبير ، فنظر إلى دزرائيلى الصغير شزرا ، كأن الشاب قد امتهن كرامته ! فلم يظهر بن غضباً أو امتعاضاً ، وكتم مشاعره ، واستغل ما لديه من قدرة على الإقناع ولباقة فى الحديث ، حتى آمن لكهارت بوجاهة الفكرة وانتهى بقوله « إن هذا سوف يكون أعظم مشروع فى يومنا هذا » ؛ وصحب بن ليقدمه لصهره العظيم سر والتر سكت ، فأحسن الرجل استقباله وأيد مشروعه ، واشترط له أمراً واحداً ، وذلك أن يحجز للكهارت مقعد فى البرلمان . فوعد بن بذلك ، دون أن تكون لديه أية فكرة عن كيفية الوفاء بالوعد .

وسار بن بالمشروع قُدُماً ، واستطاع أن يرد إلى الإيمان كل متردد ، و إلى اليقين كل من تساوره الشكوك . ويكتب مرى إلى لكهارت يقول له إنه لم يصادف فى حياته شاباً نابهاً

كبن يبشر بالمستقبل الزاهر العظيم ، وإن ما لديه من ذكاء وعقل كفيل بالثقة والنجاح .

ويعود الشاب إلى لندن ، وقد سار المشروع شوطاً بعيداً فى سبيل التنفيذ ، واستعدت المطبعة لإخراج الصحيفة إلى حيز الوجود . ثم تظهر فى اللحظة الأخيرة عقبة أخرى غير منظورة . فيعارض كروكر المشروع أشد المعارضة ، وهو وزير خطير للبحرية ومساهم من المساهمين البارزين فى صحيفة (كوارترلى) التى يصدرها مرى . ويريد كروكر أن يعرف لماذا تمت كل هذه المراحل فى هذا المشروع الجديد دون علمه أو مشورته . ومن يكون هذا الشاب الناشىء دزرائيلى ، الذى يجرؤ على هذا العمل دون أن يستمد منه الرأى ؟ وأخذ كروكر بلسانه اللاذع يقرع مرى ، حتى تضاءل الرجل وانكمش ، وصب اللوم جميعه على بن الذى يتحمل وحده تبعة إفشاء السر المكتوم .

فتحطمت آمال بن فى لحظة ، ويشاء القدر أن يصيبه فى نفس الوقت بضربة أخرى فيخسر مع شريكه إيفانس فى سوق الأوراق المالية سبعة آلاف جنيه .

وألفى دزرائيلى نفسه إزاء هذه الكارثة المزدوجة وحيداً

لا ناصر له ولا صديق . فقد تخلى عنه أنصاره جميعاً ، وواجهوه بالنقد المرير .

(٣)

ويعود دزرائيلي إلى بيته ، فيجد في نصيحة أبيه له عزاء وسلوى . أليس مما يدعو إلى السخرية أن يفقد المرء الأمل وهو لما يزل في الحادية والعشرين من عمره ؟ إن الحياة ما تزال في مقتبلها . ولا يذكر بن شيئاً عن ألوف الجنيهات التي خسرها ، ولا عن الديون التي تراكمت عليه وهو يجاهد في سبيل جمع المال وتكوين الثروة .

ولم يلبث بنيامين في هذا الموقف الحائر طويلا . فلئن صدمته العقبات كرجل من رجال الأعمال ، فإن ذهنه المتوقد وخياله الوثاب ليشتعل نوراً وهاجاً يضيء له الطريق .

فشرع يكتب أولى رواياته دون أن يعلم بذلك أحد من أفراد أسرته . وصور بطل الرواية على غرار شخصيته ، فلم تكن قصة فيفيان جراى سوى سيرة بنيامين دزرائيلي بقلمه . ولم يكتف دزرائيلي بقصة ماضيه ، بل سار ببطل روايته إلى مجاهل المستقبل وأمده بتلك الصفات التي كانت تعوزه . وعندما قال عن فيفيان

جراى بطل قصته « إنه آمن من زمن بعيد أنه لا يمكن إلا أن تكون سيرته لامعة وهاجة » لم يكن يعنى سوى نفسه .

وكان دزرائيلى حتى آنئذ يخشى النساء فيبتعد عنهن . غير أن العطف الذى كان يستكن فى فؤاده كان فى حاجة ماسة إلى صحبة المرأة وزمالتها . ولم ترو (سارة) غلته إلا قليلا . ثم روى ما أحسه بعد ذلك من ظمأ نفسى بامرأة خيالية تجمع فى شخصها كل صفات الأنوثة ويستمتع بها من كل وجه ما خلا متعة الجسد التى لم تكن تتوفر فيها . وقد وجد فى مسز أوستن التى كانت تقطن إلى جوار بيت أبيه كل هذه الصفات . وكانت أولى النساء الكثيرات اللائى لعبت صداقتهن البريئة معه دوراً هاماً فى تاريخ حياته .

وكان له فى مسز أوستن عون كبير . فبثها مخاوفه وآلامه ، ثم باح لها أخيراً بسر مخطوطه . وقد اطلعت مسز أوستن على القصة فأعجبت بها أيما إعجاب ، وبحثت لها عن ناشر ، وصدر الكتاب غير مذيل باسم مؤلفه . وشنت عليه حملة من الإعلانات القوية البارعة . وقرأه سكان لندن ، وأغرقوا فى الضحك منه . ورأى كل قارئ فى الكتاب صورة من رجل يعرفه يثير الضحك

والسخرية . ونجح الكتاب نجاحاً منقطع النظير . وابتهج لذلك دزرائيلي وصديقته ابتهاجاً عظيماً .

وكان نصراً عظيماً ، ولكنه سرعان ما استحال فشلا ذريعاً . ذلك أن عاملا صغيراً من عمال شركة النشر أذاع اسم المؤلف وفشا سره . فانقلب تهليل الجمهور تهديداً . وحنقوا غيظاً من ذلك الرجل التافه الوقح الذى يجرؤ على الحكم على من هم خير منه . وقال فيه أحد النقاد « إن الطبقة التى ينتمى إليها إليها المؤلف تتبين للقارئ بعض الشيء من إشارته المتكررة إلى موضوعات لا يعلم عنها الرجل من الطراز الحديث إلا قليلا ولا يأبه بها كثيراً » . ويشير ناقد آخر إلى « الادعاء المضحك الذى يتظاهر به المؤلف ليزعم لنفسه منزلة لم يبلغها » . وظن مرى أنه يقصده بإحدى الشخصيات التى صوّرها تصويراً يثير السخرية ، فاشتد سخطه وغضبه وفصم كل علاقة له بدزرائيلي وأسرته .

واضطرب عقل بن . هل صحيح ما زعم ناقدوه ؟ وهل هو حقا مدّعٍ مخادع ؟ لا شك فى أنهم أخطأوا فيما زعموا . ولا مراء فى أن الكتاب الذى يحدث مثل هذه الضجة لا بدأن يكون كتاباً عظيما . فليمض إذن فى الكتابة والتأليف حتى يصل إلى قمة

الكتاب . ولتعو الذئاب حتى يبح صوتها ، فلسوف تخضع له في نهاية الأمر .

وتأثرت صحته تحت ضغط هذه العواطف القوية الجامحة . ولما كان الأمر يهم أسرة أوستن فقد حملوه على أن يرافقهم في رحلة إلى البندقية . وهناك أخذ يتنزه في القوارب المائية على متون القنوات في الليالي المقمرة وهو ينصت إلى الموسيقى الناعسة الناعمة ، فاسترد نشاطه وطموحه ، وإن لم يسترد بعد كامل صحته . ثم عاد إلى وطنه مرة أخرى ، واستحال عليه العمل من شدة ما كان يعاني من آلام الرأس .

وكان أبوه اسحق قد سئم لندن فاشترى بيتاً فسيحاً على مقربة من براندنام . وهنا وسط القاعات الفخمة الشامخة وأمام الملاعب الواسعة العريضة استطاع بن أن يسد رغبته في العظمة والأبهة . وظل على ذلك عدة أشهر يبحث مع (سارة) بما آل إليه أمره ، متجولا في الغابات وسائراً وسط الحقول . وقد قوت هذه العزلة روحه المحطم في أول الأمر ، غير أنه أخذ بعدئذ يملها ويشعر بالتقاعد قبل أوانه ، فكان ضجيج لندن يرن في مسمعيه وسط الحقول والأحراش ، ويلمع في هذه المدينة العظيمة أمله

المنشود ، والعظمة التى كان يتحرق إلى بلوغها ، فصمم على الرحيل إليها .

(٤)

درس بنيامين طباع الرجال ، ولـكن بعين الشباب ، فأراد الآن أن يعيد الدراسة لـكى يكون أكثر خبرة وأصدق حكما . وكان قد تعرف إلى ادوارد بُلْور لِتُنْ فتردد على زيارته فى بيته . وفى هذا البيت كان يجتمع الرجال البارزون فى الشعر والسياسة . ووسط هذه الجماعة المرحة حل دزرائيلى ، أشد أناقة منه فى أى عهد سبق ، خافت الصوت متواضعاً صغير الشأن . ويسجل فى مذكراته الخاصة هذه العبارة ليتخذ منها شعاراً لنجاحه الاجتماعى « لا تتكلم كثيرا .. ولا تجادل .. وتحدث إلى النساء ما استطعت ذلك . فليس هناك ما هو أكبر خطرا من الظفر بتقريظ النساء . »

وقد سحرت الولائم الفاخرة فى البيوت الحديثة لب دزرائيلى فكتب قصة « الدوق الشاب » وقدمها إلى الجمهور . وقد تحير أبوه من أمر هذا الشاب وقال : « وماذا يعرف بن عن حياة الدوقات » فهزت (سارة) كتفيها وقالت : « وما الذى لا يعرفه بن ؟ »

إن دزرائيلى ليعرف كل شىء ، وينقد كل شىء . ولما دخل مجلس النواب لم يعجبه شىء ، ولم يعجبه كبار الخطباء فى ذلك الحين . وتفتح أمام عينيه الباحثتين عالم جديد . تعلم بن — كما تعلم غيره — أن السيف أصدق أنباء من الكتب . ولكنه رأى الآن أن صوت الخطابه الرنان أقوى من السيف ومن الكتاب . وأخذ يجول فى أروقة المجلس مسحوراً مأخوذاً . وحسد النواب على مراكزهم . ما أروع أن يقف النائب على المنصة ويخطب فى الأعضاء فيهزهم بكلماته كما تهز الأنواء أغصان الشجر . ما أروع العبارة القوية والنكتة اللاذعة ، يتفوه بها الخطيب فيثير الحماسة فى قلوب السامعين ، فيهبوا فى عاصفة من التصفيق تتلاشى فيها جميع الأصوات . ويتخيل اسم دزرائيلى يرن فى ثنايا القرون المقبلة .

ثم يتنبه من غفلته فإذا به فى أحد شوارع لندن ذات الضجيج والعجيج الذى يكاد يصم الآذان ، وإذا بعربة فاخرة تعترض طريقه وتكاد تصدمه ، فيفيق من أحلامه ، وينظر إلى الناس عن يمين وعن شمال ، فيصغرون فى عينيه ، ولكنه يدهش لأنهم لا ينظرون إليه كما ينظر القزم إلى العملاق . إنه ليس فى أعينهم سوى أحد المارة — رجل اسمه بنيامين دزرائيلى . ولكن الوقت كفيل بتصحيح هذا الوضع الخاطئ . ولا بد له من الرحلة

أولا ، ألم يسبقه بيرن إلى ذلك و يمهد له السبيل ليحتذيه ؟ إنه بذلك يعطى الناس فرصة ينسون فيها ما لاقى من فشل .

فرحل إلى أسبانيا موطن آبائه الأولين ، ومنها إلى بلاد اليونان وتركيا ، ثم استقر به النوى فى فلسطين . ورافقه فى هذه الرحلة وليم مرديث وخطيبته (سارة) . وقد اعترض أبوه أولا ، ولكنه اضطر إزاء إلحاحه و إلحاح زميله مرديث إلى التسليم . وفى يونيه من عام ١٨٣٠ بدأ رحيله ، و بشىء من الحزن والأسى ودع برادنام . وفى شىء من الفزع والخوف يترقب استقبال الإنجليز من مواطنيه الذين يعيشون خارج بلادهم . ولكنه يذكر ما قال فى حداثته « المغامرات للمغامرين » ، فيشتد أزره وتقوى عزيمته .

وعبر القارة الأوربية واخترق تركيا ، مبتهجاً برحلته إليها لما يجرى فى عروقه من دم شرقى . وفترت مطامعه برهة وهو مستغرق فى استمتاعه بمشاهد الشرق . ثم اتجه شطر سوريا ، حيث الرمال الحارة التى تمتد ما امتد البصر ، لا زرع فيها ولا نبات . وقد مست هذه الطبيعة فى عظمتها وقسوتها أوتاراً فى نفسه بعيدة الغور .

وأخيراً يرافق قبائل البدو فى رحلاتها و يقيم فى خيامها حتى

يبلغ « جبل الزيتون » فيصعد إلى قمته ويلقى على بيت المقدس والقبر المقدس نظرة نافذة ، فتنتابه هزة دينية عنيفة يستسلم لها ويستكين . فيطمئن قلبه ويهدأ فؤاده . لأنه يذكر أن فى هذا المكان ، داخل تلك الجدران المقدسة يكون الجواب على ذلك السؤال الذى طالما حيره . « إننا جميعاً مسيحيون ، خلقنا على صورة المسيح . »

وتجول فى شوارع المدينة المتربة ، وفيها صور فى مخيلته تلك القصة التى تحمل هذه الرسالة إلى العالم . وهى قصة (ألْرُوى) ذلك الفتى اليهودى الذى يحرر أبناء جنسه من تعصب العالم كله ضده .

ثم رحل إلى مصر كى يلتقى بمرديث . وهنا وقعت المأساة التى انتهت بها رحلته ، فلقد مات مرديث من مرض الجدرى . وضاعف حزن ساره أسفه وأساه ، فسئم بن التنقل والرحيل ، ثم يمم شطر الوطن .

وبلغ برادنام فى أكتوبر ، وقد تساقطت فيها الأوراق إيذاناً بالخريف ، وبدت المدينة مظلمة مكفهرة . وقد ضعف بصر أبيه من إدمانه القراءة ، وحطم الحزن قلب (سارة) فكرست حياتها لخدمته .

وقد وسَّعت الرحلة من آفاق بن ، وسكّنت كثيراً من قلقه . وأدرك الرجل أن الاشتغال بالأدب وحده لا يكفى ، فوجه كل همه نحو ميدان السياسة . وجال ببصره فيه فلم يجد له سوى مدخل واحد ، وذلك هو الظهور فى الصالونات . فاتصل بآل بُلْور ، ليتخذ منهم تكأة يتأهب منها للوثوب .

(٥)

وظهر دزرائيلى فى المجتمعات يتكلم — كعادته — قليلا وينصت كثيراً ، وإذا تكلم لم ينحرف عن موضوع الكلام ، فعرف فى الأوساط بأنه محدّث بارع ، فى جعبته كثير من أروع القصص التى عاد بها من رحلته فى بلاد الشرق . ولزم مبدأه الذى آمن به من قبل وهو إمتاع السيدات قبل الرجال . فجنى من ذلك أطيب الثمار . وتسابقت إلى التعرف به كرائم العقيلات ، ومنهن مسز وندام لويس ومسز كارولين نورتن . وكان بالثانية أشد إعجابا من الأولى . كانت تكرم وفادته فى بيتها ومعها أمها وأخواتها . وكان يأنس إليهن ويسر — كما يقول — من عشرة أولئك النبيلات المحدثات لما يتميزن به من شرف المحتد والجرأة على الحياة . يجلس بينهن مستمعاً ومحدثا وهو فى كلتا الحالين مفعم القلب بالسرور .

ولم تكن هذه البيئة الاجتماعية التى ارتمى فى أحضانها دزرائيلى سوى وسيلة لغاية يرمى إلى بلوغها . تلك هى الاتصال بذوى الرأى من رجال الأعمال فى بلده . وقد استطاع أن يبلغ بغيته بعد لأى ، لأن زوجات أولئك الرجال كن بالرجل شديدات الإعجاب . وأخيراً حقق دزرائيلى مأربه الذى كان يشتهى بلوغه من عهد بعيد . فدُعى إلى مآدب الغداء السياسية الصغيرة . وكانت تساوره الشكوك أحياناً . يجلس إلى جوار سير روبرت پيل وغيره ممن وصلوا بحكم منبتهم إلى كل ما يكافح كفاحا مراً فى سبيل تحقيقه ، فيرتاب ، ويخشى ألا تكون الغاية التى ينشدها قمينة بالوسيله التى يسلكها . هل لامناص حقاً من دخول البرلمان ؟ وهل هدّأت عيشة البذخ من روعه ، وأطفأت نيران قلبه المشتعلة ؟ كان يوجه إلى نفسه هذه الأسئلة وأمثالها وهو عائد إلى بيته فى المساء عقب الحفلات الاجتماعية الرائعة التى كان يحضرها . فلا يحير جواباً ، ويشعر أن الكبر وحده هو الذى يدفعه ويحفزه ثم يعود فيطمئن قلبه بأن هذه الفترة من حياته قد لا تكون سوى فترة السكون الذى يسبق العاصفة .

لا بد أن يكون الأمر كذلك . وقد تجمعت العاصفة فى النهاية واشتد هبوبها . ففى عام ١٨٣٢ صدر قانون الإصلاح

المعروف فى تاريخ إنجلترا ، وهاجت البلاد بأسرها وماجت . ولمح بن فى هذا الظرف فرصة ذهبية ينتهزها فهرع إلى برادنام يدخل هذا المعمعان مرشحا نفسه للبرلمان نائباً مستقلا . ولم يحالفه التوفيق ، ولم تثبط همته الهزيمة . فقد أحس بالنشوة وهو يخطب الناس مرتجلا فيهز فيهم أوتار القلوب . ولا بد له من العودة إلى الشراب من هذه الكأس المسكرة .

فعاد إلى صالونات لندن يشن منها الحملات .

وظفر بن بعشيقة يرافقها ، واستطاع بصحبتها أن يخالط المغرمين بالرياضة ، و برز فى ركوب الخيل ، و بز أقرانه فى الصيد . وفى تلك الأثناء كتب روايته (هنريتا تمپل) تكريما لخليلته .

ولم تكن هذه سوى ضروب من النشاط تافهة ، لا تقاس إلى شغفه بالاتصال بعظماء الرجال ، من أمثال أولئك الذين كان يلتقى بهم فى منزل الليدى بلسنجتن . وهو يقول لها « إنى لأتحرق شوقاً إلى الحركة والعمل . و إنى لأصدأ كالسيف فى غمد الجبان » ولكم كان يحسد أولئك الرجال الذين يستطيعون بما لديهم من بطش وسلطان أن يترجموا الكلمات إلى حركات ! آه لو ظفر منهم بالمعونة !

وأخيراً جاءه العون من لورد ملبورن الذى خلب لبه ما عند

الرجـل من قوة الابتـكار . وسأل ملبورن بن « ماذا تريد أن أن تكون ؟» فأجابه على الفور «أريد أن أكون رئيساً للوزارة» فعقب ملبورن بقوله : « لن تسنح لك الفرصة فى هـذا العهد . ولـكن أوصيك أن تسلك سبيل السياسة . . . ولسوف تستطيع بالصبر أن تحقق كثيرا من أمانيك . . . بيد أنى أوصيك كذلك أن تطرد كل هذه الآراء السخيفة من رأسك . »

إنك لم تسبر يا لورد ملبورن غور الرجل الذى توجه إليـه الخطاب ! إن الصبر لم يطرق قط رأس ذلك الشاب ذى الشعر المجعد .

كان دزرائيلى مرغماً على السكون إرغاماً ، ينطوى على حب دفين للتفوق والعظمة ؛ ولا تكون الحياة مسـتحبة لديه ، إلا إن كانت « موكباً من المجد متصـلا من سن الرجولة حتى ساعة الموت . »

(٦)

وما برح دزرائيلى يتشبث بفـكرة الترشيح للبرلمان مستقلا عن الأحزاب . ولـكن الجمهور لا يصفق للرجل الذى يعوزه الولاء لصاحب العرش أو لحزب من الأحزاب . الجمهور يؤمن بأن

الرجل السياسى لا بد أن يستند إلى تأييد حزبه . فإلى أى الأحزاب إذن ينتمى دزرائيلى ؟ إن الرجل الذى لم يخض مضمار السياسة من قبل قد تتهيأ له فرصة الظهور بين الأحرار ، غير أن دزرائيلى كان يعطف على المحافظين ، ويميل بعض الشىء إلى مبادئهم . فيحزم أمره آخر الأمر على الانضمام إلى المحافظين تحت زعامة روبرت پيل ، ويقسم لهم يمين الولاء والإخلاص .

وما عتمت الأيام تقطب له الجبين . ولكن العهد يبشر بانقلاب سريع . فقد اعتلت ڤكتوريا العرش وهى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها . وباعتلائها العرش انحل البرلمان . ودعا كثير من الدوائر دزرائيلى كى يتقدم لتمثيلها بعد ما انطوى تحت لواء حزب المحافظين . وتقدمت إليه مسز وندام لويس ، التى تعود احترامها والإعجاب بها ، ورشحته للنيابة عن دائرتها ، فلبى لها الدعوة . وما إن ظفرت منه بالرضا حتى كرست كل ما لديها من جهد وذكاء لتأييده والدعوة له . وأخذ دزرائيلى يخطب الناس داعياً لنفسه ؛ ويقول لناخبيه فى إحدى خطبه : « عند ما ألقاكم مرة أخرى سينظر إلىّ كل منكم بشىء من الرضا . . . . وكثير منكم بشىء من الزهو والفخار . »

وانتهى التصويت ؛ وفاز بعضوية البرلمان كل من

دزرائيلي ووندام . وأمسى بنيامين دزرائيـلى نائباً عن برادنام . ولبث يرقب افتتاح المجلس ليفرح بفوزه — ويشعر بما أُلقى عليه من تبعات . ونظراً لما لاقى الشعب الذى ينتمى إليه من مشقات وصعاب خلال تاريخه الماضى : فقـد كان دزرائيلى يحب توحيد الصفوف بين الإنجليز أكثر ممـا يحب ذلك الإنجليز أنفسهم . ويعمل على ذلك أكثر مما يعملون ، فتراه تحت ظلال الأشجار التى تحف بضيعة أبيـه يكرس حياته لخدمة مواطنيه . ويبذل الجهد ما وسعه الجهد ، لـكى يجعل من إنجلترا بلداً نبيلا موحداً عظيما .

أصبح دزرائيلى الآن عضواً فى البرلمـان ، يجلس خلف سر روبرت ، ويستمع إلى الخطباء ، وهو يحلم بذلك اليوم الذى يقف فيه فوق المنصة خطيباً ليلقى خطابه الأول فى نواب الأمة . ولم يكن يدرى أن هناك فئة من النواب لا توليه ثقتها ، فئة من الانجليز المتعصبين الذين يأنفون أن يروا بينهم دخيلا يختلف عنهم فى سحنته ، ويشاطرهم الاجتماع فى ذلك الوسط البريطانى القح .

وأخيراً أشرقت شمس ذلك اليوم العظيم الذى نهض فيه بنيامين خطيبا يحقق أعز أحلامه . ولشد ما كانت خيبته حينما انقلب ذلك الحلم العذب كابوساً ثقيلا . وكأن نجمه قد قدر له

ألا يصعد السماء أبداً دون تقهقر أو تعثر . فلم يكد يتفوه بالعبارة الأولى من خطابه ، حتى أخذ الحاضرون يهزأون منه ببسمات خفية سرعان ما تحولت إلى ضحك عالى الرنين . وقاطعه الأعضاء مراراً وتكراراً ، غير أنه صمد لهم ، وأخذ يغالب سخريتهم بشجاعة نادرة المثال . وقد بدأ خطابه بصوت متهدج وفى شىء من الاضطراب العصبى ، ولكنه استطاع فى النهاية أن يسترد هدوءه وطمأنينته وأن يشعر بالثقة فى نفسه وفيما يقول . غير أنه لم يستطع برغم ذلك أن يتغلب على الأعضاء الثائرين المتذمرين ، فتحداهم بعبارة أخيرة رن صداها فى قاعات المجلس رنيناً عالياً وقال لهم « إنى — وإن كنت الآن أعود إلى مقعدى — على ثقة بأن الوقت الذى سوف تنصتون فيه إلى حديثى آت عما قريب . »

وعاد إلى مقعده برأس مطاطئ وسط ضحكات السخرية والتهكم . وكان ذلك فشلا جديداً يضمه إلى ضروب الفشل الأخرى التى مرت به .

ولكنه لم يعدم كل أسباب العزاء . فهناك رئيسه سر روبرت پيل يشد أزره ويعضده .

وانضم إلى سر روبرت فريق من أصدقاء دزرائيلى من بينهم

شيل الذى وقف مرة فى المعارضين يقول « أنصتوا إلىّ جميعاً . لو كان فى الوجود إنسان يملك القدرة على الخطابة ، فهو هذا الرجل ولست أرى ما يمنعه من أن يصبح خطيباً من أخطب خطباء هذا المجلس . »

ولم يكن ألم الهزيمة سوى إرهاص بالمجد يرتقب الرجل . فإن صوت النبوغ لا بد أن يعلو فى يوم من الأيام . وهذا الصوت الذى أنكره مجلس العموم بادئ الأمر هز أركان العالم بأسره فى نهايته .

(٧)

وأخذ نجمه فى الصعود والثبات . وكانت العقبات التى تعترض طريقه تتحول إلى دعامات تشد أزره وتؤيده . وبعد ستة أشهر من دخوله البرلمان انتقل إلى جوار ربه زميله لويس ، فخف دزرائيلى إلى عزاء أرملته ، فجذبته بعذب حديثها ورباطة جأشها ، وملكت عليه لبه . ورأى فيها المرأة التى لا غنى له عنها لتتم له حياته . فلم يتردد فى أن يطلب إليها الزواج ، وأجابته مارى آن لويس بأن يمهلها عاماً كاملا تدرس فيه خلقه وصفاته .

وكان فى عشقه قوياً عنيفاً كما كان فى كل مغامرة خاض

غمارها ، فبعث إلى تلك المرأة التى سحرته الرسالة تلو الرسالة ، لا يحاول أن يكبح جماح عاطفته ، ولا يتردد فى أن يقول « أحب أن أكون إلى جوارك ، وأن أعيش فى كنفك ، ولا يفارق أحدنا الآخر لحظة ما حيينا » . ولكن يظهر أنه منى بالفشل مرة أخرى ، فقد قل اكتراث مارى آن برسائله تدريجاً ، وأهملت فى إجابته ثم لزمت الصمت المطلق فى نهاية الأمر .

وفى كثير من الرعب والفزع طلب بنيامين أن يحظى بالمقابلة فتلقته لقاء بارداً فاتراً . ذلك لأن روزينا بلور كانت قد حملتها على الأعتقاد بأن دزرائيلى لم يغرم بشخصها وإنما كان يغرم بما لديها من دخل ضئيل . وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك وهى فى الخامسة والأربعين من عمرها ، وهو لم يتجاوز الثلاثين إلا قليلا ؟ وإزاء رفضها وما أحسه من وحشة وعزلة كتب إليها رسالة أخيرة جاء فيها : « إن قرانى بك لن يغنينى فتيلا من أمر هذه الدنيا . . وداعا . . . . وما أقرب الوقت الذى سوف تتنهدين فيه عبثاً على قلب يغرم بك ويحنو عليك . . . حينئذ تعودين بذاكرتك إلى ذلك القلب العطوف الذى أضعته وتلك العبقرية التى خنت عهدها . »

وكان هذا الخطاب شديد الوقع على نفس مارى آن . ذاب له

قلبها حنيناً ورفقاً ، فردت عليه تقول « أستحلفك بالله أن تعود إلى . إنى عليلة وذهنى مشتت ، وقد وهبتك كل قلبى . »

وفى كنيسة القديس بطرس فى ميدان هانوفر تم عقد قرانهما فى شهر أغسطس من عام ١٨٣٩ . وكان قراناً سعيداً برغم سخرية المحافظين المتحذلقين . فقد أولت مارى آن زوجها كل قلبها وعطفها . وكان بنيامين لها زوجاً مخلصاً باراً يقدر لها نفسها العالية وطبيعتها الرقيقة . كانت امرأة نزيهة فى غير نفاق أو رياء ، يعجب بذلك زوجها و إن سخط عليها الآخرون . ثرثارة لا ينقطع لها حديث ، قد يملها سامعوها ، ولكن حديثها كان على قلب زوجها برداً وسلاما .

أخلص لها بنيامين حتى النهاية ، يسكن إليها كلما روّعته الأحداث وداهمته الخطوب .

(٨)

كانت الملكة فكتوريا فى شبابها تمقت سر روبرت بيل نصير دزرائيلى ، لما تميز به من شدة وصرامة . ولما تزوجت من ساكس كوبرج ، وهو من أشد المعجبين بسر روبرت ، أولت الملكة الرجل ثقتها وأدركت همته العالية ومزاياه الرفيعة .

وأخيراً تتم المسرحية فصولا ، ويتأهب دزرائيلى لكى يخطو خطوة واسعة تدنيه من هدفه . وذكر اسمه فى قوائم المرشحين لمناصب الوزارة ، غير أن الأقدار سخرت منه مرة أخرى . كلا يا بنيامين إن فرصتك لم تحن بعد . وشغلت مناصب الوزارة جميعاً ولم يدع دزرائيلى ليتولى أيا منها .

وتحير بنيامين ، وتحيرت زوجته ، من أمرها . فيهرعان إلى سر روبرت پيل يستوضحانه الأمر . فلا يلقيان عنده إلا لقاء فاتراً . ولم يكن سر روبرت پيل — فى واقع الأمر — يتصرف من تلقاء نفسه . إنما هو الشعب الإنجليزى بأسره لا يثق فى الأجانب من قديم الزمان ، ولا يستطيع سر روبرت إزاء ضغط الرأى العام أن يغيّر مجرى الأمور .

ولما حلت الدورة التالية للبرلمان ، لم يكن بنيامين فى مركز يحسد البتة عليه . فهو محافظ بغير منصب ، لايملك أكثر من صوت واحد خافت تحت قبة البرلمان . غير أنه ظل على إخلاصه لنيابته ، يمثل دوره فى رشاقة ولباقة غير عابئ بنظرات الدهش والسخرية .

غير أن هذا السكون لم يكن يلائم طبيعة ذلك الشاب الطموح الثائر ، فلم يحتمل دزرائيلى الموقف طويلا ، وانسدت

المسالك فى وجهه لا يجد منها مخرجاً ، فقال لزوجته : « فى هذا الوقت ينبغى لى أن أنهج نهج تاليران الذى أوى إلى فراشه حينما احلولكت الدنيا فى عينيه ولم يدر ماذا يصنع وأية وجهة يسير . »

ولكن دزرائيلى لم يأو إلى الفراش ، بل رافق زوجته إلى باريس يقضيان فيها الشتاء ويستمتعان بمسراتها وملاهيها ، ويدعوان إلى القصر الملكى الفرنسى لشهود حفلاته بين الحين والحين .

وفى هذا الشتاء قصد إليه فى باريس نفر من شباب انجلترا ممن ضاقوا ذرعاً بأوضاع السياسة القديمة ، وفكروا فى تأليف حزب معارض . ولم يجدوا خيراً من دزرائيلى زعيما لهم .

وأصغى إليهم ، ثم شرع يدبر الخطط . وعاد إلى انجلترا . ودفع إلى الأمام تلك الحركة التى كانت ترمى إلى نبذ القديم وإظهار الجديد .

وأخيراً سقط بيل — ذلك الرجل الذى لا يقهر — واعتلى دزرائيلى متن الموج الصاعد إلى أعلى .

(٩)

وتجددت ثقة دزرائيلى فى نفسه إثر هذا النجاح الذى أحرزه ،

وقد بات الآن أشد رزانة فى طبعه وأقل أناقة فى زيه . وانطفأت نار خطبه قليلا ، وإن تكن فى النفس أشد أثراً ووقعاً . غير أن الجمهور ما برح نافراً منه ، لا يقربه إلى قلبه . تغيرت خصاله قليلا ، ولكنه برغم ذلك لم يظفر بحب الجمهور ورضاه .

ولكن نفراً من الشباب أخذ يلتف حوله ، ونظر إليه البرت وفكتوريا فى شىء من الذعر والخوف ، يخشيان ذيوع اسمه بين الشباب . كما يحقدان عليه تلك الضربات التى وجهها إلى صديقهما المخلص الأمين سير روبرت بيل .

وأخذت الأمور بعد ذلك تتطور بسرعة عجيبة . فينتقل إلى رحمة الله أبوه إسحق ، ويشترى بنيامين ضيعة هيوندن ، وتقيم فيها مارى آن سيدة عليها . ويعين بنيامين وزيراً للمالية ، وقد قبلت الملكة تقليده هذا المنصب بناء على ما أوحى به ستانلى .

وتتطور الأمور مرة أخرى ، فيعزل دزرائيلى من الوزارة بعد الهجوم الذى شنه غلادستون ، ثم تكر السنون سراعاً ، ويبلغ دزرائيلى الخامسة والخمسين من عمره . فيذبل عوده ، ويشحب لونه ، وتضمر بشرته . وبدا الإعياء على محياه ، وغاض معين جماله فى أعين الناس ، ولكنه ما برح فى عينى مارى آن ذلك الشاعر الحالم الذى عرفته أيام تقدم إليها يطلب الزواج ،

وتقول لصاحباتها عنــه : « ما أجمله ! وددت لو رآه الناس وهو مستغرق فى نومه . »

واختفت من حيـاته زمرة أصدقائه الأقدمين ، وحلت مكانها زمرة أخرى . انتقلت سارة إلى جوار ربها ، ومات البرت وتعلمت فـكتوريا أن تضع ثقتها فيه ، وكانت قويه النفوذ صادقة العزم . بل لقد كانت تعطف عليه وتسبغ عليه الرأفة والشـفقة . وظفر دزرائيلى بألقاب شرفية جديدة . ومنحته اكسفورد درجة الدكتوراه . ولم يهلل الجمهور الإنجليزى لأحد من عظمائه منذ ولنجتن مثل ما هلل لدزرائيلى .

وسرعان ما كرت الأيام والأعوام ، وبلغ العهد الفكتورى أوج عظمته . واكتسحت الصناعة الريف . وكان العصر عصر الآلة ، والاختراعات ، والتأملات ، والمغامرات ، والمشروعات العظيمة . ودزرائيلى دائما فى الطليعة .

وتدب بعد ذلك الشيخوخة فى جسم الرجل ، فترى همته أبعد من قدرته . ومافتىء وهو فى الحادية والستين من عمره مقيما بهيوندن يحلم برآسة الوزارة . وشاطره الكثيرون هذا الحلم ، فلقد آمنت به انجلترا فى نهاية الأمر ، وقبلت ما ليس منه بد . إن البلاد لا تستطيع أن توليها حبه ، ولـكنها تقدره وتضع ثقتها فيه .

وكان من جراء انتشار المصانع أن تجمع فيها الناس وتبادلوا الحديث . وتنفس العمال معبرين عن مطالبهم ، وثاروا وتظاهروا وطالبوا بالتمثيل فى البرلمان ، فانتهز دزرائيلى هذه الفرصة ، وتحدى غلادستون وقوى المعارضة كلها ، وقدم فى البرلمان اقتراحا بإباحة حق التصويت على نطاق أوسع . وقد تعلم التكتم والمكر . لا يبتسم ولا يكشف عن سره . ولم يعلم أحد بدخيلة نفسه سوى مارى آن وأصدقائه المقربين ، وأطلق عليه الناس «أبا الهول» .

وكان عام ١٨٦٨ أهم سنى حياته إطلاقا . فقد تقاعد لورد دربى ، وكان ما ليس منه بد . استدعت الملكة دزرائيلى فى إزبورن ، ولم يتلق الرسالة مفاجأة ، وقد أخطرته فكتوريا نفسها إنها تعتزم أن تسند إليه رياسة الوزراة . ونبض قلبه بالسرور عندما قرأ أمر التكليف بتأليف الوزارة ودمعت عيناه بشراً وابتهاجا . لتحقيق مأرب بات بين راحتيه بعدما كان يلمع فى الأفق البعيد .

وأمرته فكتوريا عند استقباله أن يقبّل يديها ، فخر على ركبتيه وقبل تلك اليد الصغيرة الناعمة فى ولاء شديد وإخلاص . فلقد كان يحب هذه المرأة حقاً بغير موار بة أو رياء . وفاض قلبه بأحر العواطف . وأقسم إيماناً مغلظة ليخدمن هذه الملكة الصغيرة أميناً مخلصاً .

وما أعجب منظرهما وهما يقفان جنباً إلى جنب . درزائيلى مديد القامة هزيل البدن ، وفكتوريا صغيرة الحجم بدينة الجسد .

وأقيمت حفلة استقبال كبرى تكريماً للرجل ، أمها الكبراء والعظماء . وتوكأت مارى آن على ذراع البرنس اف ويلز ورأست الحفل شامخة الرأس مرفوعة الهامة . وقد تجلدت فى صبر شديد حتى نهاية الحفل ، تخفى ما تعانى من مرير الألم من مرض السرطان الذى دب فى جسمها دبيبه . ولم تشأ أن تكون عبئاً على زوجها البطل ، وهو الآن فى أشد الحاجة إلى كل جهد يبذله فى مصلحة البلاد .

وكان دزرائيلى سعيداً بما ظفر ، لا يعكر صفوه سوى احتجاب (سارة) عن المجتمع . كان يفتقدها فى هذه اللحظة التى بلغ فيها أوج عظمته . ولم تغب عن مخيلته ذكرى تلك المرأة التى لم تضعف ثقتها فيه فى أية لحظة من لحظات حياتها .

(١٠)

لم يُظهر دزرائيلى بعد الجمهور على كل ما يستطيع أداءه بنبوغه وعبقريته . انتابه الربو وآلام الروماتزم فى هيوندن . وتلقى نبأ هزيمته المروعة وهو يكابد هذه الآلام ويعانيها . وقد أثقلت الأمراض كاهليه ففكر فى الاستقالة . ولكن لم يكن

من طبيعته أن يتخلى عن حزب منهزم . وأرادت الملكة أن تمنحه وتمنح زوجه لقباً من ألقاب الشرف والتكريم ، فتأبّى على نفسه ، وأمست مارى آن كونتيسة بيكنز فيلد ، و بقى زوجها دزرائيلى أو (دزى) كما كان يلقب أحيانا — مجرداً عن الألقاب .

وقد جاء هذا التكريم للزوجين فى سن متأخرة . فقد ناهزت الزوجة الحادية بعد الثمانين ، و بلغ الزوج الثامنة بعد الستين ، وكلاهما عليل مريض . يقضيان أكثر الوقت فى الفراش . فإن تحسنت صحتهما قليلا ظهرا فى المجتمع بمظهر يلفت الأنظار ، فمارى آن كالمومياء فى فاخر الثياب ، و بنيامين أصلع الرأس إلا من خصلة واحدة صبغها بالسواد ، أجنبى فى ملامحه كالصقر فى طلعته .

وأخيراً انتشر السرطان حتى المعدة ، فتعسر على مارى تناول الطعام ، واستسلمت لبارئها . وحزن عليها زوجها حزنا شديداً استدر العطف حتى من أعدائه وخصومه . وكتب إليه غلادستون نفسه عزاء حاراً لا يصدر إلا من قلب صديق حميم .

وتبدلت حياة الرجل تبديلا شاملا بعد وفاة زوجته . فقد آل البيت إلى الورثة ، وانتقل دزرائيلى إلى أحد الفنادق . وظن الناس أن فى ذلك نهاية حياته العملية .

ولشد ما خاب ظنهم حينما ظهر فى ميدان السياسة مرة أخرى

بنشاط موفور وعزم من حديد . وكأنه يجد فى السياسة مخففاً من آلام المرض .

ورحبت ڤكتوريا بعودته إلى السياسة ، فهى لم تغرم بشخص غلادستون ولم تطمئن إلى سياسته . وكانت تنظر إلى الحوادث التى أدت إلى سقوطه بارتياح عظيم . وراقبت بسرور وابتهاج ما كان يقوم به دزرائيلى من عمل أدى به إلى الظفر فى النهاية . وأخيراً فى عام ١٨٧٤ التقت به مرة أخرى فى الحكم والصداقة . وكانا حقاً مدعاة للعجب — شخصان يريان بعين واحدة ، يفوق إخلاصهما للإمبراطورية البريطانية كل إخلاص ، يتفقان فى التزام الأمانة والثبات .

وكرس دزرائيلى كل ما بقى لديه من نشاط لخدمة الملكة ڤكتوريا ، وقدم إليها الهبة تلو الهبة . هز عصاه السحرية فى عام ١٨٧٥ فأضحت قناة السويس حقيقة واقعة ، فازدادت الإمبراطورية مجداً وفخاراً . ثم هز عصاه مرة أخرى فى عام ١٨٧٦ فأمست ڤكتوريا إمبراطورة الهند ، فازداد تاجها تألقاً وبريقاً . وبادلته التقدير ، فهزت هى الأخرى صولجانها ، فإذا بدزرائيلى يصبح لورد بيكنز فيلد . وإذا به زعيم مجلس اللوردات .

وبلغ الرجل الآن الرابعة بعد السبعين . إرادته وعزمه

وروحه تحلق فى السماء ، ولـكن السنين الطوال قد فعلت فعلها وبدا أثرها على صحته . فـكثيراً ما تغيب عن المجلس بسبب المرض . وكثيراً ما كانت الملـكة ترسل إليه الزهور من حديقتها الخاصة . وكثيراً ما كان يبثها رغبته فى اعتزال الحـكم ، ولـكنها لم تجبه إلى مطلبه . «فالنسر المريض مايزال نسراً ، ولا تستطيع الحمامة (تقصد نفسها) أن تحلق وحدها فى المرتفعات البعيدة المدوِّخة . »

فيستجمع قواه ليؤدى ما أمامه من عمل شاق . فقد تعقدت مشاكل تركيا وروسيا والبلقان ، وأوشك البركان أن ينفجر ، وكادت الأرض أن تتزلزل . وتهدد روسيا بالاستيلاء على موانى البحر الأبيض المتوسط جميعاً . فتنزعج الملـكة ويطمئن قلبها دزرائيلى ، ويبشرها بالسلام إن هى تذرعت بالصبر والثبات .

وفى مأدبة من مآدب العشاء جلست إلى جوار دزرائيلى إحدى الأميرات فسألته متعجبة : « إنى لست أدرى ماذا تنتظر يا دزرائيلى » فأجابها بكل هدوء « البطاطس ياسيدتى » .

وأخذت روسيا فى التقهقر البطىء عن الأرض التى احتلتها ، وسلمت نهائياً عندما علمت بنبأ وصول الجنود الهنود سراً إلى الميدان . وقد تم لإنجلترا كل هذا النصر دون أن تصاب بضربة واحدة ، أو تفقد رجلا إنجليزيا واحداً . فما فتىء دزرائيلى ساخراً

كبيراً . ولكنه الآن أحس بعبء العمل ثقيلا على كاهليه ، ولم تسعفه صحته العليلة ، فتمنى اعتزال الحكم ، غير أنه لم يستطع أن يجابه الملكة بهذا الطلب .

(١١)

ثم سافر إلى برلين لكى يوقع على المعاهدة التى سلمت له بكل ما يطلب ، وقد تحامل على صحته فى سبيل النصر الأدبى . كان فى شبابه يقول المغامرة للمغامرين ، أما فى شيخوخته فالنصر للمتشجعين . وما كان أشد حاجته إلى الشجاعة فى هذا المؤتمر الذى تآمر فيه أعضاؤه عليه . قبلت روسيا عدم الاعتداء على تركيا ، على ألا تحصن تركيا حدودها ضد بلغاريا المحتلة . وهو إنكار مباشر لمعاهدة لندن . وبعد نقاش حار بين جورتشاكوف وبيكنز فيلد ، يصر بيكنز فيلد على أن مطالب بريطانيا تعد بمثابة إنذار نهائى ، فيبعث الروس برسولهم إلى الإمبراطورية وتتوقف جلسات المؤتمر . ويكتب بيكنز فيلد إلى الملكة يقول « لست أخشى ما يسفر عنه المؤتمر ... »

وينتهى أمد الإنذار البريطانى . وتصر روسيا على عنادها . فيلصب دزرائيلى بالورقة الأخيرة ، ويأمر بإعداد قطار خاص يحمله وحاشيته إلى كاليه . حينئذ يعرض بسمارك « سياسة التوفيق » ،

ويتشبث بيكنزفيلد بمطالبه كاملة ، ويقف التيتونى البدين أمام اليهودى النحيل وجهاً لوجه . ويدعو بسمارك بيكنز فيلد إلى تناول العشاء معه ، ثم يسرع إلى إمبراطوره يعرض عليه الأمر قبل الاجتماع . ويكتب دزرائيلى للملكة عن هذه المقابلة يقول :
« . . . . . إن بسمارك كان يعتقد أن الإنذار البريطانى لم يكن مجرد تهديد : وقبل أن آوى إلى فراشى ، علمت أن سنت بيترز برج قد سلمت . »

واستحال تقدير بسمارك لبيكنز فيلد إعجابا به ، ويصرح « بأن ذلك الشيخ اليهودى رجل أى رجل ! »

ولم يتمتع هذا الساحر بحب الجمهور كما تمتع به فى هذا الظرف . فالبلاد كلها تقدس (دزى) رجلها الفذ .

وكان يوم النصر قصيراً . فتجمعت السحب مرة أخرى ولاحت عند الأفق . فالهند فى اضطراب ، وجنوب أفريقيا فى ثورة . والحالة تنذر بانتشار المجاعة فى البلاد . وغلادستون كعادته يشن الحرب الكلامية ضد «هذا الزنديق وسياسته الجنونية» . ويدب الخلاف بين دزرائيلى ومليكته العظيمة .

لكن الساحر لم يفقد بعد كل حيله وفنونه . فيهدئ من روع الملكة ، ويرد السكون إلى كل مكان . وحمامة السلام

ترفرف بأجنحتها فى كل صقع إلا فوق أرض الوطن . فقد اشتد الخوف من انتشار المجاعة ، فالسماء لا تكف عن المطر ، والزرع فى خطر ، وتتأزم الأمور ، ولا يسمع دزرائيلى فى هيوندن إلا أسوأ الأنباء .

وأجرى فى البلاد انتخاب جديد هزم فيه حزب المحافظين هزيمة منكرة . ويبتهج غلادستون لهذه النتيجة التى أدت إلى نبذ دزرائيلى أو « آلة الشيطان » كما كان يسميه .

وكانت هزيمة بيكنزفيلد على نفسه برداً وسلاما ، فقد أدت به إلى خير ما كان يتمنى — الخلود إلى الراحة والسكينة . وانصرف بذهنه مرة أخرى إلى الآداب والفنون . ولا ننكر أنه فقد مقابلاته للملكة التى كانت تثير فى نفسه الحماسة ، ولكنه لم يعد يحتمل أعباء الحكم وما يتطلب من مجهود .

ثم كان اللقاء الأخير بين هذين الشخصين العظيمين ، الذى منحته فيه الملكة تمثالا نصفياً لها من البرنز . فيقبل الرجل يدها السمينة الصغيرة للمرة الأخيرة ، وقد وعد ألا يقطع عنها رسائله . وبر بوعده ، وأرسل إليها خطابات عدة — ثم أوى كل منهما إلى مقره الأخير .

ويعود إلى هيوندن آخر الأمر صاحبها وسيدها . فتهش له ويهش لها . ويتردد على زيارته نفر قليل يصعقهم ذبول الرجل ونضوب ماء الحياة فيه . فلم يعد سوى كتلة من الجلد والعظام . ولم تستر رأسه الأصلع سوى خصلة واحدة من الشعر مصبوغة . وقد فتر نشاطه الجثمانى ، حتى الجفن لا يتحرك إلا عند ما تطرق مسمعيه عبارة أخاذة . غير أن ذهنه لم يفقد حدته ، ولسانه لم يزل ذرباً كعهده أيام الشباب . إلا أنه لا يستطيع الكلام إلا بعد أن يتناول دواءه الذى يسترد به أنفاسه الضعيفة .

واحتفظ على جدران بيته بصور الأشخاص الذين أولاهم فى حياته حبه ، وكان يسمى تلك المجموعة من الصور « معرض الصداقة . »

وتردد كثيرا — برغم نصيحة طبيبه — على مجلس اللوردات . وألقى كثيرا من الخطب على زملائه السابقين ، قوى البيان ، ولكن فى شىء من عسر اللسان .

ثم يعود إلى بلدته . وتصيبه نوبة من البرد تلزمه الفراش . ويعوده طبيب الملكة الخاص ، ويعد بالشفاء ، ولكن دزرائيلى أكثر منه علما بصحته . يقول للطبيب « إنى أحب أن أعيش ، ولكنى لا أخشى الموت » . وتراه وسط آلام الموت يعد خطابا

يلقيه و يصحح زلاته بعناية فائقة ، قائلا « لست أحب أن يتداول عنى الخلف أخطاء فى النحو . »

وفى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ينهض الرجل متثاقلا ، و يطرح رأسه إلى الوراء ، و يتأهب للكلام كعادته ، ثم يعود إلى مكانه . وفى التاسع عشر من إبريل من عام ١٨٨١ يقوم بنيامين دزرائيلى بآخر مغامراته ، فيلج باب الموت رضى النفس مطمئن الفؤاد .

ولم تستطع الملكة أن تشترك فى تشجيع الجنازة . ولكنها بعد ما قويت على المسير مشت على قدميها على الطريق الذى سلكه موكب الجنازة . وأرادت أن تقف وحدها أمام قبر رجل كانت تعده من أعز الأصدقاء . وأمرت أن يقام له فى الكنيسة أثر يخلد ذكراه العاطرة . وقد دونت على هذا الأثر عبارة بليغة انتهت بهذه الكلمات « إن الملوك يحبون الصادقين . »



جيته

جوهان ولفجانج فون جيته

١٧٤٩ — ١٨٣٢

---

(١)

كان الشبان فى القرن الثامن عشر — كشبان اليوم — يميلون إلى التجديد ، ساخطين على العالم الذى يعيشون فيه ، يحاولون أن يستبدلوا به عالماً آخر أقرب إلى قلوبهم ، يحقق أمانيهم ويبلغهم ما كانوا يأملون ، وقد اتخذت هذه الثورة فى نفوس الشباب فى فرنسا وأمريكا لوناً سياسياً . ولكنها فى البلدان الأخرى — وبخاصة فى ألمانيا — كانت ثورة عقلية بحتة . فقد نبذ جنود الثورة فى ألمانيا الآراء العتيقة السائدة فى البلاد . وتركوا الحكومة العتيقة وشأنها . كانت ثورتهم ثورة القلم لا ثورة السيف . حرروا عقول مواطنيهم ، ولم يأبهوا كثيراً بأجسامهم . كانوا يعتقدون فى حرية الفكر لا فى حرية الحركة . كانوا « الانقلابيين المحافظين » فى القرن الثامن عشر .

وكان زعيم هذه الثورة الفكرية جوهان ولفجانج فون جيته .

وقد اضطرمت هذه الثورة فى نفسه منذ حداثته . ففى السادسة من عمره ثار على الله والدين . وفى السابعة عبر عن ريبته فى عدالة البشر . وفى الثامنة كتب مقالا باللاتينية وازن فيه بين حكمة الوثنيين وحكمة المسيحيين . وفى الحادية عشرة كتب رواية عالمية بسبع لغات . وفى الثانية عشرة اشترك فى مبارزة عنيفة . وفى الرابعة عشرة اشتعل قلبه حباً لآخر مرة فى حياته . وفى الثانية بعد الثمانين أتم كبرى قصائده ، وهو الجزء الثانى من (فاوست) .

(٢)

ولد جيته فى عام ١٧٤٩ . وكان جده الأكبر حدادا . وجده الأول طرزياً . ولكن الطرزى استطاع أن يجعل من إبنه جوهان كاسپر رجلا له مكانته فى المجتمع . فقد ارتفع حتى شغل منصب مستشار ملكى فى فرانكفورت ، وسرعان ما نسى نشأته الوضيعة .

ولم يذكر جيته بن جوهان كاسپر قط الحداد والطرزى من بين أجداده . .

وتمتع جيته بصحة طيبة أكثر أيام حياته . ولم يشك المرض فى

الأعوام الثلاثة والثمانين التى عاشها غير ثلاث مرات ، فلقد كان من أولئك النفر القليل المحظوظ من البشر الذين يتمتعون بعقل سليم فى جسم سليم .

وتلقى جيته تعليمه فى بيته . ولما كان أبوه واسع الاطلاع فى الآداب القديمة ، صارما حازماً يحب الإبقاء على القديم ، فقد اختار لابنه دراسة يتدرب بها عقله ولا يتسع بها خياله . وعلى خلاف ذلك كانت أمه ساذجة طيبة القلب ، مرحة ، وتعد من الشابات المثقفات فى عصرها — ولم تعد الثامنة عشرة من عمرها عندما وضعت ابنها جيته . ألهبت فى نجلها خياله الشعرى بما قصت عليه من أقاصيص من بنات خيالها ، وبحثّه على معاونتها فى حبك العقدة وفى خلق أشخاص رواياتها . يقول جيته : « إنى مدين لأبى بنظرتى الجدية إلى الحياة ، ولأمى الصغيرة بحبى رواية الحكايات . »

أراده أبوه أن يدرس القانون وأن يكون أستاذاً فى الجامعة ، غير أن جيته لم يكن يميل إلى القانون ولا إلى مهنة التعليم ، ولكنه نزولا على رغبة أبيه ، التحق بجامعة ليبزج عام ١٧٦٥ ، وأخذ فى الوقت عينه يشبع رغبته فى دراسة الحياة لا فى دراسة الكتب .

ونظراً لثراء أبيه استطاع جيته أن يخرج من قوقعة بيته وبلده ومن التقاليد المحيطة به وأن يزج بنفسه فى ميدان الحياة فى جرأة وإقدام . ولم يحمل لمعلميه فى نفسه أقل تقدير أو احترام . يقول : « كنت أحسب أنى أعرف عن الله وعن العالم مثلما يعلم الأساتذة أنفسهم . » وأحس أنه يستطيع أن يعلم عن الحياة إذا هو ارتاد مجامع الناس أكثر مما يستطيع داخل حجرات الدرس فى المدارس والمعاهد . وفى ذلك يقول : « إن الوقت يفر منى فراراً فى المجتمع وفى قاعات الموسيقى والمسارح والولائم والنزهات . يا له من وقت ممتع ! لكنه باهظ التكاليف . ولا يعلم إلا الشيطان مقدار ما يعانى من أجل ذلك كيس نقودى . »

قال عنه أحد زملائه فى الدرس فى ذلك الحين معبراً عن جموحه واندفاعه « إنه لأيسر المرء أن يؤثر فى الحجر والشجر من أن يرد جيته إلى صوابه . »

ولكنه عاد إلى صوابه من تلقاء نفسه عندما أرادت ذلك مشيئته . قضى جيته حياته منغمساً فى الخمر والنساء . ثم استحالت خبرته من هذا السلوك نشيداً وغناء . وبعد ما تعلم كل ما يريد أن يعلم عن مجتمع ليبزج ، رحل من صخب المدينة إلى هدوء الريف ، حيث كان يضرب فى أحشائه سيراً على قدميه يقرأ

شيكسبير وهومر ويرسل خياله فى الشعر والأحلام .

إنما كان جيته يعيش لـكى يغنى ، وقد بدأ حياته الأدبية طفلا يافعاً ، والآن بعدما بلغ السابعة عشرة من عمره أخرج إلى حيز الوجود أولى دراماته الهامة التى يعالج فيها فساد الأزواج واستهتار المتزوجين . ومن العجيب أن يختار جيته هذا الموضوع من بين الموضوعات العـديدة التى لا يحصرها عد ! فى رواية « الزملاء الآثمين » دقة فى الوصف والشعور يدهش لها القارئ عندما يعرف أن مؤلفها لم يكن يعـدو السابعة عشرة من عمره عندما فرغ من تأليفها . وهى كـكل درامات المراهقين قصة ذات مغزى خلقى . ولـكن المغزى يحوى حكمة الشيوخ المحزونين الذين ارتـكبوا الآثام وعانوا فى سبيلها الآلام . ويختتم فيلسوف ليبزج الشاب المستهتر قصته بهذه العبارة « لمـا كان أكثرنا مذنباً آثماً فإن الحـكمة تقتضينا جميعاً أن نتسامح وأن ننسى . »

(٣)

وأوشك إفراطه فى الملاذ فى أيام ليبزج — ولياليها — أن يقضى على حياته . ففى صيف عام ١٧٦٨ أصيب بنزيف دموى شديد ، وأوشك الموت أن ينشب فيه أظافره . ولمـا أبل من

مرضه عاد إلى بيته إلى أحضان أم حنون وأب حزين . فلقد أراد الهر جوهان كاسبر جيته لابنه أن يكون محامياً ، فإذا بالصبي ينقلب شاعراً فحسب !

وحاول المستشار — والده — أن يعدل بابنه ولفجانج إلى طريق آخر كان يعتقد أنه الطريق السوى . فبعث به إلى ستراسبرج كى يتمم دراسته « دون أن يشغله بعد ذلك كلام فارغ » ويحصل على درجة الدكتوراه فى القانون .

ولكن جيته فعل فى ستراسبورج مافعل من قبل فى ليبزج . أهمل دراسة القانون واستأنف دراسته للحياة . فاشتغل بالفنون ، وعزف الموسيقى ، وحاول تعلم الطب ، وتفلسف ، وغازل ، وتولى زعامة رجال الفكر فى ستراسبورج . واسترد صحته كاملة موفورة ، وجاس خلال الطرقات فى المدينة كأنه إله من آلهة اليونان . ودخل مرة أحد المطاعم ، فألقى الطاعمون السكاكين والأشواك وحدقوا فى هذا الشاب الغريب الذى يسترعى الالتفات . فلقد كان على حد تعبيره « ثملا بشبابه » . وكل من اتصل به أصابته لفحة من نار روحه المشتعلة .

كان جيته فارساً يجيد الضرب بالسيف ، شاعراً يغنى بسحر اللفظ ما لم تسمعه ألمانيا من قبل ، فلعب برؤوس الشباب

فى ستراسبورج ، وترنح رأسه هو نفسه ثملا من عذب بيانه ونشيده .

كان جيته يعشق فى لحظة ، وينسى معشوقته فى برهة . وسواء كان الغدر من ناحيته أو من ناحية الحبيب فإنه ينظم قصة عشقه فى قصيدة ، ثم ينصرف إلى حب آخر .

ومن فرط شغفه بدراسة الحياة من جميع نواحيها التقى بكل صنف من صنوف الناس — أصحاب الفنادق و بناتهم ، ورجال الدين ، وأساتذة الرقص ، والتجار ، والصناع ، والعمال ، والكهنة والقسس . . . وكان كسبينوزا يجد فى كل امرىء يقابله ناحية مقدسة وجانباً يُحب .

وكان غرامه بالمسرح يفوق كل غرام . يعجب بشيكسبير إيما إعجاب ، ويحاول أن ينقل شيئاً من الدم القانى الذى يتدفق فى المسرحيات الإنجليزية لعهد اليزابث إلى إنتاج المسرح الألمانى الشاحب الهزيل . وبتفاؤل الشباب وجهد الطموح أقبل على الفنون — بل وعلى الآراء ذاتها — السائدة فى أمته يهذبها ويرفع من شأنها . وغاص فى تاريخ ألمانيا منقبا عن مادة تصلح لإنشاء مسرحيات رائعة يجد فيها المجال الفسيح لعبقريته ونبوغه . وقد عثر على تلك المادة فى حياة (جتزفون برلخنجن) وهو فى

الأساطير الألمانية بمثابة روبن هود فى الأدب الإنجليزى . اطلع جيته على مغامرات هذا الرجل وثوراته فى وجه الأساقفة والنبلاء معبراً فى ذلك عما يجول بخاطر الفلاحين المزارعين ، فألهبت خياله وأوحت إليه مسرحية من أعنف — ومن أعظم — ما كتب باللسان الجرمانى . وقد بقيت هذه المسرحية زمناً إنجيل الشباب الناهض فى ألمانيا ، الذى قدس جيته نبى هذا الدين الجديد الذى يبشر بالثورة والاندفاع .

وبرغم ذلك فقد استطاع أن يقتنص من وقته الذى أنفقه فى التهور والاستهتار فرصة يحصل فيها على دكتوراه القانون ، فسر لذلك أبوه كثيراً ، وبعث به إلى محكمة وتزلار العليا يستزيد علما وخبرة . ولما بلغها جيته وجد بها عشرين ألف قضية تنتظر حكم القضاء فيها . وأن النظر فيها يستغرق مالا يقل عن ثلثمائة وثلاثة وثلاثين عاما . فكان فى ذلك تقرير مصيره . فقد فقد القانون فى عينيه جلاله ورهبته . وقرر بغير تردد أن يعود إلى الأدب ، وأن يجعله شغله الشاغل مدى حياته .

وفى خلال إقامته القصيرة فى وتزلار خر — كعادته — صريعاً لحب عنيف . وكان الموقف هذه المرة معقداً أشد تعقيد ، لأن لتشن — الفتاة التى أغرم بها قلبه — كانت مخطوبة من

قبل. ففكر جيته برهة فى الانتحار . واحتفظ بخنجر تحت وسادته ، وحاول كل مساء أن يستجمع شجاعته و يطعن الخنجر فى قلبه . وأخيراً قرر أن يكتب قصة حبه اليائس فى رواية ، وأن يقتل بطل الرواية ، و يستغنى بذلك عن قتل نفسه . تلك هى رواية « آلام ڤرتر » ، وهى قصة فيها خيال رائع وجمال بارع . هى سيرة رجل شاذ ، فنان رقيق الحس لا يطمئن إلى رفقة الزملاء ، ولا يجد صحبته إلا فى عزلة المراعى والحقول . هى رثاء ما فى الحياة من أحزان ، وأنشودة الموت الذى تهواه النفوس .

وكان لآلام ڤرتر أثر عميق على الجمهور الألمانى . فقد نحا الشباب نحو ڤرتر فى زيه ومظهره ، يلبسون السترة الزرقاء والصدار الأصفر ، وارتدت الشواب ثيابا بيضاء مزركشة باللون القرنفلى كما كانت تفعل لتشن . وكان الكتاب يباع فى ألمانيا فى زوايا الطرقات كما تباع الصحف . وحتى فى بلاد الصين كان صناع الخزف يصنعون منه تماثيل لڤرتر ولتشن . ووجدت فى بعض الأصقاع جماعات عاطفية من المعجبين بالكتاب أطلقت على نفسها اسم جماعات ڤرتر التى تهدف إلى قتل النفس وتحبذه . واجتاح أوربا وباء الانتحار دليلا على الولاء لعبقرية جيته .

ولكن جيته نفسه لم يشأ أن يقضى على حياته فى ذلك

الحين . ولم يعبأ بحبه وبكتابه أو بالمعجبين به ، وسار فى حياته بقتحم الميادين الجديدة ويقوم بمختلف المغامرات .

(٤)

سخر جيته من التقاليد المرعية ، ولكنه قدس السلطة وأصحاب النفوذ . كتب إلى أحد أصدقائه مرة يقول « إنى لا ألومك على حياتك فى هذه الدنيا وتعرفك إلى أصحاب النفوذ والسلطان ، فإن الاتصال بالعظماء يعود بالنفع على الرجل الذى يعرف كيف يفيد من هذا الاتصال . » ولذا فإن جيته قد خف إلى تلبية الدعوة التى وجهها إليه الأمير كارل أغسطس لكى يزوره فى بلاط فى ويمار .

وفى عام ١٧٧٥ بلغ ويمار وعمره إذ ذاك ستة وعشرون عاماً . وفى ويمار عاش إلى آخر العمر . وأقام فى (البستان) إلى جوار القصر . ووزع وقته بين الشعر والسياسة . دان لأبولو وكرس حياته لخدمة كارل أغسطس . وكان فى ألمانيا بمثابة كنفيوشس يعلم أميره كيف يحكم ، وكان لأميره أول الخاضعين . وانحصر روحه الثائر فى كتبه ، وكان فى حياته الخاصة رجلا من رجال البلاط المخلصين . كان مرة يسير مع بيتهوفن فمرت حاشية الأمير ، فانطلق الموسيقى فى مشيته يشق الجماهير المحتشدة متحديا لأنه رجل

لا يؤمن بغير فنه . أما جيته فقد كان يقدس الملكية أكثر مما يقدس فنه ، فتنحى جانباً ، وخلع قبعته ، وانحنى للموكب احتراما وتبجيلا . ذلك لأنه كان ابن ألمانيا البار ، وكان يفخر بأنه شاعر البلاط العالمى . وكان أكثر فخاراً بكرامة وظيفته كسكرتير خاص لأمير من أقل أمراء ألمانيا شأنا . فإن ساكس ويمار ، الأقليم الذى يتأمر عليه كارل أغسطس ، لا تملك جيشاً يربى على الستمائة محارب . ولكنه جيش ضرورى للألمان الذين يقدسون الروح العسكرى . فإن كل أمير جرمانى — مهما صغرت أمارته — كان لا بد له من جيش تعبده رعيته ، وقد روى عن أمير من أصدقاء كارل أغسطس أنه «يملك قوة حربية عظيمة تتألف من سبعة ضباط واثنين من جنود الصف ! »

تلك كانت إحدى المظاهر الصبيانية التى يتظاهر بها الأمراء الألمان فى القرن الثامن عشر . وبرغم ما تميز به جيته من عبقرية ونبوغ فإنه لم يخل من حب هذه المظاهر . وكانت الحياة فى بلاط ويمار مرحة طروب ، وعبء العمل خفيف على عاتقه . وحبب إلى الناس الصيد والانزلاق على الثليج ، وجعل من الغزل لهواً طريفاً يمارسه الشبان المحدثون المجددون . يقول فى إحدى رسائله « إننا على شىء من الجنون هنا ، وكلنا يمثل دور الشيطان . »

وإن كان قد تنازل لكارل أغسطس عن استقلاله الذاتى فقد ظفر منه لقاء ذلك « بما لا يجود به العظماء إلا نادراً — المحبة ، والفراغ ، والثقة ، والمنزل ، والحديقة . » كان جيته يحب فنه ، ولكنه كان كذلك يؤثر راحته . لم يكن الرسول الذى يبغى الموت من أجل (الحقيقة) ، وإنما كان الشاعر الذى يحب أن يعيش من أجل (الجمال) .

(٥)

لبث جيته فى ويمار خمسين عاما جعل منها مركزاً أدبياً عالمياً . وجمع حوله طائفة من الرجال والسيدات النجباء ، تزعمهم ، وأخذوا يتناقشون فى الفلسفة ، ويكرسون أنفسهم للشعر ، ويلهون بالحب . ثم أشرف على مسرح صغير ، تولى إدارته ، وكتب له بعضاً من أعظم ما أنتج هذا القرن من مسرحيات . ولبث أسلوبه فى الكتابة طلقاً قوياً طيلة أيام الشباب . ففى روايته (ستلاّ) مثلا سمح لبطل القصة أن يعاشر زوجته ومعشوقته فى آن واحد ، وهو وهما بذلك قانعون راضون . غير أن هذا السلوك آثار سخط الجمهور ، فأعاد جيته كتابه الفصل الأخير من القصة وهيأ البطل الذى لم يستطع أن يهجر زوجته أو عشيقته لحل المشكلة وذلك بالانتحار .

وأخذ هـذا الشذوذ البالغ فى مؤلفات جيته يتضاءل شيئاً فشيئاً ، حتى تلاشى نهائياً ، وأفاق من سكرة الشباب ، ولم يعد بعدئذ ثائراً يرمى إلى تحطيم العـالم ، بل فيلسوفاً يحاول أن يحل ما أشكل منه ويفسر ما غمض فيه .

وظل طيلة حياته بعد ذلك يبحث عن النور والجمال . ظل يبحث عن الجمال حتى خلال القبح والـكآبة ، وعن الـكرامة وسط الذل والخضوع ، وأغرم مثل وتمان أشد الغرام بدراسة الناس مهما انحطت مكانتهم . و إن كان يطأطئ الرأس للأمراء فهو لم يتحاش عشرة الفقراء . بل لبث طيلة حياته صديقاً مخلصاً « للقصابين والخبازين وصناع الشموع » فى العـالم — كما جاء على لسانه . وقد قال مرة عقب زيارة له لبعض عمال المنـاجم « ما أشد الحب الذى عاد إلى قلبى نحو هذه الطبقات الدنيا ! » ثم يقول « إن هـذه الطبقات التى يسمونها الدنيا هى — عند الله — من غير شك أعلى الطبقات ! »

ولم يكن عطفه على هذه الطبقات بلاغة تجرى على طرف اللسان و بيانا ينساب من سن القلم فحسب . فمن راتب ضئيل قدره ألف ريال يتقاضاه سنويا كمستشار لـكارل أغسطس كان ينفق على رجلين غريبين تقدما إليه يلتمسان الصدقة والمعونة .

وبرغم أنه لم يعرف البؤس والشقاء أكثر أيام حياته كان يعطف على الأشقياء والبائسين . فقد وهبه الله من قوة الخيال ما يجعله يمد بصره إلى أبعد من أفق حياته الخاصة .

كان عقله مرنا وكفاياته متنوعة ، لا يباريه فى ذلك أحد من رجال القرن الثامن عشر فيما نحسب . لم يكن شاعراً ومصوراً وموسيقياً فحسب ، بل عالماً كذلك له فى العلم إنتاج له قدره وقيمته . وكان فى شعره يدرك الوحدة المطلقة التى ينطوى عليها ما يبدو على الأشياء من تنوع واختلاف . وفى علمه يحاول أن يبرهن على هذه الوحدة . درس النبات والتشريح ونظرية الألوان دراسة مسهبة . وألّف كتابا فى الأدوار التى تمر بها النباتات فى تطورها ، ذكر فيه أن الزهور ليست سوى أوراق الأشجار فى صورة جديدة بديعة — أو هى فى تعبير خيالى أوراق استحالت قصائد من الشعر المنظوم . وفحص جمجمة الإنسان واكتشف بها عظمة خاصة هى دليل الصلة بين الإنسان والحيوانات الدنيا .

كان يهتم بكل ما يتعلق بالجنس البشرى ما خلا الحروب ، فقد كان رجلا مسالماً يمقت القتال . ولم يكن يجرى فى عروقه ذلك الدم البروسى الذى يشتهى الغزو وفتح البلاد .

لشتبك كارل أغسطس فى حرب مع فرنسا فدعا جيته إلى

مخيمه كى يشاهد ما يقوم به الجند من مناورات . فلبى جيته الدعوة . غير أنه بدلا من أن يشغل نفسه بالمواقع الحربية درس الأحجار والزهور التى كانت بمنطقة المخيم . إذ أن جيته كان يحب بلاده حباً جماً ، ولـكنه لا يمقت البلدان الأخرى . ولما اتهم بالتراخى لأنه لم يكتب أناشيد حربية تشعل الحماسة فى القلوب أجاب بقوله : «إنى لم أتفوه قط بما لم يدخل فى تجاربى .... فإنى لم أضع أناشيد الحب إلا بعد ما أحببت . فكيف أستطيع إذن أن أضع أناشيد البغض دون أن أبغض ؟ »

(٦)

وفى منتصف العمر منَّ الله عليه بثلاثة من أسباب السعادة الـكبرى للبشر : زوجة تعشقه ، وابن يحبه ، وصديق يخلص له . ففى عام ١٧٨٨ ، وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره التقى بكرستيان ڤلپس . فعاشرها أول الأمر عشرة حرة ، و بعد بضع سنوات من هذه الحرية استمتعا « بحرية أوسع ، هى حرية الزواج » . وفى عام ١٧٨٩ رزقه الله بالولد ، وفى عام ١٧٩٤ توطدت أواصر الصداقة بينه و بين شلر . وكان جيته حينئذ فى الخامسة بعد الأربعين من عمره وشلر فى الخامسة والثلاثين .

وتستطيع أن تقول أن الصداقة التى قامت بين جيته وشلر ، كانت فى حد ذاتها قصيدة أروع من كل ما دبجت يراعة جيته أو شلر . كانت صداقة بين رجل تستطيع أن تصفه بأنه من أنصاف الآلهة و بين رجل يعانى آلام الموت (فقد فقد شلر من قبل إحدى رئتيه) . وكان جيته وثنيا يقدس الجمال فى حين أن شلر كان مسيحيا ينشد العدالة . وقد بدأ كل منهما حياته وفى نفسه ثورة ، ولكنهما اضطرا أخيرا إلى الاستكانة والاستسلام . وقد روّض جيتــه ما صادفه من حظ سعيد ، وروض شلر فقره وعوزه . غير أن الشاعرين لبثا بعد ذلك يؤمنان بضرورة الثورة على الفن . وكانا ينظران إلى الشعر كوسيلة مقدسة يتحول بها الإنسان العادى إلى إنسان كامل . وهكذا جاهد هذان الرجلان معا ، رسولين من رسل الخلاص ، يبشران بالكلمة المقدسة . لكل منهما عبقرية تتمم عبقرية الآخر وتشجعها . ولما أدركت المنية شلر بعد صداقة قصيرة لم تدم أكثر من أحد عشر عاما حبس جيته نفسه فى غرفته ولبث يبكى كالطفل الصغير . وكتب إلى أحد معارفه يقول «لقد فقدت نصف وجودى . . . ولست أجد شيئاً أدونه فى مذكراتى . و إنما تشير الصفحات البيضاء إلى فراغ حياتى . »

وعمر جيته طويلا . ولكنه دفع ثمنا لهذا العمر الطويل عزلة مملة كئيبة . وقد رزىء فى أحبائه واحدا بعد الآخر — أعز أصدقائه ، وأخته ، وزوجته ، وابنه أخيراً . ولكنه سار فى حياته قدما فى جرأة و بسالة ، يستمد من أحزانه ومسراته على السواء الأناشيد الخالدة . يقول « إنى لم أتفوه قط بكلمة لم تدخل فى نطاق تجاربى » ألّف ستين كتاباً عن تجاربه الروحية والعقلية — أغان ومراثٍ وهجاء وملاحم ومسرحيات ومقالات وقصص — وأساطير خيالية عن الجن والأشباح والعفاريت . وقصص فلسفية عن الأحياء والأموات والآلهة والشياطين . وأخيرا استجمع نبوغه وعبقريته فى آية خالدة ابتدعها من بنات خياله — وهى رواية (فاوست) . وقد استغرقت كتابة نصفها الأول ثلاثين عاما ، واستغرقت كتابة النصف الثانى خمسة وعشرين عاما .

(٧)

وكان جيته يرمى من وراء هذه المسرحية إلى دراسة الإنسانية و إدراك معانيها ، و يهدف إلى قياس قواها وتحديد واجباتها . وهو يشير إلى مغزى المسرحية فى مستهلها . فنشهد الله والشيطان يختلفان فى الرأى بشأن روح الإنسان . فالشيطان لا يحترم الأحياء الذين

يدركهم الفناء . وهو متشكك نا كر ، يعتقد أن العدم خير من الوجود . ولا يرى معنى « لهذا العبث الدائم يعبثه بنا القدر » الذى يخلق الناس لكى يحطم حياتهم ويصرعهم . وهو يؤثر على هذا العالم «ذلك الفراغ الأبدى » الذى خرج منه الكون وبدأ « رحلته التى لم تكن لها ضرورة » خلال الزمان والمكان . ولذا فإن الشيطان يرى أن من واجبه أن يضلل خلق الله وأن ينكر فضيلة البشر . وهو يقول « حتى الدكتور فاوست ، أغزر الأحياء علما وأشدهم استقامة يمكن أن يقع فريسة سهلة لمكائدى لو كلفت نفسى مشقة أغرائه . »

ولكن الله يرى خيرا من ذلك . وهو يقر بأن الإنسان قاصر البصيرة ، حتى إنه لا يفتر عن الكفاح خلال الغيوم والظلال « وهو يجاهد ويرتكب الآثام طوال حياته » ولكنه برغم ذلك — وعن طريق هذه الآثام عينها — « يجاهد بغريزته لكى يشق طريقه صوب النور والضياء . »

وهكذا يتم الاتفاق على أن يقوم الشيطان بإغراء فاوست لكى يرى إن كان يستطيع أن يحطم الجانب الخالد من روحه . ويعقد الشيطان مع الإله رهانا يكسبه الشيطان إذا رأى فاوست أن هذه الحياة الفانية جميلة لا يحب أن يفارقها إلى غيرها .

وفى النصف الأول من القصة الذى يعرفه أكثر القراء يروى لنا جيته كيف أن الشيطان قد استطاع أن يرد لفاوست شبابه ويغريه بكثير من مباهج الحياة ومسراتها — الجمال والثراء والملاذ الحسية والاستهتار ومتعة الحب دون تبعة . وبفعل الشيطان وتأثيره يغرى فاوست مرغريت إلى الفساد ، ثم يهجرها لآثامها وآلامها ويتملك فاوست « حبُّ الخطيئـة » خلال النصف الأول من القصة . غير أنه فى كل ما يرتكب من إثم وخطيئة لا يجد لحظة واحدة من السعادة ، أو موقفاً واحداً يستطيع أن يخاطبه بقوله : « تريث لحظة فإنك رائع الجمال . »

وبعد ما تدرك المنية مرغريت يحاول الشيطان أن يكسب فاوست إلى جانبه بلون آخر من ألوان الإغراء . ويحب فاوست — وهو رمز الإنسان فى هذا العالم — أن يتذوق كل تجارب الحياة « وأن يكشف صدره لكل سهم من سهام الألم ، وأن يعرف كل ما يصيب الناس من حزن وسرور» . وأن يعيش مع الناس ، ويعمل معهم «وأن يشاطرهم مأساة البشرية وانهيارها . »

ومن ثم يمكّن الشيطان لفاوست أن يصبح (كما أصبح جيته) مستشاراً فى بلاط ملكى . وفى هذا البلاط يظفر فاوست — لقدرته وكفايته وما يؤدى من خدمات — بألقاب الشرف

وكلمات المدح والثناء ، ولـكنه لا يظفر بهناءة القلب والسعادة .
ولما كان ساخطا على حياته الراهنة فإنه يستوحى حياة المـاضى ، فيخرج من بطون الزمن السحيق روح هلن التى وردت فى قصة طروادة ، ويردها إلى الحياة ، ويحاول أن يقترن بها (كما أراد جيته أن يقترن بفكر شعراء الإغريق القدماء) . وعند ما يعانق فاوست هلن تختفى ولا تخلّف وراءها غير ثيابها . ومعنى ذلك أن فاوست (أو جيته) سيحاول عبثا أن يدرك مجد اليونان . وبرغم كل ما يبذل أمثالهما من جهد فإن روح العصر القديم تفر منهم ولا يبقى لهم منها بين أيديهم سوى ردائها الخارجي .

وهكذا يسير فاوست من تجربة إلى أخرى ، ولا يجد فى أى منها ما يبعث فى نفسه الرضا والقبول . « ولم تكن مشيئته نفسها سوى سلسلة من السقطات » . وكل ما يتعهد بأدائه — خيرا كان أو شراً — يبوء بالفشل ، أو بالنصر المزيّف الذى هو شر من الفشل . وتراه ينتصر فى معركة هامة يكسب فيها النصر للامبراطور ، ثم يجد أن الظفر فى القتال معناه الموت والهلاك للفريقين المتحاربين . ويقدم له الشيطان المدائن والممالك والقلاع والحسان من النساء والعمل المجيد ، والشهرة الخالدة ، ولـكن فاوست قد سئم كل هذا . ويبدأ قوس حياته فى الانحناء إلى

أسفل ، ولم تعد عليه مسرات الشباب وما قام به من أعمال مجيدة فى عهد الرجولة إلا بخيبة الأمل والرجاء . فقد استولت الهموم على بيته ، واستحالت شهوات الشباب وحماسته رمادا لا غناء فيه . وأصيب بالعمى ، ورضى فى نهاية المطاف أن يتخلى عن السعادة التى ظل ينشدها طوال الحياة .

ولشد ما يكون عجبه أنه يجد السعادة فى اللحظة التى ينبذها فيها . فقد أقدم على مشروع عظيم يرمى إلى ردم المستنقعات التى تقع على شاطئ البحر حتى يجعل منها أرضا تلائم سكن الإنسان . ورسم خطته على أن يبنى البيوت فوق هذه الأرض التى لا يملكها أحد ، تقطنها الملايين من البشر الذين يستمتعون بأقصى حريتهم إذا هم استغلوا الأرض بعملهم وجهدهم الذى لا يفتر يوما عن يوم . ويسر فاوست لهذه الفكرة سرورا عظيما . ذلك هو الهدف الذى من أجله كافح طوال حياته على غير وعى منه ، الهدف الذى من أجله يتجاهل الإنسان ذاته وينساها . وتلك — أخيرا — هى اللحظة الذهبية التى يستطيع أن يقف عندها ويقول « إلبثى برهة فأنت رائعة الجمال ! »

والآن وقد بلغ الذروة من لحظات حياته ، تبلغ حياته غايتها ، ويقضى نحبه . ويظهر أن الشيطان قد كسب الرهان . فتراه بعد

ذلك يطالب بروح فاوست ثمنا لنصره . ولكن الملائكة تهبط وسط وابل من الزهر وترفع روحه إلى السماء . فإن فاوست قد ارتكب الآثام والأخطاء . بيد أنه كان خلال آثامه وأخطائه يكافح بغريزته نحو النور والضياء .

وأول من يتلقاه فى السماء بالترحيب مرغريت . فلقد ارتكبت الإثم وماتت من جراء ما أثم فيه فاوست . غير أنها تنسى كل ذلك وتتسامح فيه . وترى أن رسالتها تنحصر الآن فى هدايته الطريق . « فالمرأة منقذة الرجل الأبدية الخالدة . »

(٨)

والآن بعد ما أتم جيته أروع ما قام به من عمل فى حياته نراه — مثل فاوست — يتأهب للرقاد . وأعدّ له المعجبون العديدون به وبأدبه حفلاً ملكيا يكرمونه به فى عيد ميلاده الثانى بعد الثمانين . ولكنه آثر أن يفر من هذه الولائم والحفلات فصعد فوق جبال إلميناو ، وهناك وقعت عيناه — فى الكوخ الذى كثيراً ما أوى إليه مع كارل أغسطس — على الأسطر التى كتبها بقلمه على الحائط منذ عدة سنوات .

« إن الهدوء والسلام يستقران فوق قنن الجبال . وإنك

قلما تشهد أيسر الأنفاس فوق قمم الأشجار . بل إن صغار الطير في الغابة قد سكنت أصواتها . ولكن مهلا — فأنت أيضاً سرعان ما تسكن وتستقر . »

ومسح الدمع من عينيه ، وردد العبارة الأخيرة « — فأنت أيضاً سرعان ما تسكن وتستقر . »

وعاد إلى بيته . وظل فترة قصيرة بعد ذلك يتغنى بتلك الأغاني السحرية «التي يعانقك فيها اللفظ ، وتقبلك الفكرة » — كما يقول شين . وأخيراً في اليوم السادس عشر من شهر مارس من عام ١٨٣٢ عجز عن مغادرة الفراش . و بعد ذلك بستة أيام ، وسط الهمس الساكن من آل بيته ، أغمض عينيه — وتلاشت أغنية حياته في صمت أبدى .

وكانت آخر الكلمات التي خرجت من بين شفتيه — « مزيداً من الضياء ! »

ألفر جولد سمث

١٧٢٨ — ١٧٧٤

---

(١)

ألفر جولد سمث كاتب إنجليزى من كتاب القرن الثامن عشر ؛ عالج فنوناً مختلفة من الأدب ، فقد كان شاعراً مجيداً ، وروائياً بارعاً ، وكاتباً مسرحياً بليغاً . وكانت حياته نفسها قصة ممتعة كثيرة الحوادث ، فاقتبس منها الكثير وقصّه علينا فى روايته الشهيرة « قسيس و يكفيلد . »

نشأ جولد سمث فى إرلندة — كما نشأ غيره من الكتاب الإنجليز — من أسرة أصلها ساكسونى عريق ، ومذهبها البروتستنتية . وقد لاقت هذه الأسرة كثيراً من اضطهاد العامة بسبب أصلها الجنسى ومذهبها الدينى .

تعلم أبوه فى مدرسة قروية ، ولما شب تزوج من ابنة صاحب المدرسة ؛ والتحق بخدمة الكنيسة ومارس الزراعة إلى جانب عمله الدينى . ولكنه كان — رغم هذا — فقيراً لا يكفى دخله السنوى للإنفاق على زوجه و بنيه .



جولد سمث

وفى نوفمبر من عام ١٧٢٨ ولد لهذا القس ولد أسماه (أُلِقَرْ). وكان ميلاده فى (پالاس) وهى قرية منعزلة من أعمال إرلنـده تبعد كثيراً عن لندن — تلك العاصمة الـكبرى التى قضى فيهـا ألقر فيما بعد الشطر الأكبر من حياته . وما تزال هذه القرية إلى يومنا هذا نائية عن المدن الـكبيرة والطرقات العـامة ، حتى إن الزائر لموطن الشاعر الأول لا بد له قبل أن يهبط القرية من أن يسير طويلا على قدميه . والقرية تقع وسط سهل مقفر موحش يتحوّل إلى مستنقع كبير فى فصل الأمطار . ويتعسر على الراحل أن يدرك قلب القرية لضيق طرقاتها وانتشار الوحل خلال المبانى ، حتى إنه ليـكاد يستحيل على العربات أن تتابع سيرها حتى تبلغ مهبط هذا الأديب العظيم .

أسلم الأب ابنه إلى خادمته تعلمه حروف الهجاء . ولمـا بلغ السابعة من عمره بعث به إلى مدرسة قروية يلقن معلموها الأطفال مبادئ القراءة والـكتابة والحساب ، كما يقصّون عليهم قصص الجن والعفاريت وخوارق الطبيعة ، ويسمعونهم الأناشيد الوطنية والموسيقى الإرلندية التى شغفها ألقر طوال حياته .

لبث ألقر جولد سمث فى هذه المدرسة عامين ، ثم تنقل بعد ذلك من مدرسة ثانوية إلى أخرى متثقفاً خلال ذلك باللغـات

القـديمة ، ولم يكن فى هذه الفترة سعيداً فى حياته . وله فى أحد مقاصف لندن لهذا العهد صورة يبدو على ملامحه فيها أثر الإعياء ومسحة من الـكآبة تـكاد تبلغ مبلغ القبح والتشويه ؛ وفى قسمات وجهه آثار بيّنة من الجدرى لا يخطئها الناظر إليه . وكان قصير القامة ليس بين أعضاء جسمه شىء من التناسب أو التناسق . وأطفال المدارس — كما نعلم — قساة على زملائهم من ذوى العاهات والعيوب الجسمية ، فأثار جولدسمث سخرية التلاميذ ، كما هزأوا بسذاجته الريفية وزلاّته اللفظية التى تلقنها وهو يافع فى قريته . كان التلاميذ يتحاشون صحبته فى الملعب ، والأساتذة يشددون عليه العقاب فى الدرس .

ودارت الأيام دورتها ، وارتفع هذا الشاب إلى أوج الشهرة وعاد زملاؤه فى الدرس بذكرياتهم إلى أيام الطلب ، فتذكروا أن صاحبهم هذا كان كثيراً ما يرد عليهم بنكات تنم عن ذكاء نادر ، كما كان يقرض الشعر فى يسر وسهولة دون أن يلتفت إليه أحد أو يجتذب إليه الأنظار ، ويرى الباحث المنصف فى حياته الأولى ، وفى نظْمه الباكر ، بذور تلك العبقرية العظيمة التى تفتحت عن قصة « قسيس ويكفيلد » الشهيرة وقصيدة « القرية المهجورة » العصماء .

ولما بلغ الفتى السابعة عشرة التحق بكلية « ترنتى » فى دبلن طالباً بها ، يتلقى العلم بغير أجر ، ولا يدفع شيئاً عن طعامه أو مسكنه ، وذلك لقاء أدائه بعض الخدمات الوضيعة بالـكلية : كتنظيف الحجرات ، وتقديم الطعام لزملائه ، وغسل الأوانى وما إلى ذلك . وكان مأواه فى غرفة عليا يساكنه فيها آخرون ؛ وقد نقش اسمه بخط يده على إحدى نوافذ الغرفة ، وما تزال آثار هـذا النقش بادية حتى اليوم .

ولـكن جولد سمث أهمل الدرس وفشل فى الامتحانات ، وكان دائماً فى مؤخرة التلاميذ . يحاول أن يُضحك الطلبة بنكاته وألاعيبه ، ويدعو رعاع المدينة إلى غرفته للرقص واللهو ، حتى اضطر أحـد المربين بالـكلية أن يقرعه بالعصا عقاباً له على سوء مسلـكه .

وبينما كان جولد سمث يحيا هذه الحياة الفوضوية فى دبلن مات أبوه ولم يورث ابنه غير دارهم معدودات . ولما حصل الطالب على درجته الجامعية انقطع عن الدراسة وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ورحل إلى أمه وسكن فى بيتها . وفـكر حينئذ أن يقوم بعمل من الأعمال يكسب منه عيشه . ولـكن تعليمه الجامعى لم يؤهله لعمل مفيد ؛ وكأنه لم يفد من الدراسة غير إتقان

الملبس وآداب المائدة ، وحب الميسر ، والتغنى بالأناشيد الإرلندية ، وعزف المزمار ، واللعب فى الصيف ، ورواية القصص الخيالية إلى جانب المدفأة فى الشتاء . وقد حاول مِهَناً متعددة فشل فيها جميعاً : تقدم إلى الكنيسة ليشغل وظيفة دينية ، ولكن رداءه الزاهى وعنايته بهندامه وأناقته بعثت الشكوك فى رجال الدين فلم يقبلوه بينهم ؛ ثم اشتغل معلماً خاصاً لأبناء أسرة من أسر الأغنياء ، ولكنه سرعان ما اختلف معهم وفُصل من عمله . وفكر بعدئذ فى الهجرة إلى أمريكا ، فامتطى جواداً مطهماً ، وسار نحو ميناء « كورك » ليبحر منها وبجيبه ثلاثون جنيهاً ، ولشد ما كانت دهشة أمه حينما عاد إليها بعد بضعة أيام على ظهر حصان نحيل ، وليس بجيبه بنس واحد ؛ وزعم لأمه أن السفينة التى اعتزم الرحيل على ظهرها أقلعت قبل موعدها المضروب ، وكان فى حفل مع إخوانه فلم يعلم بذلك .

وعزم بعد هذا على دراسة القانون ، وقدم إليه أحد أقاربه الأغنياء خمسين جنيهاً عوناً له على إتمام هذه الدراسة . وما كاد إخوانه المقامرون يعلمون بهذا المبلغ حتى أغروه على المقامرة فى مقهى من مقاهى دبلن ، وخسر فى ليلة واحدة كل ما كان يملك من مال .

وفكر بعدئذ فى دراسة الطب ، وقد تبرع له بعض المحسنين بالتكاليف . فرحل إلى أدنبره وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، وانتظم فى الدرس عاماً ونصف العام تعلم خلالهما شيئاً من الكيمياء وشيئاً من علم الحياة . ثم رحل إلى (ليدن) ليدرس علم الطبيعية كى يتمم دراساته التمهيدية للطب . وترك هذه الجامعة — وهى ثالثة الجامعات التى التحق بها — فى سن السابعة والعشرين دون أن يحصل منها على درجة علميه ، وليس لديه سوى شذرات يسيرة من علوم الطب ، ولا يملك غير ردائه الذى يرتديه ومزماره يعزف عليه الأناشيد . وكان له هذا المزمار خير رفيق ، فقد انطلق وحيداً يضرب راجلاً فى أراضى الفلاندر ، وسهول فرنسا ، ومرتفعات سويسرا ، ينفخ فى مزماره فيتجمع حوله الفلاحون يرقصون ، وينفحونه دريهمات قليلة يشترى بها زاداً يسيراً يتبلغ به . وأمعن فى الرحلة حتى بلغ إيطاليا . ولكن موسيقاه لم تَرُقْ للإيطاليين فاضطر إلى التسول عند أبواب الأديرة والمعابد يلتمس قوت يوم وفراش ليلة . وقد روى لنا جولدسمث قصته هذه خلال روايته « قسيس ويكفيلد » ، ولكنه لم يلتزم الحق فيما روى ، لأن الصدق لم يكن فى يوم من الأيام ديدنه ؛ ولا بد أن يكون القارئ حريصاً عندما يقرأ لجولدسمث شيئاً يرويه عن حياته أو

عن رحلاته . و يقول الكاتب فى إحدى قصصه إنه حضر بنفسه حديثاً دار بينه و بين ڤلتير وفنتنل فى مدينة باريس ، ونحن نعلم بالتحرى أن ڤلتير لم يطأ بقدمه أرض باريس طالما كان جولدسمث يجوس خلال القارة الأوروبية .

وفى عام ١٧٥٦ عاد هذا الشاعر المتجول إلى وطنه لا يعينه فى الحياة مال أو صديق . و يزعم أنه كان يحمل شهادة فى الطب من (پادوا) ، ولكننا — كما قدمنا — يجب أن نكون على حذر فى كل ما يرويه هذا الكاتب عن نفسه . ومهما يكن من شىء فإنه لم يفد من طبه شيئاً ، ولم تدرّ عليه هذه المهنة درهماً واحداً ، بل لعله لم يمسك بيده قط مبضعاً ، ولم يُلْقِ بنو وطنه لمزماره أذناً مصغية ؛ ولم تكن بالبلاد أديرة ، فاضطر إلى التماس العيش من طريق آخر . اشتغل ممثلاً متنقلاً ، ولكنه بوجهه المشوّه بآثار الجدرى و بقامته القصيرة وشكله القمىء لم يلاق على المسرح نجاحاً ؛ فاشتغل خادماً فى مدرسة ، ومساعداً لصاحب مكتبة . بل لقد كان أحياناً يضطر إلى أن يتسول و يمد يده يطلب الإحسان ! وأخيراً ظفر بوظيفة فى القسم الطبى بشركة الهند الشرقية ، غير أن الشركة سرعان ما فصلته لأنه لم يؤد لها خدمة واحدة تدل على دراية بالمهنة أو خبرة يسيرة بها .

(٢)

هذا قليل من كثير مما لاقى جولدسمث أول حياته فى سبيل كسب القوت ، وقد ضاقت به سبل العيش إلى أقصى الحدود . حينئذ التجأ الرجل إلى الأدب ، فاستأجر حجرة وضيعة فى أعلى منزل حقير سكن بها وسكن إليها بعد رحلات طويلة لم يصادفه فيها التوفيق . وأمسك بالقلم وهو فى الثلاثين من عمره ، وبدأ حياته الأدبية فخلف لنا صحائف رائعة ما زلنا حتى اليوم نقرؤها فنجد فيها لذة ومتعة .

وفى السنوات الست التالية أرسل إلى المطبعة بعض ما دبّجت يراعته ، من مقالات للمجلات والصحف ، إلى كتب للأطفال ، إلى غير ذلك مما حفظته الأجيال حتى يومنا هذا . وكتب كذلك « بحثاً فى انتشار التعليم فى أوربا » ، ورسالة فى « حياة ناشئ » ، وقد عفى عليها الدهر برغم أن ما وصل إلينا منها يدل على أنها مما يستحق الخلود . وكتب تاريخاً لانجلترا ، وهو بحث سطحى فيه كثير من الأخطاء ، كتبه فى صيغة خطابات من رجل نبيل إلى ولده ؛ كما كتب « صوراً تخطيطية للمجتمع فى لندن » فى صورة رسائل من رحالة صينى إلى صديق له فى الصين .

وقد نشر هذه الآثار الأدبية أول الأمر بغير توقيع ، ولكن القراء عرفوه من أسلوبه . وعرفه أصحاب المكاتب بالتدريج ، وصار كاتباً شعبياً محبباً إلى جمهور كبير من القراء . ولم يؤهله تعليمه للبحث الدقيق أو الكتابة الجدية التي تحتاج إلى إدمان الدرس والتمحيص ! لم يعرف جولدسمث شيئاً على وجه الدقة ، لأن قراءته كانت متناثرة متقطعة ، ولم يكن يمعن في التفكير فيما يقرأ . وشهد جولدسمث كثيراً من الدنيا ، ولكنه لم يحتفظ في ذاكرته بغير حوادث تافهة وشخصيات ليست لها قيمة تذكر ، غير أنها استهوت خياله فصوّرها بالفن الجميل .

لم يع جولدسمث إذاً كثيراً من العلم ، ولكن القليل الذي كان يعيه عالجه بطريقة بالغة الأثر في القرّاء . هو كاتب ، إن لم يكن عظيماً فقد كان إلى النفوس حبيباً ، أسلوبه سهل في قوة ، ورواياته شائقة ممتعة ، وأوصافه رائعة ، وفكاهته بارعة وإن كانت لا تخلو من روح الحزن والأسى . وفي كتابته على الجملة نبل لا تتوقعه من رجل عاش أكثر حياته في الأحياء القذرة من العواصم الكبرى !

وأخذت دائرة قرائه تتسع شيئاً فشيئاً . وتعرف إلى جنسن عميد الأدب في عصره ، وإلى رينولد زعيم المصورين الانجليز ،

وإلى بَرْك الخطيب المشهور ؛ وتوثقت بين الكاتب وهؤلاء الرجال البارزين أواصر الصداقة . وفى عام ١٧٦٣ اختير عضواً رئيسياً فى « النادى الأدبى » الذى كان يختلف إليه فى لندن جل رجال الفن والأدب .

(٣)

عُرف جولدسمث فى أوساط الأدباء وبين القراء فتوفر له المال ، وهجر الغرفة الحقيرة التى كان يقطنها ، وشغل حجرة فاخرة فى أحسن أحياء المدينة ؛ ولكنه كثيراً ما كان يعود إلى الحياة الوضيعة الأولى كلما اشتدت به الأزمة وضاق به العيش . وفى عام ١٧٦٤ أفلس الرجل ولم يبق فى جيبه درهم واحد ، وهددته ربة الدار بإخلاء مسكنه ، فأرسل إلى صديقه چنسن يطلب إليه النجدة ، فبعث إليه چنسن بجنيه واحد ، وبلّغه الرسول أن صديقه آت على الأثر ، ولما جاء چنسن ألفى صاحبه قد اشترى بهذا المال اليسير زجاجة خمر ، فجذبها من يده وعنّفه على سوء فعلته ، وطلب إليه أن يثوب إلى رشده وأن يحسن التصرف فى ماله ؛ فأجابه جولدسمث أن لديه رواية قد أعدّها للطبع والنشر ، فألقى عليها چنسن نظرة وقدرها قدرها ، ثم أسرع بها إلى أحد الناشرين

وباعها على التو بستين جنيهاً وعاد بالمبلغ إلى صديقه . فدفع جولدسمث أجر حجرته ، ودعا صاحبة الدار وصديقه الأديب إلى تناول الخمر على حسابه ... هذه الرواية التي باعها چنسن هي الرواية الخالدة « قسيس ويكفيلد » .

ولكن قبل أن تطبع هذه الرواية بلغ جولدسمث أوج الشهرة الأدبية . وذلك أنه في ديسمبر من عام ١٧٦٤ نشر قصيدة عنوانها « المسافر » ، وهي أول أثر أدبي أخرجه مذيلاً باسمه . وقد رفعته هذه القصيدة تواً إلى مصاف كبار الأدباء الانجليز ، وشهد له النقاد بالإتقان والجودة ، وتختلف القصيدة عن كل ما كتب جولد سمث طوال حياته الأدبية : فالأداء عنده أجمل دائماً من الفكرة ، ولكن الفكرة هنا خير من الأداء . « المسافر » قصيدة فلسفية ، موضوعها أن جوالاً إنجليزياً ألقى عصا التسيار على قمة من قنن جبال الألب ، حيث تلتقي ثلاث من ممالك أوروبا العظيمة ؛ ويرسل الرجل الطرف إلى ما حوله من فضاء ، ويذكر رحلته الطويلة ، ثم يأخذ في وصف مختلف المناظر والأجواء والحكومات والأديان وطبائع الأمم التي مر بها ؛ ثم ينتهي إلى أن سعادة الإنسان لا تتوقف كثيراً على النظم السياسية للدول ، وإنما عمادها مزاج الفرد واستعداده العقلي .

وقد أعيد طبع هـذه القصيدة أربع مرات قبل أن تظهر قصة « قسيس ويكفيلد » . وما إن ظهرت هذه القصة حتى لقيت رواجاً كبيراً ؛ وبقيت حتى اليوم من خير ما فى الأدب الانجليزى من قصص . وفى تكوين القصة كثير من العيوب : فكثير من حوادثها لا يحتمل الوقوع ، وفيها إغراب فى الخيال لا تجده حتى فى قصص الجن والسحرة ، ولا يربط حوادثها رباط من العقل والمنطق . ويقول المؤلف نفسه فى مقدمة الكتاب :

« فى هذا الكتاب مئات من الأخطاء ، ولدىّ مئات من الأدلة أستطيع أن أسوقها لبيان ما فى هـذه الأخطاء من جمال ، ولكن ليست بى حاجة إلى ذلك ؛ فالكتاب قد يكون ممتعاً رغم كثرة ما فيه من أخطاء ، وقد يكون مملاً دون أن تجد فيه مغمزاً واحداً ، وبطل هـذه الرواية يجمع فى شخصه ثلاثاً من أعظم ما يتميز به الإنسان من صفات : فهو قسيس ، وفلاح ، ورب أسرة . رسمتُه معلماً غيره ، متواضعاً ، قليل الثراء ، عظيماً فى المحن . ولكن هل تسرُّ هذه الشخصية أحداً فى عصرنا هذا الذى يطمح إلى جمع المال وإلى تعقيد العيش ؟ إن أولئك الذين يغرمون بالحياة الرفيعة قد يزدرون السذاجة التى تتجلى فى المدفأة الريفية التى يأوى إليها هـذا الرجل . وأولئك الذين يخلطون بين الفكاهة

البريئة وبذاءة اللسان ، قد لا يجدون فى حديث هـذا الرجل البرىء ما ينم عن فطنة وذكاء . وأولئك الذين تعلموا السخرية بالدين ، سوف يضحكون من رجل يستمد عزاءه فى بلواه من عقيدته الراسخة فى الحياة الآخرة . »

وفى الفصول الأولى من هـذه القصة حلاوة الشعر الريفى ، كما أن فيها حيوية الملاهى .

وقد شجع نجاح جولد سميث كـكاتب روائى أن يعالج المسرحية . فـكتب رواية « الرجل الطيب » . ولم يبلغ جولد سمث بمسرحياته حد الإجادة ، غير أنها درّت عليه ربحا وافراً .

وفى عام ١٧٧٠ أخرج جولد سمث قصـيدته الشهيرة « القرية المهجورة » ؛ وقد قصد بها تصوير الموات الذى لحق بالقرى بعد الثورة الصناعية فى انجلترا ، وهجرة الناس إلى المدن . ولاقت هذه القصيدة من القراء ترحيباً أكثر مما لاقت قصيدته السابقة « المسافر » . فى هذه القصيدة ينقم الشاعر على الثروة والترف ، ولـكنه يقدم — دفاعاً عن رأيه — منطقاً سقيما لا يقبله العقل السليم .

ولـكن هل نحكم على القصيدة بما فيها من صحة الفكرة ؟ كلا ! فليس من واجبات الشاعر أن يحسن التعليل والتدليل ،

وإنما عليه أن يجيد الوصف ، كما أن عليه أن يفتح عينيه على العالم الذى يعيش فيه ، وأن يكون دقيق الملاحظة ، وأن يرسم لنا من الحياة صوراً صادقة من الواقع ، وألا يعرض علينا صوراً مشوهة من الحياة الواقية لا وجود لها ولا يمكن أن يكون لها وجود . وما أشبهه إن فعل هذا بالمصور الذى يخلط فى صورة واحدة بين مناظر الربيع ومناظر الشتاء ، فيجمع فى صورة واحدة بين الزهر والجليد . وهل يكفينا دفاعاً عن مثل هذه الصورة أن نقول إن المصور أتقن إبراز الألوان فى كل جزء على حدة ، فالزهرة زهرة والجليد جليد !

فى قصيدة « القرية المهجوة » مثل هذا الخلط بين الزهرة والجليد ، فيها صور مختلفة ليس بينها انسجام أو تناسق . فالشاعر يصور لنا القرية فى صورتين : يصورها لنا جميلة سعيدة ، ثم يصورها بعدئذ بائسة قبيحة ، والقرية الجميلة التى يصورها الشاعر صورة خيالية لبلد لا وجود له ، وما حل بها من خراب مبالغة الى أقصى الحدود .

ثم عاد جولد سمث إلى الكتابة المسرحية ، فأخرج رواية « أذلت نفسها فتمكنت » ، وهى ملهاة مثيرة للضحك ، وقد نجحت نجاحاً كبيراً وراجت ، وأقبل الناس يرونها ممثلة على المسرح .

وبينما كانت جولد سمث يشتغل بكتابة هذه المسرحية وبعظم « القرية المهجورة » ، كان يقوم بعمل آخر ليست له قيمة أدبية كبيرة ، ولكنه در عليه مالا كثيراً . وذلك أنه أخرج لتلاميذ المدارس كتاباً عن « تاريخ روما » ، وآخر عن : « تاريخ انجلترا » ، و « تاريخ اليونان » و « التاريخ الطبيعى » . ولم يكلف نفسه فى تأليف هذه الكتب مشقة البحث ، وإنما اكتفى بالاختيار والاختصار ، والتعبير بلغة واضحة سهلة عما كان فى بطون الكتب الأخرى التى كان حجمها وجفاف لفظها يجعلانها غير صالحة لاستعمال التلاميذ . وقد أخطأ فى هذه الكتب أخطاء فاحشة ، لأنه هو ذاته لم يعرف شيئاً على وجه الدقة . جاءت فى كتابه « التاريخ الطبيعى » خرافات عن عمالقة يقطنون بتاجونيا ، وقردة تنطق بالحكمة ، و بلابل تستطيع رواية الأحاديث الطويلة . ويقول الدكتور جنسن عنه فى هذا الصدد : « إن أقصى ما يعرف جولد سمث عن علم الحيوان أن يميز بين الحصان والبقرة » . ومما يؤيد ضعف معرفته بالعلوم الطبيعية ما ذكر من أن الشمس يستطيل شكلها فى الأبراج الشمالية ، وأن الإنسان يحرك فكه الأعلى عند مضغ الطعام . ولكنه — رغم جهله فى حدته الناحية — من الكتاب القلائل الذين حاولوا

تبسيط العلم وتيسيره على الطلاب . وقد كان بارعاً فى الاختيار والتلخيص ، فكان الأطفال يستمدون من كتبه متعة كبيرة ؛ وهى — من أجل هذا — تستحق منا شيئاً من العناية والدراسة .

(٤)

وأصبح جولد سمث الآن رجلا ثريا يستطيع أن ينعم بالراحة والترف ، وبات يتمتع بشهرة عريضة ، وأخذ نجمه فى الصعود ، واختلط بأعلى الأوساط العلمية والأدبية ، وعرف خير المحدّثين فى زمنه : عرف جنسن زعيم الأدب فى عصره ، وبَرْكْ الخطيب المصقع ، وجَارِكْ مدير المسارح الكبيرة فى لندن ؛ وتطلع إلى أن يباريهم فى طلاقة اللسان والحديث . ولكن من العجيب أن هذا الرجل الذى كان يتميز أسلوبه حين يكتب بالوضوح والحيوية والرشاقة ، كان كلامه حين يتحدث فارغاً يكاد يكون ضجيجاً بغير معنى ، وما أبعد الشقة بين ما كان ينشر وما كان يقول . قال عنه جَارِكْ : « إذا كتب فهو ملاك وإذا تحدث فهو ببغاء » . الفكرة الأولى إذا طرأت لجولد سمث مضطربة سخيفة ، فإذا أعطيته فسحة من الوقت اتضحت الفكرة فى ذهنه وعبر عنها تعبيراً جميلاً . ومن ثم فإن جولد سمث إذا كتب سحر قارئيه ،

و إذا تحدث صدّع سامعيه . وقد أدرك ضعفه فى الحديث ، ولـكنه لم يملك القدرة على ضبط لسانه ، فلم يمتنع عن الإدلاء بالرأى إذا دعا الداعى ، ولـكنه سرعان ما يحس بركاكة القول وتعلو خديه حمرة الخجل .

ومن أجل هذا كان عارفوه وخلطاؤه لا يقدرونه قدراً كبيراً ، يحبونه ولا يحترمونه . كان طيب القلب إلى حد الضعف ، كريماً إلى حد البذخ ، متسامحاً إلى حد يشجع غيره على النيل منه ، جواداً حتى لم يبق له ما يسدُّ به دَيْنه . وكان مغروراً ، مندفعاً وراء شهواته ، مستهتراً ، مسرفاً ، قصير النظر ؛ وفوق هذا كله كان يأكل قلبه الحسد . غير أنه كان يكتم فى قلبه حسده . فلا ينال بالدسيسة أو النميمة من منافسيه . كان صريحاً صراحة الأطفال ، لا ينافق ولا يداهن ، ولا يخفى رأيه حتى إن كان فى الرأى إيذاء لسامعيه . إذا أحس بالغـيرة لا يتظاهر بعدم الاكتراث — كما يفعل غيره من الأدباء — ولا يطرى إطراء خفيفاً ينم عن عدم الرضا والقبول ، ولا يستل سيفه الجارح فى الظلام يقتل به العدو دون أن يراه ؛ وإنما كان قلبه على لسانه ، يصرّح بما فى نفسه من غيرة ، سمع بُزوَلْ — مؤرخ حياة جنسن — مرة يكيل المدح لهذا الأديب العظيم

فقال له : « أرجوك ألا تنعت الرجل بهذه النعوت ، فإنك تحطم قلبي أيما تحطيم » . لم يكن جولد سمث ذلك الأديب الذى إذا لاقى أديباً غيره أطنب فى مدحه والثناء عليه ، و إذا ما خلا إلى نفسه أرسل فيه النقد اللاذع ينشره فى الصحف بغير توقيع . ولم يتخذ يوماً من التآمر وتدبير الحيل مكيدة لغيره .

و يعتقد كثير من مؤرخى الأدب أن جولد سمث كان رجلا نابغاً قست عليه صروف الدهر ، وقضت عليه ظروف الحياة أن يكافح المشقات والمصاعب حتى تحطم فى نهاية الأمر روحه . ولكن ما أبعد هذا القول عن الحق والصواب . أجل إن الرجل لاقى فى حياته كثيراً من أسباب البؤس والشقاء ، ولكن ذلك كان قبل أن يلج باب الأدب . وما إن ظهر اسمه على الصحيفة التى نشرت له قصيدته « المسافر » حتى أخذ المال ينهال عليه انهيالا ، و يتدفق إلى جيبه كالسيل العرم . ولئن وقع بعد ذلك فى المحن فَلْيُلق على نفسه الملامة وليبرئ منها الظروف . ولكن جولد سمث لو استحوذ على كنوز سليمان ما كفته ، فقد كان ينفق ضعف ما يربح . يتأنق فى اللباس ، و يسرف فى الولائم ، و يرمى بالمال عند أقدام الحسان ، وما تقدم إليه فقير إلا أعانه . ولكن هل تبددت كل ثروته فى اللباس والولائم ، وفى الصدقات وعند

النساء ؟ كلا ! لم يكن ذلك ، وإنما كان جولد سمث منذ حداثته مقامراً جريئاً مغامراً دون أن يمهر فى اللعب أو يتقنه ؛ فاضطر إلى الاستدانة من باعة الكتب والناشرين حتى نضب ماله وأفلس . ولم يكد يجد ما يسد به الرمق ، فتحطمت قواه ، وخارت روحه ، وألمت به حمى شديدة . واعتمد على علمه بالطب وتعرض لنفسه بالعلاج ، ولكن يا ليت ثقته فى طبه كانت كثقة الناس فيه — إذن لأنقذ حياته من براثن المرض ! قال لصديق له يوماً : « إنى لا أمارس مهنة الطب ، ولا أتكسب بها ، ولكنى أصف لأصدقائى العلاج بغير مقابل » . فأجابه الصديق : « بل صفه لأعدائك ! » . ووصف جولد سمث لنفسه الدواء فتضاعف عليه المرض ، واضطر إلى استدعاء الأطباء الخبراء . ولكن بعد ما استفحل الداء . وعزّ عليه النوم ، وفقد شهية الطعام ، واختل توازن عقله فى أيامه الأخيرة .

وفى ٣ أبريل من عام ١٧٧٤ فاضت روحه وهو فى السادسة والأربعين من عمره ، وبكاه أصدقاؤه وأحباؤه بالدمع السخين .



مونتینی

مونتيني

١٥٣٣ — ١٥٩٢م

(١)

مونتيني أديب فرنسي عاش في القرن السادس عشر ولم يخلف لنا سوى كتاب واحد ، وذلك هو « المقالات » وكأنه يصب نفسه صباً في هذا الكتاب الفريد الذى كان يدبج سطوره عفو الساعة بغير نظام أو ترتيب ؛ يرسل خواطره إرسالا كلما يدفعه إلى ذلك حادث يصادفه أو كتاب يقرؤه ؛ ويضمّن مونتيني مقالاته ملاحظاته في الحياة وتجاربه الطويلة التي جمعها في أسفاره في ألمانيا وإيطاليا ، والتي شاهدها في الحروب الدينية التي كانت فرنسا تصطلى نيرانها في عهده ، والتي مارسها بنفسه قاضياً وحاكما لمدينة بوردو .

وفي أخريات أيامه تخلى عن منصبه وشغل نفسه بالقراءة والتفكير ، ولزم بيته لا يكاد يفارقه . وكان كثير الإثبات والمحو فيما يكتبه ، لأنه كان يعتقد أن كل فكرة تدور في خلده قد طرأت لغيره من الكتاب من قبل وعبروا عنها أحسن تعبير .

ولذلك كان كثير الاقتباس من المؤلفين الإغريق والرومان ، حتى إن القارئ يشك فى مقدرة مونتينى على الابتكار . ولم ينفرد مونتينى بهذه الصفة فى عصره ، فقد كانت الثقافة اليونانية واللاتينية شائعة فى زمانه ، ينهل منها كل مفكر وأديب . وكان جِبُنْ المؤرخ الإنجليزى يرى أن التقيد بهذه الآراء العتيقة يقف حائلا دون تقدم الغرب ، وذلك لأن كتاب النهضة الأوربية كانوا يحتذونها ويقلدونها التقليد الأعمى دون أن يتشبعوا بروحها أو يستمدوا وحيها . ويرى جبن كذلك أن هذه الثقافة كانت تُثقل الرؤوس إلى حد يتعسر معه تحرير الفكر . وكانت جامعة باريس فى القرن السادس عشر لا تخرج غير قرّاء يحذق كتب الأقدمين — وبخاصة أرسطو — ولا يسمح لنفسه بحرية الرأى والتفكير .

(٢)

ولقد تشبع مونتينى بهذه الثقافة المستمدة من الكتب كغيره من أبناء عصره ، ولكنه كان يخالفهم فى أنه تمثلها وأصبحت جزءاً من عقله وفكره تعينه ولا تعوقه ، اللهم إلا حينما يقتبس من نصوصها اقتباساً صريحاً ، ولكنه حينئذ حاذق بارع . وهو

يقول : « ماذا يعود علينا إذا نحن ملأنا بطوننا باللحم ولم نهضمه ونتمثله ونتغذّ به ونستمد منه القوة ونحيله دماً ولحماً » . وفى موضع آخر يشبّه نفسه بالنحلة « التى تمتص من هذه الزهرة ومن تلك ولكنها تنتج العسل فيما بعد ، وهو عنصر من عناصرها الخاصة يختلف عن الزهر كل الاختلاف . »

فى « المقالات » يشرح مونتينى دخائل النفس البشرية ودقائقها ، تلك الدقائق التى لا ينفذ إليها إلا كل أديب ثاقب النظر ، ويميط مونتينى عنها اللثام ويعرضها لنا فى جلاء ووضوح لا يخشى فى نقده عرفا ولا عقيدة . يهمه أن يصل إلى الحقيقة ولا يهمه أن يحكم لها أو عليها . وقد اختار الكاتب الأمريكى أمرسن ستة من عظماء الرجال فى التاريخ ، كل منهم يمثل ناحية من نواحى النفس البشرية ، فكان من بينهم مونتينى يمثل الشك فى أقوى معانيه ، وبخاصة فى مقاله « ماذا أعرف » . ويقال إن مكتبة شيكسبير لم تحتو إلا على كتاب واحد ، وذلك هو «مقالات مونتينى» ؛ ولم يعجب الشاعر الإنجليزى بَيْرُن بأديب غير مونتينى . ولم يرجبن المؤرخ الإنجليزى غير رجلين اثنين فى القرن السادس عشر لم يتصفا بالتعصب ، وهذان هما هنرى الرابع ومونتينى .

كان مونتيني يعتقد أن العقل والجسم سواء فى الأهمية ، وقد كان هو نفسه مثال القوة البدنية : لا يتعفف فى مأكله ، ينام ملء جفونه ، ولا تضنيه الساعات الطوال يقضيها على ظهور الجياد .

لم يكن مونتيني ذلك الكاتب الذى يلبى مطالب عصره فحسب ، حتى إذا ما انقضت حياته عفّى عليها النسيان ، ولم يجد الناس من بعده فى أدبه غذاء لعقولهم . هو كاتب يطفئ شهوة التطلع والمعرفة فى الناس جميعا وفى كل العصور . ولعله يصور نفسه حين يقول : «إن القارئ المتمعن يكشف فى أدب كبار الكتاب عن ألوان من الجمال لم يفطن إليها الكتاب أنفسهم ولم يحلموا بها ، ويستمد منه مشاعر وتعبيرات لم يدركها مؤلفوها . »

كان مونتيني يقول : « أنا الحقيقة » ، ويقصد بذلك أنه لا يعرف شيئاً معرفة صحيحة غير نفسه . ولذا فهو فى مقالاته كثير التحدث عن نفسه ، لأن معرفة النفس لديه من أهم ضروب المعارف . وهو يقول : « يجب أن يُرفع القناع عن النفس البشرية كما يُرفع عن سائر الأشياء » . الناس لديه جميعاً سواء ، لا يختلف أحدهم عن الآخر إلا بما يحيط به من ظروف الزمان والمكان . وهو يصور نفسه فى جرأة وإخلاص ، لا يكاد يخفى عن قارئه

شيئاً ؛ يقول : « لم أر فى العالم كله ما يثير فىّ العجب والدهشة أكثر من نفسى . إن المرء يتعود نفسه بطول عشرتها ، فينسى غرابتها . ولكنى كلما عرفت نفسى زاد عجبى من عيوبى وقلّت قدرتى على تفسيرها » . ولم يعرف أحد نفسه كما عرفها مونتينى ، وكان يعتقد أن معرفة النفس لا تحتاج إلى شىء غير الإخلاص .

وإذا حاول مونتينى — كما فعل مرة — أن يرتب أفكاره فقد القارئ الاستمتاع به . إنما جمال أسلوبه فى ذلك التدفق الذى ينساب بغير تكلف وبغير جهد حتى إن أدى ذلك إلى التناقض . ومن ثم اختلف الكتّاب فى النظر إليه ؛ فباسكال وكانت يحسبانه مسيحياً مخلصاً ؛ وأمرسن يراه مثال المتشكك ؛ ويراه آخرون ساخراً ، ويقول سنت بيف عن هذه المقالات : « إن مونتينى بمحاولته أن يحلل نفسه ويحصرها فى بضعة ميول محدودة يمس قلوبنا جميعاً ، كل فى أعمق أسرار نفسه . وبتصويره نفسه فى جلاء لا يشوبه غموض صور أكثر بنى الإنسان . إن كلاً منا يجد قطعة من نفسه وهو يقرأ مونتينى . »

ولعل مونتينى أول أديب غربى أدرك ما فى الإنسان من تناقض ، وعنه أخذ كبار الأدباء الذين درسوا الطبيعة البشرية من أمثال شيكسبير وسرڤانتيس وراسين ؛ فكأن مونتينى يقدم

لهم مبادئ علم النفس التى يبنون على أساسها ما يكتبون من قصص ومسرحيات . ليس العاشق لديه عاشقا فحسب ، والبخيل بخيلا ، والجبان جبانا ، والجسور جسورا ، فى كل ما يعملون ؛ إنما قد يجمع الفرد فى شخصه بين هذه الصفات جميعاً ، بل ولقد تتألف نفسه من النقيضين .

(٣)

وتزوج مونتينى ولكن عاطفة الحب الرقيقة لم تعمر قلبه . وقد كتب مرة يقول : « إنه لأيسر للرجل أن يتجاهل كل علاقة بالمرأة من أن يكرس نفسه بكليتها لرفقة زوجته» . وكان لا يقدس النساء ، ويرى ألاّ يقمن بعمل غير إمتاع الرجال ورعاية شئون البيت . ولعله لم يعجب حياته بغير سيدة واحدة ، عطف عليها عطف الأب على ابنته ، وأحبها أكثر من كل شىء فى الوجود ، وقد عاونته كثيراً على إنجاز عمله الأدبى ، واحتفظت بالكثير من مخطوطاته التى جمعها الناشرون بعد موته واعتمدوا عليها فى نشر آراء هذا الكاتب العظيم .

وكان أطفاله يموتون وهم فى سن الرضاع فلا يحزن عليهم كثيراً ، ولكن قلب الرجل — رغم هذا — لم يخل من عاطفة

الحب البتة ، وبخاصة نحو الفقراء والمساكين ، وكثيراً ما بكى من أجلهم وواساهم وتصدق عليهم ، غير أن كتابات مونتينى فى جملتها لا تنم عن حياته العاطفية إلا فى جانب واحد — وهو جانب الصداقه . وكان لا يحب التكلف والظهور والتقيد بالعادات والتقاليد ، وإنما يميل إلى أن يطلق الحبل لنفسه على الغارب ، فيترك نفسه للطبيعة ولنداء الغرائز البهيمية ، غير أنه كان إلى جانب ذلك يملك القدرة على أن يتخلص من حكم الغرائز بين الحين والحين ، ولا يسمح لنفسه أن يقع فريسة لها أو أن تسترقَّه .

ولم يشعر مونتينى بالندم قط على ما فعل . يقول : « لو قدر لى أن أبدأ حياتى من جديد لسرت فى نفس الطريق الذى سلكته من قبل ، ولما غيّرت من حياتى قِيد أُنمله ، فإنى لست على الماضى بنادم ولا من المستقبل بمذعور » وذلك لأن مونتينى لم يكن مسيحياً مخلصا ، ولعله لم يقرأ الإنجيل مرة واحدة فى حياته ، ولم يقدس فى قلبه رجال الدين ولا الأمراء الذين يقول فيهم : « لهم من كل جوارحى الطاعة والخضوع ، ولكن عقلى لهم لا يلين ، فهو لا يستطيع أن يستكين أو يجثو كما تستطيع ركبتاى . »

ولكن مونتينى كان يحشر فى مقالاته الثائرة على الدين

بعض عبارات الاستسلام والرضا حتى يستطيع أن يذيعها بين الناس بغير مقاومة أو معارضة. فتسمعه مثلا يقول : « إن الحياة الباقية تستحق منا بإخلاص أن نتخلى عن الملاذ وشئون هذه الحياة الدنيا » . ولكن أمثال هذه العبارات يزج بها الكاتب زجا فى مقالاته التى تنادى كلها بضرورة التهالك على الملاذ . وإنك لتقرأ بعد هذه العبارة بأسطر قلائل فى نفس المقال : « ينبغى لنا أن نتكالب على ملذات هذه الحياة التى تنتزعها منا سنوات العمر واحدة بعد الأخرى . »

(٤)

كان يحب وطنه حباً جما ، ويحب باريس خاصة ، وهى « فخر فرنسا ، ومن أجمل وأنبل ما فى هذه الدنيا . أحبها حباً حاراً حتى إن عيوبها ونقائصها عزيزة لدىّ » ، ولكنه يحب الإنسانية أكثر من حبه فرنسا . يقول : « إنى أرى الناس كلهم مواطنىّ . وإنى لأعانق البولندى بشغف كما أعانق الفرنسى ... إن الصداقة التى تربط بين نفسين لتتخطى تلك العلاقة التى تنشئها أواصر الدم أو الإقليم . لقد ألقتنا الطبيعة فى هذه الدنيا أحراراً لا يكبلنا رباط مطلقا ، فحبس أنفسنا فى المتارق كملوك الفرس الذين أخذوا

على أنفسهم ألا يشربوا ماء غير ما يجرى به نهر (شوانز بز) وحرموا على أنفسهم كل مياه أخرى ، وودوا لو جفت كل أنهار العالم غير ذلك النهر . »

ولو ترك الكاتب لنفسه العنان لما استطاع أن يوفى مونتيني حقه من النقد والتعليق ، فمونتيني يتحدث عن كل شىء دون ترتيب أو نظام . ويستطيع كل إنسان أن يجد فى مقالاته بغيته ، وقد لا يعجبه ما يعجب به غيره . عنده المتناقضات ، وهو القائل : « إنى أقدم الشموع للقديسى كما أقدمها للشياطين » ، ولعله إلى الشياطين أشد ميلا .

وقد تأثر بهذا الكاتب فيمن تأثر به من الكتاب الإنجليز بيكن وشيكسبير . ترجمه إلى الإنجليزية فلوريو ، وعلى غرار مقالاته صاغ بيكن أول أديب إنجليزى عالج فى الإنجليزية هذا الضرب من ضروب الأدب . وفى المتحف البريطانى نسخة من ترجمة فلوريو لمقالات مونتيني عليها توقيع شيكسبير مؤلف هاملت التى تأثر فيها إلى حد كبير بفلسفة مونتيني ، كما تأثر بها فى رواية العاصفة التى يقول فيها على لسان جنزالو :

« لو آل إلىّ استغلال هذه الجزيرة وحكمها فماذا عسانى أن أفعل ؟ إنى لآتى فى دولتى بالمتناقضات . لا أسمح بالتجارة ،

ولا ترى فى حكومتى قاضيا ، ولن يعرف الأدب فى دولتى . والفقر والغنى والعمل لن يكون لها وجود . والتعاقد والإرث والملكية والزراعة لن تكون .

لن يكون هناك عمل : لأجعلن الناس جميعا كسالى خاملين ؛ وكذلك النساء — على أن يحتفظن بطهرهن وعفتهن . ولن يكون فى جزيرتى ملوك . كل مافى الطبيعة ينتج دون أن يتصبب من الإنسان عرق أو يبذل جهدا . ولن أسمح بالخيانة أو الغدر ، ولا بالسيوف والحراب والسكاكين والبنادق ، ولا أية آلة أو سلاح ، وستنتج الطبيعة من نفسها وفرة من كل شىء تكفى لإطعام شعبى البرىء . »

وقد تأثر شيكسبير — ولا مراء — فى هذه القطعة بمقال لمونتينى عنوانه « أكلة لحوم البشر » يصف فيه سكان العالم الجديد : عاداتهم وآدابهم ، كى يعير بهم سكان أوربا .

وتأثر به كذلك جيته فى حبه الحياة واهتدائه فيها بوحى الطبيعة العاقلة الحكيمة الشفيقة .

يعلمنا مونتينى الحرية ، وهو درس نافع لنا فى هذه الأيام التى بلغ فيها التعصب السياسى أشده . يقول : « وسط هذا الاضطراب الذى يقوم فى بلادنا لم تنسنى مصلحتى الخاصة صفات

أعدائى الطيبة ، ولا الصفات السيئة التى يتصف بها من اتبعهم ... إن الخطيب المصقع لن يفقد قيمته فى عينى لأنه يظهر نقائصى وعيوبى ... يريد الناس أن يخدموا شهواتهم دون الحقيقة ، وإنى لأخـدم الحقيقة دون شهواتى ، حتى لو أدى ذلك إلى الإجحاف بنفسى ؛ فإنى أخشى أن تفسدنى الشهوة ، لأنى أفقد الثقة فى نفسى فى كل ما يتعلق برغباتها » . ألسنا بحاجة إلى مثل إلى هذا الدرس فى هذه الأيام ؟

ولم يكن مونتينى يخشى الموت ، ويرى أن تَذَكُّره دائماً وتصوره يقلل من الفزع منه . يحب الموت كما يحب كل شىء طبيعى . والفلسفة عنده أن يتعلم المرء كيف يموت . ويقال إنه مات مسيحياً مخلصا لدينه . جاء فى مقالاته : « لو خيرت كيف أموت لاخـترت أن أموت على ظهر جواد لا على الفراش ، بعيداً عن بيتى وعن أصـدقائى » ولـكنه لفظ نفسه الأخير فى بيته إلى جوار زوجه وابنته .

إلى كتاب التراجم

[هذا خطاب مفتوح يوجهه الكاتب
الإنجليزى هافلوك أليس إلى كتاب التراجم]

---

(١)

سادتى :

لقد قضيت فى الأيام الأخيرة فى صحبتكم ساعات صامتات طوالا ، قضيتها فى شىء من المتعة والسرور . و إنى لأعود بذا كرتى إلى تلك الساعات بشىء من الرضا يمازجه السخط . ولذا فإنى أتقدم إليكم الآن بهذا الخطاب .

أحب أن تعلموا قبل كل شىء أنى قصدت إلى صحبتكم أولا كطالب يبحث عن تلك الصفة الإنسانية العجيبة النادرة التى تطلق عليها هذه الكلمة الغامضة « العبقرية » . وأحب أن أجمع — ما استطعت إلى ذلك سبيلا — المادة التى تمكننى من الوصول إلى نتائج حاسمة نوعاً فيما يتعلق بأسباب النبوغ وطبيعته المعقدة . ومن ثم ترون أنى يصح أن أكون خير قرائكم . إنى أقصدكم لا لأزجى أوقات فراغى ، ولا لأنى أجلّ هذا الزعيم

الدينى ، أو أتبع ذلك الرجل السياسى ، أو لأنى أقدس ذلك الموسيقى أو المصور أو الشاعر . وإنما أقصدكم بغية أن تمدونى بأروع ما لديكم عن شخصية فذة معينة مهما تكن الصورة التى تبدّت فيها هذه الشخصية . لأنكم جميعاً تزعمون أنكم تبذلون الجهد فى عرض أمثال هذه الشخصيات الفذة . وقد بحثت عندكم عبثاً عن عرض لأعظم الشخصيات ، وأقصد « حياة الرجل المتوسط » . لقد أخذتم على أنفسكم أن تحدثونى عن الحيوات الفذة . وإنى — ورأسى مفعم بالأسئلة — أتناول القلم لأسجل ما تجيبون به ، ولطالما ألقيت عنى هذا القلم على أنه دليل على الخمول ، وزائدة لا ضرورة لها .

لهذا أتقدم إليكم الآن جماعة لأظفر بالجواب . ولطالما أصغيت إليكم فى صمت واحترام . غير أن السنين أدخلت على احترامى لكم شيئاً من النقد ، وإنى لأرجو عفوكم عن الملاحظات التى أشق بها الآن صمتى .

إنكم — كما قلت — لا تجيبوننى بما يشفى غلتى فيما أحب أن أعرف . وسأزيدكم إيضاحاً عن ذلك فيما بعد ، أما الآن فإنى أحب أن أنبهكم إلى أنكم تحدثوننى عن أمور كثيرة لا أرغب فى معرفتها . فأنتم تحدثوننى عن حياة الرجال الذى اتصل بهم البطل

الذى تكتبون عنه . وتحدثوننى عن ملاحظاته العادية عن الناس العاديين الذين التقى بهم فى حياته ، والمدن التى تخلّف فيها . وقلّما تملّون من إخبارى بالتفصيل المسهب عن ألقاب الشرف التى أُمطرها فى أخريات أيامه . ولكن هذا كله ليس (بترجمة الحياة) وهناك خطأ أدق من هذا فى عملكم كثيراً ما تقعون فيه رأساً على عقب . ذلك أنكم تقومون بعمل المؤرخ . وليس المترجم بالمؤرخ . أجل إن الرجال يخلقون التاريخ . ولكننا لا نستطيع أن ندرس الفرد بالطريقة عينها التى ندرس بها إنتاج نشاط رجال عديدين . فإن أمثل الطرق للبحث فى « حركة الإصلاح الدينى » ليست أمثلها لدراسة شخصية لوثر ، ومن يترجم (للود) ترجمة وافية قل أن يصلح لتأريخ « الثورة الإنجليزية » فى ذلك العهد تأريخاً وافياً ، بل إنه كلما ازداد تأهيل الكاتب للعمل الأول قل تأهيله للعمل الثانى ، لأن معالجة الترجمة تختلف تمام الاختلاف عن معالجة التاريخ ، وكثرة التدريب على الترجمة لا تزيد المهارة فى كتابة التاريخ إلا بمقدار ما ينفع التدريب على عزف البيانو فى إتقان العزف على الأرغن ، ولكن أكثر البارزين منكم يمارسون الترجمة بعد التدريب على كتابة التاريخ . وكثيراً ما تنسون أنكم تؤدون عملا آخر ، و بعضكم يشتغل الآن (بقاموس

التراجم القومية) ، وهو عمل نافع جذاب ، وسوف يفوق بعد إنجازه أى عمل آخر من حجمه فى اللغة . ولـكنى أقلب فى أى مجلد من هذا القاموس فأنتقل من ترجمة إلى ترجمة ، بيد أنى لا أجد ترجمة حقيقية ، فأنتم تقدمون لنا عوضاً عن ذلك نبذاً من التاريخ وضعت فى غير موضعها .

ومن الجلىّ أنكم قلما سألتم أنفسكم : ما هى ترجمة الحياة ؟ إنكم افترضتم فى سذاجة أنها الدور الذى يلعبه المرء فى تاريخ الحضارة ، ولـكنكم بهذا الرأى تشوِّهون الترجمة والتاريخ على السواء ، فإننا لا نصيب الرأى فى التاريخ إذا نظرنا إليه من زاوية الفرد الواحد ، ومن ثمَّ فإن ترجمة حياة الفرد تاريخ مشوَّه . لا جدال فى أن الرجل العظيم يحمل بين جنبيه روحاً تعاونه على خلق تاريخ الحضارة — سواء أكان ذلك فى فعاله أو مكتشفاته أو إنتاجه الفنى — ولـكن سرد هذه الأعمال شىء يختلف عن الغرض من الترجمة ، كما أن وصف سطح الأرض شىء يختلف عن غرض العالم الفلـكى ، مهما تكن العلاقة وثيقة بين الأرض والشمس . نعم ليس من المستحيل أن نستنبط حياة الفنان وروحه من عمله ، ولـكن هذا لا يتيسر إلا ليد صَنَاع كتلك التى مدها ليناردى إلى الـكوميديا الإلهية فشرّحها تشريحاً ، ولا يستطيع

ذلك الكاتب الذى يتناول الكوميديا بالتعليق فيحدثنا عن كل شخص وكل مكان ورد ذكره عند دانتى . إنك إن أردت أن تؤرخ لأمة أو مدنية لا بد لك من أن تكتب عن شىء جامع معقد يختمر فيه ما أنتجه نشاط عدد كبير من الرجال لكى يثمر شيئاً يبعد عن عقول الرجال الذين خلقوه وعن حياتهم ، كما تبعد المسيحية عن عقل المسيح وحياته . إن وصف إنتاج نشاط الفرد — إذا كان هذا الإنتاج مما يستحق الذكر — إن هو إلا بمثابة المقدمة للتاريخ . أما وصف مولد الرجل العظيم ونموه كما كان على طبيعته الحقيقية من الناحيتين الجثمانية ، والنفسية — كعنقود العنب على شجرة الحياة ، لا كقطرة الكحول فى دن المدنية — فذلك هو ترجمة الحياة .

ولذا فإنى أتهمكم يا من تتصدون لهذا العمل العظيم بأنكم تعملون دائما على إغراقه فى عمل أحط منه شأناً أو على الأقل يختلف عنه اختلافاً جمًّا . غير أنى برغم ذلك كنت أقنع لو أنكم مكّنتمونى فعلاً من استيعاب صورة للرجل الذى تترجمون .

لو فعلتم ذلك لشددت على خصرى نطاقى ولوّحت بيمينى ويسارى ، لكى أزيل من حولى تلك المادة الزائدة التى تكدسونها تكديساً ، وأصل رأساً إلى الحقائق الحيوية . ولكن

هذه الحقائق لا وجود لها ! كم من مجلد ضخم يحوى ترجمة من التراجم أستطيع أن أختصره فى صفحتين . وأكبر الظن أن هاتين الصفحتين تكشفان لنا من الحقائق أقل مما تكشف لنا تلك الصور الحية المقتضبة التى يقدمها لنا كارليل عن الرجال الذين التقى بهم مصادفة وكأنه يلقى عليهم ضوءاً خاطفاً من البرق .

ومن ثم فإن الترجمة الوحيدة المعتمدة التى لدينا عن (ينج) والتى لم تنشر إلا بعد موته بسنوات عدة ، يمكن أن تختزل فى ستة أسطر فيما يتعلق بالحقائق البارزة الهامة حقا ، ذلك لأن الحقيقة الفذة اللامعة فى هذه الترجمة هى صورته المنشورة . هذا بطل من أبطال العلم الذين أنتجتهم هذه الأمة ، متوقد الذكاء متنوع المواهب ، نضعه فى صف هارفى ، ونيوتن ، وداروِن ، ويتحتم علينا أن نفقد إلى الأبد فرصة معرفته كرجل جسماً وروحا . ولم يبق لنا منه سوى صورة وجهه الجميل الذى ينم عن الطفولة ، وذلك الثغر الحلو ، وتينك العينين الواسعتين النفَّاذتين كما صوره لورنس . إن كل رجل عبقرى يحمل بين جنبيه قوة جديدة عجيبة يأتى بها إلى العالم . والمترجم عن حياته هو العالم البيولوجى الذى يعرف هذه الحياة الجديدة . وإنى لأقصدكم أيها المترجمون لأتعلم منكم مصادر هذه الطاقة الكبرى ، وتلك القوى التى دفعتها

والتى سيرتها فى اتجاه دون الآخر . وإنى أعترف بسرور أنكم فى هذه الأيام كثيراً ما تحدثوننى عن أسلاف البطل . وكنتم فيما سبق لا تحدثوننى بشىء عن أمهات العظماء ، وقلما كنتم تذكرون حتى أسماءهن . وهذا نقص ظاهر فى دراسة العبقرى وفهمه فهماً صحيحاً . كم كان يسرنى أن أزداد علماً بعنصر وطبيعـة تلك الأم التى أنجبت ذلك القديس الذى اكتسب محبـة الأنجليز عدة سنوات ، والذى كاد قبره ينهار من كثرة ماركع عنده حجاج شوسر ! ولـكنى — مع ذلك — أقول لـكم إنه بالرغم من أن العنصر والأسرة هما من غير شك عاملان هامان فى تـكوين أى رجل ، فهما ليس كل شىء ، وإلا لـكان إخوان البطل وأخواته أبطالاً كذلك . ولذا فلا حاجة بكم إلى أن تزعجوا أنفسكم أو تزعجونا بالتفصيل الدقيق عن حياة الأسلاف . بيد أنه يجدر بكم أن تحدثونا بشىء عن تلك الـكواكب التى تألقت فى تـكوين حياة الفرد ؛ نحب أن نعرف المؤثرات البدنية والخلقيـة التى أحاطت به أيام الحمل ، كما نحب أن نعرف الظروف المادية التى سبقت مولده ، وهل كان مولده طبيعياً وفى الأوان ؟ ولا شك أن دائرة أسرة البطل كانت فى وقت من الأوقات تعرف كل هذه الحقائق ، وبعضكم على الأقل كان يستطيع أن يحدثنا عنها

فيوضح لنا كثيراً مما يغمض علينا اليوم ، ولـكنكم قلما فعلتم ذلك ؛ بل قلّما اعترفتم بأن أمثال هذه الموضـوعات جزء من المعرفة ، ومع ذلك فإن مصيرنا جميعاً يتقرر إلى حـد بعيد فى اللحظة التى نخرج فيها من الأرحام ، و يتلو ذلك فى الأهمية ذلك الدور من الحياة الذى يبلغ قمته فى سن البلوغ والذى ينتهى بانتهاء دور المراهقـة ، فإن كل ما بقى من عوامل تكوين الفرد ينتهى بهذا الدور . لقد تم تركيب الآلة ، ودارت دورتهـا الأولى ، وليس بعد ذلك إلا أن تؤدى عملها فى هذه الدنيا ، وذلك أمر له أهميته ولـكنه عديم الأثر فى التـكوين . إنـكم مهما حدثتمونا عن السنوات الأولى من الحياة ، لن تـكونوا مسهبين فى الترجمة الصحيحة وهى وصف الحياة . و إننا لنرحب حتى بالوصف المفصل للألعاب والملاهى التى كان يمارسهـا البطل فى صباه إن تيسر ذلك ، كما حدثتنا أخت نيتشة ومؤرخة حياته عنه . وذلك لأن حياة الرجل بعد ذلك لا تزيد كثيراً عن هذه الألعاب نفسها ، يلعبها البطل الآن فى أسى متزايد وفوق ميـدان فسيح . و بعد سن العشرين تسهل مهمتكم وتتضح . وماذا بقى لـكم تحدثوننا عنه بعد الثلاثين إن بلغتموها ؟ إن كل ما يحـدث بعد الثلاثين أشبه ما يكون بانسياب المـاء بعد انبثاقه من الينبوع العظيم ، أو

انحدار الطاقة انحداراً بطيئا . فى هذه السنوات يتراجع الرجل ويخلى السبيل لأعماله ، سواء كانت هذه الأعمال هجوما على قلعة منيعة ، أو تغلباً على الألفاظ الشاردة . فمجهود البطل وعمله فى الحالين واحد ، سواء فى ذلك (جوفرى) عند ما تسلق أسوار بيت المقدس أو (فلوبير) وهو يدبج رسائله وهو فوق أريكته فى روان .

ولكنى أقول — كما حاولت أن أوضح ذلك من قبل — إن مجرد التحدث عن الأعمال ليس هو مأربنا عندكم أيها المترجمون . إذا كانت أعمال الأبطال حقيقية فسوف تتحدث عن نفسها فى التاريخ أو الشعر أو فى أية صورة مما يضمن لها البقاء . إننى إن أردت أن أرى صور (فلاسكى) ، فإنى لا أقصدكم ، وإنما أقصد مدريد . ولكنى أودلو أنكم تستطيعون أن تخبرونى كيف تسنى له أن يصورها ! إذا عالجتم البطل الكامل من خلال أعماله ، فإن الخدمة الكبرى التى تستطيعون أداءها ، والتى أرى أنها أهم خدماتكم ، هى أن تحدثونا لا عن عمله ، ولكن عن الظروف التى تم فيها هذا العمل . فإن أديتم واجبكم من هذه الناحية عرفنا طبيعة القوة . ثم نريد بعد ذلك أن نعرف فى أى مسلك سارت هذه القوة . وإنى أتهمكم صراحة أنكم قلما تحاولون أداء هذا

الجانب من واجبكم إلا إن كان ذلك عرضاً ، ومن زاوية واحدة ، وغالباً ما يكون ذلك نفاقاً ورياءً . إنكم ترون أنه أيسر لكم أن تضربوا فى أحشاء العمل ، وتقبل الناس له ، من أن تصفوا طريقة الرجل فى الأداء ، وأى عامل عاقه أو عاونه على الأداء . وكثيراً ما تحبون أن تصوروه لنا ، وكأنه يؤدى عمله مرتدياً حلة من الحديد لا تخترقها سهام الضعف الإنسانى ؛ وإنكم لتقنعون عند ما تتناولون رجلا حقيقيا — كإبراهيم لنكلن ، وهو رجل إن عز الرجال — بسرد حياته سرداً قويا معتمداً ، وفى خلال ذلك تُفقدونه الحياة حتى يصبح كالدمية المتحجرة . ويبدو لى أنكم كذلك الغلام الذى ورد ذكره فى الأمثال والذى لا يرى مولاه بطلا من الأبطال . إن البطل فى ميدان القتال قد يكون جباناً فى يد طبيب الأسنان ، والرجل الذى استطاع أن يواجه ثورة اشتراكية فكرية قد تعوزه الشجاعة لكى يسير فى لِسُنْ جروف (يشير هافلوك أليس بذلك إلى رجل مشهور من كبار المفكرين) . إن هذه الأشياء لا تضعف البطولة وإنما هى جزء منها ، فالمرء لا يستطيع أن يكون قويا فى ناحيتين فى آن واحد . ولا بد أن تعرف موطن الضعف عند الرجل قبل

أن تعرف قوته معرفة صحيحة . وكثيراً ما يكون ضعف البطل مصدر قوته . ذلك الضعف الذى يقول عنه هِنْتُن إنه طريق المقاومة السلبية ، الذى سلكته الطاقة الطبيعية الأصيلة ، لتحل بالرجل ، وتستطيعون أن تستغنوا عن سرد ضروب الضعف بالتفصيل إن رأيتم لذلك مبرراً — وهناك ما يبرر ألا تكون الترجمة سرداً تاريخيا مشيناً بسمعة الرجل — ولكنكم إن أبيتم أن تدونوا هذا الضعف ، فقد أخطأتم فهم وظيفة المترجم فهماً صادقاً ؛ وليس تاريخكم إلا أكذوبة حدتم فيها عن قواعد الأخلاق كما تحيد عنها أية صورة عن الحياة غير صادقة . إن حب ميخائيل أنجلو للرجال حبا أفلاطونيا أثر فى نحت تماثيله ، وحياة فكتور هوجو العائلية الفارغة لم تكن عديمة الصلة بمثله العليا فى الطهارة السماوية . والأدب ملىء باعترافات متعاطى الأفيون ومدمنى الخمور ، وما إلى ذلك مما لم يذكره المترجمون صراحة . إن شجرة الحياة لتفسد فى صميمها لو أنا سلبناها هذه الاتصالات ، ولم نشر إلا إلى الأوراق والزهور التى يسميها الناس خلقية ، وتجاهلنا الجذور التى يسمونها قذرة « غيرخلقية » ، وربما كانوا فى ذلك متأثرين بنفاقكم وريائكم . يجب ألا يثنيكم شىء عن الاعتراف بأن أخيل كان له عقب يتأثر بطعن

السهام[1] . فإنكم لو فكرتم فى الموضوع تفكيراً صحيحاً لعلمتم أن أخيل بغير ذلك العقب ما كان ليحشر فى زمرة الأبطال .

لقد أشرت مرة أو مرتين إلى وظيفة المترجم . و إنى لأسأل نفسى أحياناً : كم منكم يا ترى فكر فى حقيقة هذه الوظيفة ، وكيف تعدون أنفسكم عادة لهذا العمل ؟ و إنى لأحس أنكم قد تعتبرون سؤالى هذا إهانة لكم . ولكنى برغم ذلك أشير عليكم بالتفكير والتدبر . إن الروائى لا يمهر فى عمله إلا بعد الفشل ، وربما صادفه الفشل مراراً كما حدث لبلزاك وزولا . وقلّما يفلح الروائى لأول وهلة . والروائيون الذين اشتعلت مواهبهم بين عشية وضحاها انطفأت فيهم جذوة هذه المواهب كذلك بين عشية وضحاها . والتراجم التى بين أيدينا اليوم تشبه ما كنا نتداول من قصص إذالم يخرج لنا إلا قليل من الروائيين أكثر من محاولاتهم الأولى الناقصة التى صدرت عنهم أيام التمرين . مع أن القصصى يتولى عملا هيناً إذا قيس إلى عمل المترجم ، فهو يصور حياة الأشخاص السذج الذين يخرجهم من بنات أفكاره .

---

(١) إشارة إلى الأسطورة اليونانية التى تقول إن أخيل كان محصناً فى كل جسده ضد السهام إلا فى موضع واحد وهو عقبه الذى يمكن أن تخترقه الطعنات .

واذكروا أن ترجمة حياة الفرد ليست وحدها الفرع الوحيد من باب التراجم . فإلى جانب ترجمة حياة الفرد هناك دراسة حياة الأجناس البشرية — أو دراسة حياة الجماعة . و يحتاج مؤرخ حياة الجماعة — مثل أدولف باستيان — إلى تدريب تمهيدى فى علم الحياة وعلم النفس ، و إلى علم واسع فى الأدب ، و بحث شاق خلال رحلات يقوم بها بين الهمج المتطرفين ، و إلى تنبه مستمر لصغائر التفصيلات . ولكن هل يقر مؤرخ حياة الفرد راضياً أن حياة الجماعة أحق بالدراسة الجدية من حياة عظمائها ؟ اذهب إلى المتحف البريطانى أو إلى معهد الدراسات الإنسانية وانظر إلى مجموعات الصور الفوتوغرافية التى تدعو إلى الإعجاب ، والتى يصور بها مستر بورتمان كل خطوة فى تطورات الحياة بين (الأندامانيين) فى صنع القوس والنشاب مثلا ، أو انظر — إن استطعت — إلى الصور الشمسية الرائعة التى يسجل بها مستر إم ثيرن هنود غينا ذوى البشرة السمراء الجميلة ، فى كل مرحلة من مراحل عملهم و بخاصة ألعابهم . أليست صياغة المقطوعة الشعرية التى تخترق قلوب الرجال فى كل الأجيال جديرة بالدرس كصنع الرمح ؟ وهل لا يثير الرجل النابغ يجمع الأصداف من سواحل الأبدية الاهتمام ، كما تثيره ألعاب الهمج ! ومع ذلك فقل

من يحسب أن البحث فى الطريقة التى ألف بها (بيرنز) أغانيه أو صاغ بها (نيوتن) نظرياته جدير بالعناية . لقد كان يكفيهم أن يقولوا هذه الكلمة المقدسة « إلهام » ثم يضجعون على ظهورهم مطمئنين . ولكن علماء التشريح لم يدركوا أسرار التنفس بهذه الطريقة !

إن تاريخ حياة الفرد شبيهة كل الشبه بتاريخ حياة الجماعة . فتاريخ حياة الجماعة صورة حياة جنس من الأجناس ، وتاريخ حياة الفرد صورة دقيقة لحياة رجل واحد . وكلاهما فرع من فروع علم النفس التطبيقى ، وهى طريقة دقيقة للبحث العلمى . ولم يكن علم النفس إلى عهد قريب طريقة من طرق البحث ، وكان الفيلسوف يستوى فوق مقعد وثير يكتب تاريخ النفس البشرية فى استخفاف ، كما يجلس المترجم حتى هذه اللحظة ليكتب تاريخ نفس واحدة . وقد انقضى هذا العهد فيما يختص بعلم النفس البحت . وأصبح علم النفس علماً صحيحا لأول مرة منذ أسس (وندت) من عشرين عاماً مضت أول معمل لعلم النفس . وفى ألمانيا والولايات المتحدة — وهما الدولتان التى نتطلع إليهما اليوم للإستنارة فى هذا العلم الجديد — علمتنا مجهودات منشتر برج و بر بر وستانلى هولى وجاسترو وسكر بتشر

كيف نصل بالطرق الدقيقة إلى إدراك أسرار العمليات العقلية للرجل المتوسط . ولا يجرؤ اليوم أحد أن يسمى نفسه عالماً نفسياً إلا إن كان يألف طرق هؤلاء الرجال العاملين وما وصلوا إليه من نتائج . وقد زج قليل من علماء النفس فى إيطاليا وفرنسا بهذه الطرق فى بحث الشواذ من الرجال . وقام أوتولنغى بفحص ميدان الفكر الذى يجول فيه بعض النابغين من الرجال ، كما قام بينى بتتبع الطرق التى يسلكها بعض كتاب المسرحية فى التفكير فى مسرحياتهم وفى كتاباتها ، أمثال ديماس وجنكور وساردو وميلهاك و بخاصة دى كيرل ، ووصل إلى نتائج شائقة جداً . ولكن كم من المترجمين بذل جهداً مهما تكن المادة المتيسرة ناقصة — فى تقريبنا من قلب شخصية كبيرة مبتكرة أو من ذهنها الجبار ؟ والمترجم مع ذلك يزعم أنه يعرض علينا « حياة هذه الشخصية » وكم مترجم يدرك أنه عالم نفسى وأن قواعد فنه قد وضعت إلى حد بعيد — وأستميح فى ذلك عذر الباحثين الحقيقيين .

إنى على يقين تام أيها السادة أنكم تحسون إحساساً غرزيا بأن ما قدمت لكم هراء باطل . نعم إن عليكم واجباً للجمهور ، وهو يدفع لكم بسخاء على عمل تؤدونه على عجل ، لأن الجمهور عنده شعورٌ قلق بأن شهرة الرجل العظيم تفسد إذا لم تلتهم عاجلاً .

ثم إن عليكم واجباً آخر نحو الأقرباء والأصدقاء الشخصيين للبطل الذى تؤرخون له ، وهم لا يعاونونكم إلا إذا قدمتم لهم شخصية سمحة محتشمة محافظة على التقاليد مهذبة لا غبار عليها ولا شية فيها ، حتى ينظر إليها الرائى دون أن يجد فيها مغمزاً . ثم إنكم قد تقرون فى النهاية أنكم فى الأعماق لا تثقون فى أنفسكم أو فى قرائكم ، فلا تجرؤون على مس البطل من موطن ضعفه — أو على جذب الثور من قرنيه .

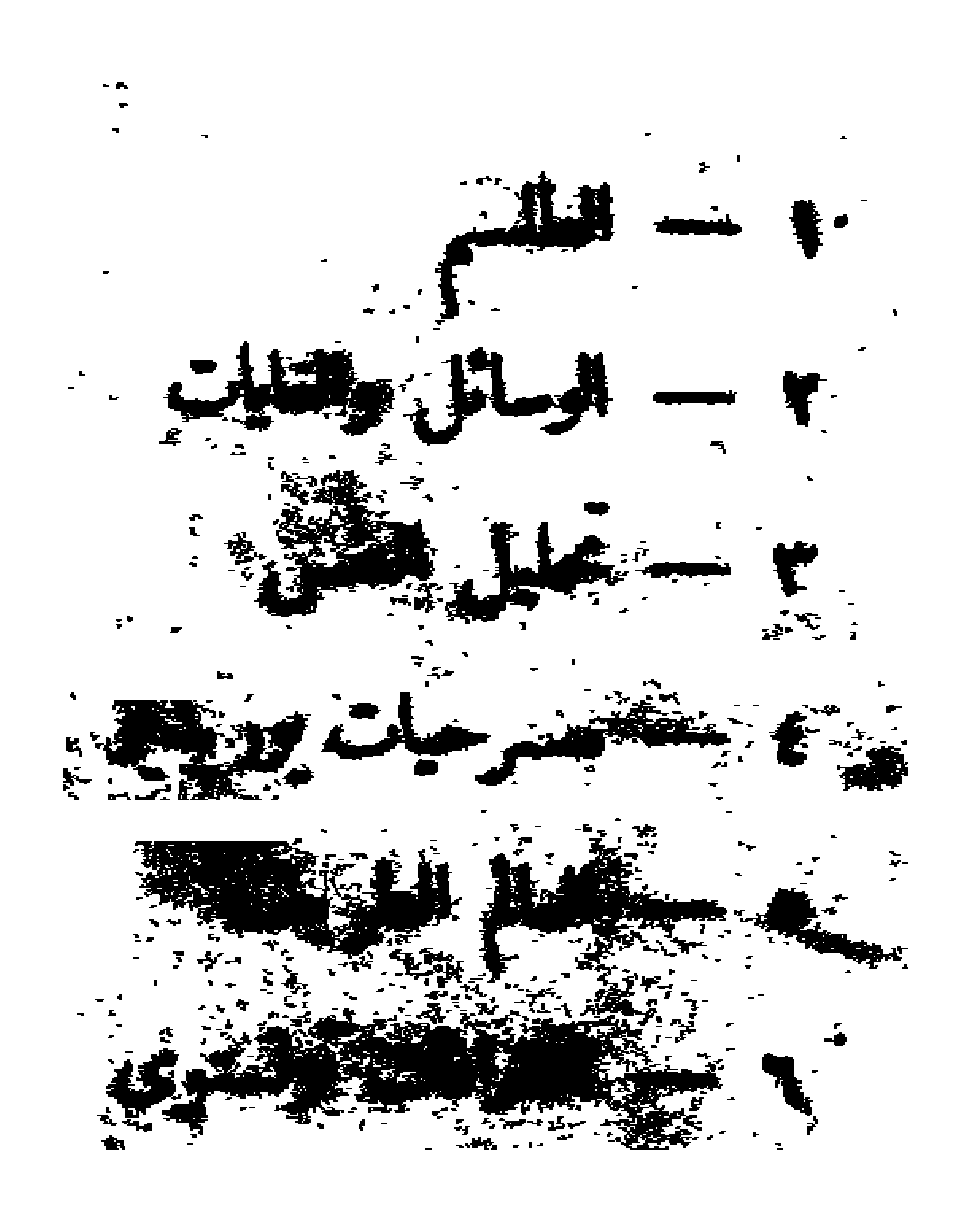
ولا شك فى صحة هذا . و إن فيه لكثيراً من الصدق ، مادمتم تكررونه خلال السطور فى كتبكم فى جد وغير انقطاع . ومع ذلك فقل من الرجال من لم تمت شهرته بين عشية وضحاها ، وبقى حياً بعد ما بات أقرباؤهم وأصدقاؤهم تراباً من التراب . وهذه الحالات النادرة هى التى تجعلنى أسائلكم : هل من الحكمة أن نضحى بمصلحة العالم فى سبيل مصلحة جيل زائل ؟ ألا يجدر بنا أن نلبث خمس سنوات — أو حتى خمسين سنة ، أو إن اقتضى الأمر خمسمائة سنة — ثم نظفر فى النهاية بسجل أبدى مُلْهِم لذلك الروح العظيم ؟ ألا يجدر بالمرء أن يعد من الغافلين قرناً ثم يصبح فى النهاية من الخالدين ؟ إنما الرجل الوضيع هو الذى يرتعد من إمكان الحصول على ترجمة للمسيح كترجمة بوزول

لچونسن ، أو أحاديث مع هومر كأحاديث أكرمان مع جيتة ، أو مجموعة لذكريات شيكسبير كتلك التي جمعها فرود ؛ وهو الذى يخلق جواً يجعل إنجاز هذه الأعمال من الصعوبة بمكان . وهذا الجو فى نفس الوقت هو الذى يجعل من الممكن أن يوجد نوع من البطل نادر فى الدنيا — وذلك هو البطل المترجم .

وعند هذه النقطة أحب أن أختم خطابى . إن كتابة الترجمة ليست عملاً يسيراً . إنما هى عصارة حياة طويلة شاقة ، ولا تتم إلا فى وجه عقبات تعدو الحصر ، وأهوال تفوق الوصف ...

فهرست

كتب أخرى للمؤلف



١ — الظلم
٢ — الوسائل والغايات
٣ — تحليل [illegible]
٤ — مسرحيات [illegible]
٥ — [illegible]
٦ — [illegible]

